الإصدار: 18



هـــو وهـــي:
قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم

د. عودة خليل أبو عودة





هو.. وهي

قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم

د. عودة خليل أبو عودة

الإصدار: 18 (يونيو 2009م / جمادى الأخرى 1430هـ)



د. عودة خليل أبو عودة:

من مواليد الأردن، حصل على الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها سنة 1988م، وعمل أستاذا للتعليم العالي بالجامعات الأردنية، وهو عضو مجمع اللغة العربية الأردني، ورابطة الأدب الإسلامي العالمية.

من إنتاجه العلمي: «التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم»، و «شواهد في الإعجاز القرآني»، إضافة إلى أزيد من ثلاثين كتابا في مناهج اللغة العربية بالأردن وعمان، وعشرات البحوث المحكمة بالمجلات العربية.



نهر متعدد ... متجدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة - رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487106 (956+) - فاكس: 22468134 (965+)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

الطبعة الأولى - دولة الكويت

يونيو 2009م / جمادى الأخرى 1430 هـ

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: 2009 / 018

ردمك: 978-99906-678-7-5

فهرس المحتويات



تصدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

ليس مبالغة القول إن ما كتب حول موضوع المرأة في الإسلام ، من حيث نظرته إليها وحديثه عن حقوقها ووضعها الاجتماعي والاقتصادي ، وما يتصل بذلك من اجتهادات الأئمة والعلماء ، قديما وحديثا... إن ما كتب حول ذلك يمثل،وحده، مادة خصبة لبحث بيبليوغرافي شامل ، سواء باللغة العربية أو غيرها من اللغات.

ومن شأن هذا الانطباع أن يخلف شعورا بأن الحديث في موضوع المرأة في الإسلام سيكون، حتما، من الموضوعات التي نضجت واحترقت ، كما يقال، وقد يكون الأمر كذلك، لكن الذي يميز كتاب» هو وهي : قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم» للدكتور عودة أبوعودة هو أنه يسعى إلى أن يزيل مختلف التراكمات التي شكلت حجبا كثيفة في وجه فهم آيات القرآن وتوجيهاته في الموضوع، والتي لم يزدها الاختلاف الفكري والمذهبي إلا كثافة، وأن يضع القارئ وجها لوجه بين يدي خطاب القرآن، يتأمل كلماته، ويتدبر صيغه وأساليبه، ليصل إلى حقائق ربما هي من البداهة بحيث لم يتم الالتفات إليها في سياق السجال الفكري والصراع الإيديولوجي.

ومعلوم أن الكتابة في موضوع ما ليست خاضعة لآلية منهجية صارمة، إذ يمكن تناول الموضوع الواحد من زوايا متعددة، ويكون لكل زاوية جدتها. ناهيك أن موضوع المرأة يعد من الموضوعات التي تثيير العديد من الإشكالات، خاصة مع التغيرات القيمية والحضارية، وانتشار مقولات الحداثة المتطرفة، وبروز مفاهيم جديدة في التراث الإنساني مثل مفهوم »النوع» ، واعتبار مقولات «الرجل» و«المرأة» من المقولات التاريخية التي تنتمي إلى ثقافات محافظة، وأن التطورات العلمية قد تتجاوزها، وتتعامل مع الإنسان نوعا يختار جنسه وانتماءه، وغيرها من القضايا التي تستدعي من الفكر الإسلامي مواكبة وبيانا.

لقد اختار الكاتب أن يعتمد منهجية تقوم على تتبع المفردات القرآنية الدالة على المعاني المتصلة بالرجل والمرأة، وأن يبحث في صيغها ودلالاتها وترتيبها ومناسباتها، ليستخلص المعاني التي يدعمها سياق القرآن وبيان اللغة .

فقد استقصى المفردات الدالة على الزوج والزوجية في القرآن الكريم، وبعد النظر والتأمل، خلص إلى أن الزوجية قانون يحكم الكون، وبناء على ذلك، فلامعنى لأفضلية أحد الزوجين على الآخر، يقول: «والزوجية هي نظام الكون... وقوام النظام الإنساني.. وقوام عالم النبات، وقوام كل الأنظمة التي لا نعلمها... ولم أسمع أحدا من الناس قدم زوجا على نظيره في أي عالم من العوالم الأخرى، عالم الحيوان أو عالم النبات، ، بل نحن ننظر إلى ما حولنا من مخلوقات ، ونسبح بحمد الله وقدرته جل شأنه، ونؤمن بأن كل خلق قائم على ما قدر الله، لانبحث عن فرد أفضل من غيره، ولاعن زوج أسمى من نظيره، فإذا وصلنا إلى عالم الإنسان تحطمت هذه الصورة النبيلة، وصارت المشاكل والخلافات، ونشب الجدال ، واحتدمت المعارك في تفضيل الرجل على المرأة ....»

وقد هدته هذه المنهجية إلى حقائق أودعها صفحات كتابه، لعل أهمها أن كثيرا من الأعراف التي تتلبس ممارسات الناس باسم الدين ، إنما هي مخالفة لأصول القيم القرآنية ، فليس في هذه القيم ظلم أو احتقار أو تهميش أو تعطيل لطاقة ، أو تهوين من كرامة، أو تفاضل يؤدي إلى الشحناء والعداوة والاستبداد، بل كل ما فيها مودة وسكينة وتعاون ومساواة نفسية واجتماعية واقتصادية ، وتوافق في تربية الأبناء وتأهيل الأسرة وتحقيق سعادتها وتوازنها مقدمة إلى سعادة المجتمع وتوازنه.

إن العودة إلى خطاب القرآن الكريم لاستجلاء صورة الرجل والمرأة في الإسلام، بعيدا عن ضجيج السجالات والخلافات، يمثل ميزة الكتاب الأولى، وقد انعكس ذلك على أحكام الكتاب و آرائه وتحليلاته ومقترحاته.

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن تقدم هذا الكتاب إلى القراء الكرام ضمن سلسلة إصدارات «روافد» ، ليوفر مستوى منهجيا في مراجعة موضوع المرأة في الإسلام وعلاقتها بالرجل ، مستوى قائم على العودة إلى آيات القرآن ، وتأملها وتدبرها وفق الشروط اللغوية والبيانية المعتبرة، والاهتداء بهديها في معالجة مختلف القضايا المتصلة بالمرأة والرجل في منظور الإسلام وفي واقع الحياة.

والله الموفق



مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

يعالج هذا الكتاب قصة الرجل والمرأة معالجة فكرية علمية جادة، بعيدة عن العاطفة والانفعال والتحيز، وبعيدة عن الصراخ والجدال الذي نشاهده في بعض برامج الفضائيات السيارة. سيعالجها وفق أسلوب القرآن الكريم، الذي يسوق اليقينيات والحقائق لكل إنسان، ويقول الحق الصراح، ذلك لأن القرآن الكريم لم يُوجَّه إلى فئة خاصة، ولا إلى شعب خاص، ولا إلى قارة محددة، بل هو أُنْزِل للناس جميعًا، لشعوب الأرض كلها، مع توالي القرون، واختلاف الأماكن؛ لأن الإنسان هو الإنسان حيثما كان، يستوي بعضهم مع بعض في كل الأمور الطبيعية، فتشكيلهم الجسدي والعضوي واحد، ونظامهم في إطار الحياة الأساسيّة واحد. والناس لا يختلفون إلا في الأمور التي هم يبتدعونها ويتخذونها دينًا لهم، ويشكلون حياتهم وفق الأهواء والعادات والتقاليد التي تظهر في حياتهم عبر الأيام.

ولذلك تجد القرآن الكريم يتحدث عن قضايا الرجل والمرأة على تنوّعها حديثًا متسقًا، متقنًا، صادقًا كل الصدق، ثابتًا كل الثبات، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يتحدث عن الرجل في مختلف مراحل حياته، وليدًا وطفلا وصبيًّا وغلامًا وفتى وشابًا ورجلا وكهلا وشيخًا ومعمِّرًا، ويتحدث عنه ولدًا وزوجًا وأخًا وأبًا وجدًّا. ويتحدث كذلك عن المرأة وليدة وطفلة وصبية وكاعبًا وشابة وعجوزًا، ويتحدث عنها أيضًا بنتًا وأختًا وزوجًا وأمًّا وجدة، يتحدث حديثًا علميًّا ثابتًا، يعتمد على الأسس والقواعد والأمور اليقينية، حديث الخالق عز وجل عن خلقه، حديث اللطيف الخبير العليم بما خلق ومن خلق وفق حكمته وعلمه وقضائه.

لهذا كله جاء هذا الكتاب يتحدث عن قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم، حديثًا هادئًا علميًّا موثقًا، ينشد الحقيقة الصادقة، ويقدم الفكرة الواعية النابعة من فهم آيات القرآن الكريم، غير متأثر بالأهواء الضيّقة،

ولا مجامل لبعض الأشخاص والجهات، ولا متردّد في ذكر الحقيقة، ولا منخذل أمام ضغط الواقع الاجتماعي القاهر. فكم تعرف وأعرف – أخي القارئ- أناسًا يعدون أنفسهم أفرادًا في المجتمع الإسلامي، ومن المتمسكين بمبادئ الدين القويم، حتى إذا فتح باب الحجاب – مثلا– وقيل فيه رأي الإسلام الثابت، أحسّ بعضهم بوخزة في قلبه؛ إذ إنه لم يفلح في إلزام أخته أو ابنته أو زوجه بالحجاب الشرعي، وليت الأمر يقف عند هذا، بل تجد كثيرًا منهم يحاول أو يؤول النصوص الصريحة في القرآن الكريم والحديث الشريف، ويأتيك بألوان من التفسير والفهم كأنها نابعة من قرن الشيطان. وكذلك يفعلون في شهادة المرأة في آية الدين، وفي آيات الزواج وآيات الميراث، وفي آية القوامة في سورة النساء، وما إلى ذلك من المسائل الاجتماعية التي تشكل حياة المجتمع كل يوم. ولو أنهم أنعموا النظر في آيات الله وقرؤوا الآيات الكريمة في سياقها القرآني، لوجدوا أن لله عز وجل حكمة بالغة فيما قرره من أحكام، وأن الحياة الإنسانية تكون أكثر سموًّا ورقيًّا وسعادة لو أن الإنسان تمسّك بشرع الله الحكيم.

في خضم هذه الأمواج الهادرة من البرامج والمسلسلات والأفلام والأغاني وبرامج التربية الموجهة، والمؤتمرات التي تعقد لمعالجة مشاكل الإسكان والسكان؛ في خضمّ هذا كله كادت تختفي من أفهام الناس مصطلحات سامية نبيلة كمصطلحات: الزوجة، والأم، والأخت، وصلة الرحم، والأمومة، والأبوة، وبر الوالدين. وأصبحت الصلات الاجتماعية بين هؤلاء الناس صلات مادية ميكانيكية تجري وفق المصلحة السريعة والقيم الزائفة والعادات المستوردة، فذابت هذه القيم أو كادت.

ومن المؤلم أن هذا كُلّه يحدث تحت عناوين عديدة خادعة، ولافتات كثيرة توضع كلها في غير موضعها.

إن المرأة هي – في أوجز تعبير – ريحانة الدنيا والآخرة في حياة الرجل، وهي التي تصنع معه الحياة الإنسانية، التي هي لولا وجودها ووجوده وفق

تقدير اللّه عز وجل لما استمرت الحياة الإنسانية على وجه الأرض؛ إن المرأة التي أقام اللّه عز وجل بها مع الرجل نظام الزوجيّة الإنسانية، إن المرأة التي وضع اللّه عز وجل لها من الآيات والقواعد والأحكام ما يجعلها كالملكة في كل مراحل حياتها، إن هذه المرأة هي التي يسعى هذا الكتاب إلى أن يقدم صورة عنها.

إن هذا الكتاب سيقدم المرأة وفق صورتها في القرآن الكريم لا يزيد ولا ينقص، وأكرِم بها من صورة وأعظِم بها من منزلة، سيتحدث عن تعاون الرجل والمرأة في صنع الحياة، هذا التعاون الفطري الذي من أجله خلق الرجل وخلقت المرأة، كل على الصورة التي فطر عليها، ولا تبديل لخلق اللّه. هذا التعاون والتكامل لم ينشأ وفق اجتهاد رجل ما أو مؤتمر ما، أو فلسفة ما، بل هو شرع اللّه الحكيم، تحدثت عنه آيات اللّه، كما تحدثت عن الشمس والقمر، والليل والنهار، والبر والبحر، والسماء والأرض، كما تحدثت عن كل ما يشكل نظام الزوجية في الكون، و﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولم أسمع، ولم أشاهد إنسانًا في الكون – فيما أعلم– فاضَلَ بين الليل والنهار أو بين الماء والهواء، أو بين الشمس والقمر، فقال إن هذا أفضل من ذاك، وأن هذا أكثر نفعًا وأجلُّ قيمة من ذاك. إن الأمر بين الرجل والمرأة هو كذلك أيضًا، وإن آيات القرآن الكريم كلها تحدثت عن الرجل والمرأة في مختلف شؤون الحياة، ووفق هذه النظرية المتكاملة، والزوجيّة الثابتة. فينبغي أن ينشأ كل الأفراد، ذكورًا وإناثًا، منذ البداية على هذه النظرية الواقعية الأساسية، ولو نشأ الناس على ذلك لاختفت كثير من المشكلات التي تنشأ عن التصورات الخاطئة، والممارسات السلبية.

على أن هذا الكتاب الذي بين يديك، ليس كتابًا في الفقه والأحوال الشخصية، فتبحث فيه عن أحكام الزواج والطلاق، والميراث والوصية، وغيرها من مسائل الفقه، إنه ليس كذلك تمامًا، وإن لدينا –والحمد للّه–

كتبًا وافية في هذه الموضوعات، وإن كنا لا نزال بحاجة إلى أن يواكب الفقه تطورات الحياة، فيقدم جوابًا شافيًا للمرء المسلم عن كل ما يعترض حياته من أمور تجدّ عليه كل يوم، وبخاصة الأمور المالية والتجارية وأمور العمل والدراسة والعلاقات الإنسانية وغيرها.

إن هذا الكتاب هو، في الحقيقة، نظرات بيانية في الآيات القرآنية التي تحدثت عن مسائل الرجل والمرأة، في أحوال كل منهما المتنوعة.. إنه نظرات بيانية في مختلف الآيات ذات الصلة بالموضوع.

وأعني بالنظرات البيانية التحديق في الأنماط والتراكيب اللغوية التي وردت فيها آيات الله عز وجل. فالقرآن نزل بلسان عربيّ مبين، وقد شاء الله عز وجل أن يكون كتابه الكريم قرآنًا عربيًّا ﴿الٓر إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ . وهذا –باختصار– يعني أن الله عز وجل أنزل شرعه الحكيم في كتاب، وأن هذا (الكتاب) نزل على صورة (القرآن) الكريم الذي جعله الله عز وجل معجزًا في بيانه. وبيان القرآن يعني أن وسائل التعبير فيه ووسائله وأنماط التركيب اللغوي، وتنوع الأساليب من قَسَم وأمر ونهي ودعاء ونداء، كل ذلك ورد في أسلوب قرآني معجز، عرف العرب مادته الأساسية في أدبهم، شعرًا ونثرًا، وعجزوا أن يأتوا بمثله، بمثل ما استمعوا إليه من رسول الله؛ وهذا سرّ دهشتهم، وسبب حيرتهم فمنهم من شرح الله صدره للإسلام، فأسلم وحسن إسلامه، ومنهم من أخذته العزة بالإثم ﴿فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ۞ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ وبقي على كفره وعناده.

تناولت الآيات الكريمة بالتحليل البياني، معتمدًا على معطيات اللغة، وأسرار التركيب اللغوي، مؤكدًا أن كل نمط لغوي له دلالته وله أسراره..

فتنوع الأفعال بين الماضي والمضارع والأمر، وتنوع الأفعال بين البناء للمعلوم والبناء للمجهول، وتنوع الصيغ الصرفية بين المشتقات العديدة المتنوعة، وتنوع الأسماء بين المفرد والمثنى والجمع، والتأمل في أسرار

التقديم والتأخير وأسرار التعريف والتنكير، وتدبر دلالات الحذف والذكر، واستنطاق أساليب القول المتنوعة، بين النداء والأمر والنهي والاستفهام والقَسَم.

إن النظر في الآيات القرآنية ومحاولة استخراج ما تشتمل عليه من دلالات ومعانٍ وفق هذه الأنماط المتنوعة، يكشف للباحث كنوزًا من المعرفة، وفيوضًا من الدلالات والأفكار، وزهورًا من اللطائف، كل ذلك في إطار من الخصائص الثابتة للتفسير القرآني، خصائص الصدق المطلق، والمعرفة المتطورة، والدلالات المستمرة التي يسهم فيها التطور العلمي، وتنوع وسائل المعرفة إسهامًا واسعًا بحيث يجعلها موافقة لحاجات الإنسان وتطور وسائل حياته، وتعدد مصادر معرفته على مر الأزمان.

ولَمَّا كانت آيات القرآن الكريم ثابتة، ودلالات اللغة واضحة وصحيحة، فإن ما يتوصل إليه الباحث يمكن أنْ يعد من قبيل الحقائق العلمية التي يتوصل إليها البحث الدقيق، وبخاصة إذا كان همُّ الباحث الإسهام في بيان ما في القرآن الكريم من صور الإعجاز، ومن لطائف البيان، ومن أسرار التفسير، دون أن يكون متحيزًا إلى فئة من الفئات التي تعبد الله على حرف، فتفسر آيات القرآن الكريم وفق هواها، ووفق مبادئها، فتجعل القرآن الكريم تابعًا لِمَا هي عليه من مواقف فكرية أو سياسيّة، في الوقت الذي يجب أن يكون القرآن الكريم في كل ما يكتب عنه، وما يؤلف حوله أساسًا يقاس عليه، وقاعدة تنطلق منها النظريات والعلوم والأفكار والسياسات، لا أن يتوجه الكتّاب والمفسرون بآيات القرآن إلى ما يريدون هم أن يزرعوه في أذهان الناس من أفكار أو مبادئ. وتذكرني هذه الفكرة بقول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «إنما يعرف الرجال بالحق، ولا يعرف الحق بالرجال».

وإن هذا الكتاب – كما تراه بين يديك– يعرض أفكاره ومعانيه من خلال مقالات متوالية، تدور كل منها حول عنوان محدد، وهذا العنوان هو نصّ آية قرآنية، أو جزء من آية. وقد رأيت أن هذا الأسلوب في تقديم المادة

العلمية ربما يكون أقرب إلى قلب القارئ.

وأحسب أن هذه الفكرة لو كتبت بطريق السرد المتصل في كتاب مستقل في عدة مئات من الصفحات لقلّ أن تجد قارئًا يصبر على متابعته، وبخاصة إذا اتخذ الكتاب أسلوب البحث العلمي الرصين المدعم بالأفكار والشواهد والإحصاءات والمناقشات والتحليل في صفحاته كلها.

على أني لا أحب أن يفهم الأخوة القراء أن هذا الكتاب وضع وفق ما يمليه الخاطر، دون العودة إلى مصادر المعرفة المتخصصة ومراجع البحث العلمي، بل إن معظم أفكاره، ومعظم ما ورد فيه من تفسير لآيات اللّه إنما عُدّت فيه إلى كتب التفسير المعتمدة المدوّنة في ثبت المصادر والمراجع. ولعل الجديد الذي فيه هو النظر البياني من خلال تنوع الأنماط اللغوية، واستنباط ما في الآيات من مظاهر البيان وأسرار الإعجاز القرآني، وهذا في ظني هو ما يشد القرَّاء الآن ويدفعهم إلى قراءة الكتاب، مقالة مقالة، راغبين في الاطّلاع على أسرار التركيب القرآني وباحثين عن أسرار البيان في آيات اللّه عز وجل.

ولعل في أسلوب تقديم الكتاب بهذه الصورة التي شرحتها، فرصة للاستمتاع بما يجده القارئ في ثنايا هذه المقالات المتوالية من صور البيان وشواهد الإعجاز، في الوقت الذي تقدم فيه المقالات الأفكار الدقيقة حول حقيقة الرجل وحقيقة المرأة ومهمة كل منهما في صنع الحياة الإنسانية.

وأسأل اللّه عز وجل أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم، وأن يكتبه لي عملا صالحًا وعلمًا ينتفع به، والحمد للّه رب العالمين.




﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴾

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴾

(١)

إن مصطلح الذكر والأنثى ليس خاصًا بالإنسان، فقد رأينا أن آيات القرآن الكريم ذكرت الذكر والأنثى مع الإنسان وبعض الأنعام كالبقر والضأن والمعز.

ولكن معظم الآيات التي ورد فيها لفظ (الذكر) كان المقصود بها الإنسان، وكذلك لفظ (الأنثى). وما ورد منه على غير الإنسان ورد في القرآن بلفظ المثنى (الذكرين) و(الأنثيين)..

وفي معاجم اللغة ذكر هذا المعنى: في المعجم الوسيط: الأنثى خلاف الذكر من كل شيء، وفيه أيضًا الذكر خلاف الأنثى، والمذكر ضد المؤنث. وباب التذكير والتأنيث في كتب النحو واللغة باب معروف مشهور.

وقد أُلِّفت كتب عديدة في أحكام المؤنث والمذكر، ولم يخطر ببال إنسان قط، وهو يبحث في التذكير والتأنيث في اللغة، أنه يبحث في شيئين يفضل أحدهما الآخر، سواء إذا كان البحث في التذكير والتأنيث في الإنسان أو في غيره من المخلوقات والأشياء، فكتب اللغة تقول: إن (التاء الساكنة) هي علامة تأنيث الفعل، يقولون: كتب وكتبت، ووصل ووصلت، ونجح ونجحت، وصلّى وصلّت، وعمل وعملت، وهكذا.

ولم يقل أحد: إن الكتابة عنده أفضل منها عندها، أو إن وصوله أرقى من وصولها. وكذلك يقولون: إن (التاء المربوطة) هي أداة تأنيث تميز بين الذكر والأنثى من بني الإنسان، فهو إنسان وهي إنسانة، وهو شاعر وهي شاعرة، وهو كاتب وهي كاتبة..

وقد بينت آيات القرآن هذا المعنى، فأوردت الذكر والأنثى في الدلالة

المجردة على الجنسين دون أي معنى أو دلالة أو إشارة تُشْعِر بأن أحدهما يمتاز عن الآخر في شيء، قال تعالى في الآية ١٩٥ من سورة آل عمران: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ ، وأرجو أن يهتم القارئ الكريم بهذا التعبير (بعضكم من بعض)، فإنه سيكون له أثر مهم في بيان المعنى وشرح المسألة التي نتحدث عنها. وقال تعالى في آية ٤٠ من سورة غافر: ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ ويلاحظ في هاتين الآيتين أن العمل من الذكر والأنثى ينظر إليه من الله عز وجل نظرة واحدة، ويجازى جزاءً واحدًا، فالله عز وجل لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى، وهو جل شأنه يُدخل من يعمل صالحًا من ذكر أو أنثى الجنة إذا كان مؤمنًا، وإذا كان ثمة امتياز لأحدهما في الجنة، أو في الثواب فإنما ذلك بعمله لابجنسه.

وإن هذه المسألة هامة، بل هي مفتاح القول الصائب في كل ما يعرضه المتحمسون لرفع مكانة المرأة، أو الواهمون في أنها أقل من الرجل في المنزلة أو المكانة. فالعمل وحده هو المعيار الأول عند الله، بل هو المعيار الوحيد في التعبير الصحيح عند تحديد منازل الناس ودرجاتهم عند ربهم، هذا العمل لا يرفع من شأنه أو يقلل منه أنّ ذكرًا قام به أو أنثى، فالصلاة – مثلا – صلاة، والصدقة صدقة، والصوم صوم، وتربية الأولاد، وصلة الرحم، وكل ما يقوم به الناس من أعمال، يحاسبنا الله عز وجل نحن جميعًا وفق الصورة التي قمنا بها عليها، ووفق النية التي كان نواها كل فرد منا عند القيام بها. فيتقبل الله عز وجل من كل فرد حسب عمله، لا يزيد ذلك أو ينقص منه جنس العامل ذكرًا كان أو أنثى..

إن هذا يدل على أن الإنسان بجنسيه الذكر والأنثى إنما خلق بمنزلة واحدة من الله، لا يمتاز أحدهما عن الآخر بشيء، وقد يسأل سائل عن أهمية خلق الذكر والأنثى إذا كان هذا لا أثر له في مقياس العمل ومعياره؟

أقول: إن الذكر والأنثى هما سر الحياة، هما أصل كل ما في الأرض من بني الإنسان، هما بذرة الزوجية التي أقام الله عز وجل عليها نظام الكون، فقد شاء الله عز وجل أن يكون كل ما في الأرض ناتجًا عن زوجية تامة بين الذكر والأنثى، وعندما يلتقي الذكر والأنثى وينصهر أحدهما في الآخر تنطلق الحياة، وينمو الناس ويتكاثرون، يقول الله عز وجل في الآية ١٣ من سورة الحجرات:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ فأصل الخلق إذن زوجية بين الذكر والأنثى، والله عز وجل يؤكد ذلك في غير ما آية من القرآن الكريم، ففي الآيتين ٤٥، ٤٦ من سورة النجم يقول الله عز وجل: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ .. ويقول سبحانه وتعالى في الآية ٣٦ من سورة يس: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .. فالزوجية نظام الحياة، نعرف منها ما نشاهده من الإنسان والحيوان والنبات ونجهل أيضًا كثيرًا مما نشاهد، ولا نعلم شيئًا عن كثير مما خلقه الله عز وجل.

ولكنا يجب أن نتنبه إلى أن كلمة (زوج) هي للذكر وللأنثى، فهو زوج وهي زوج، وهما زوجان، ولذلك يقول الله عز وجل ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ . فالزوجية أيضًا لا تميز بين الذكر والأنثى، لأنهما فيها شيء واحد، فردان متكاملان، ولا يعقل أن يأتي إنسان ويفاضل بينهما، أو يفضل أحدًا منهما عن الآخر، وهما كما ترى يصنعان الحياة، دعنا – إذن- نقف على قاعدة راسخة الآن، وهي أن أصل خلق الإنسان من ذكر وأنثى جمع بينهما أو جعلهما متكاملين، لا فضل لأحدهما على الآخر، وأن كل ما يتقوله الناس من مفاضلات لا أساس له في خلق الله، ولا في مقياس الفهم السليم.

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴾

(٢)

قصة الرجل والمرأة في الحياة قصة مستمرة، وحياة دائمة، وإن هذا موضوع يخبط فيه الناس كثيرًا، وتختلط فيه الآراء، وتدخل فيه الأهواء، وما رأيت موضوعًا مما يخوض فيه الناس، ومما يتصل بحياتهم أشد الاتصال يختلف به الناس مثل موضوع الزواج، وموضوع العلاقة بين الرجل والمرأة، وما يتصل بهذين المجالين من تفريعات لا تكاد تنتهي، فهل الزواج ضروري في حياة المرء؟ فإذا كان كذلك فأيهما أفضل: الزواج المبكر أم المتأخر؟ وما علاقة الرجل بالمرأة، أيهما أفضل الرجل أم المرأة؟ هل المرأة تساوي الرجل؟ هل الرجل مسؤول عن المرأة؟ ما مدى حرية المرأة في العمل وفي التعليم وفي الخروج من بيتها؟ هل للمرأة أن تتزوج إذا مات عنها زوجها؟ فإن لم تتزوج هل ينصفها المجتمع؟ وأين يذهب أبناؤها إن فعلت؟ وماذا يقول المجتمع المعاصر في مثل هذه الأمور؟ هل يتبع الناس في هذه القضايا أحكام الدين أم أحكام العادة والعرف والتقاليد؟

ثم من يستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة؟ هل الإجابة عنها تكون بكلمة نعم أو لا، أم أنها تحتاج إلى بحث علمي أصيل جاد هادف يصل بالأمر إلى حقيقة مؤكدة ثابتة يمكن أن تتخذ من بعد نظرية علمية وثيقة يركن إليها القارئ ويتخذها مصدرًا لبحوثه ودراساته؟..

إن الأمر يحتاج إلى بحث علمي صحيح، والبحث العلمي – كما هو معروف– يقوم على أسس ومناهج ثابتة، مناهج تعرف بمشكلة الدراسة وتبين أهمية البحث فيها، وتبسط فيها الأسئلة التي تحدد فرضيات البحث، ثم ترسم منهج البحث في استقصاء المصادر والمراجع المعتمدة، وتأتي بالشواهد وبالأمثلة التي يقاس عليها، وتبني أحكامها على أسس وقواعد

ثابتة من أحكام العقيدة الراسخة أو الحقائق والنظريات العلمية الثابتة، وتناقش النتائج في ضوء هذا كله حتى يصل الباحث إلى نتائج علمية أكيدة يمكن أن تكون فيما بعد أساسًا لنظريات علمية جديدة. عندها يمكن للمرء أن يقرر جدوى عُرْف معين، أو عادة اجتماعية سائدة. أما الحكم الفردي القائم على اقتناع شخصي فهو يظل حلا فرديًّا لا يلزم ربما حتى صاحبه، بل إنه أحيانًا لا يقنع صاحبه بما يقول..

إن أحدًا لا يستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة إلا بعد البحث والتحري والنظر الدقيق؛ فالناس الآن لا يقبلون الأحكام الجاهزة، ولا الآراء المتسرعة، كأن يقول لك إنسان: «والله الزواج المبكر لا أجد أفضل منه»، فمن قال له ذلك؟ وعلامَ اعتمد في حكمه، وهل يستطيع نشر هذا الحكم على كل الناس؟ نحن الآن في عصر العلم والحكمة والتجربة، وما عاد امرؤ يؤمن لك حتى تقدم له الدليل العلمي اليقيني على ما تقول، أما كلمات: يقال، أو قيل إن، أو لوحظ أنه أو قرأت ذات مرة، أو إنني أرى بكل تأكيد.. وما إلى ذلك من عادات الناس في بدايات أحاديثهم، إن هذه اللازمات في أحاديث الناس وعاداتهم لا تقدم حقيقة علمية، ولا تكفي دليلا مقنعًا على أي حقيقة علمية، وفي مثل حديثنا عن حقيقة العلاقة بين الرجل والمرأة، وما ينتج عن هذه العلاقة من اتصال، وما ينتج عن هذا الاتصال من نسل وولد، إن كل ذلك يحتاج إلى مرجعية ثابتة تبني عليها الأحكام وتصدر عنها الأفعال، إن كل حكم من أحكام التعامل بين الناس يستمد قوته من قوة المصدر الذي يعتمد عليه، والقاعدة الثابتة التي يعتمد عليها..

والناس في هذه المسألة ينقسمون إلى فريقين: فريق يصدر في أحكامه وآرائه وتصرفاته عن العادات والتقاليد والقيم المتوارثة المتداولة بين الناس. وفريق يصدر في كل ذلك عن مبادئ الدين الحنيف، وأوامر الله عز وجل وأحكامه، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فأما العادات والتقاليد والقيم المتوارثة فإنها لا تصلح لكي تعتمد مرجعًا ثابتًا تُبْنَى عليه الأحكام

والتشريعات، لسبب بسيط هو أن هذه العادات والتقاليد متغيرة متقلبة لا تستند على شيء ثابت، ولا تقوم على دعامة علمية متينة، فالعادات والتقاليد تختلف من شعب إلى شعب ومن مكان إلى مكان، ومن زمن إلى زمن، بل إنها تكاد تختلف من يوم إلى يوم ومن قرية إلى قرية في الوطن الواحد.

العادات والتقاليد إذن ليست مرجعًا كافيًا ليعتمد عليه الناس في تصريف شؤون حياتهم؛ فإذا قلنا مثلا: إن الرجل أفضل من المرأة لأن آباءنا كانوا يتصرفون كذلك، وأنهم كانوا لا يسمحون للمرأة أن ترد عليهم رأيًا أو أن تأكل معهم، وأنها يجب أن تظل واقفة على قدميها ما دام الرجل (سي السيد) جالسًا يتناول طعامه وشرابه، إذا قلنا كذلك فإننا نواجه الآن بأن الرجل تنازل عن كبريائه فصار يأكل مع زوجه وأولاده، وصار يجلس معهم على المائدة، فهل هو أفضل منها لا يزال، أم أنها صارت أفضل منه؟ ثم أي العادات والتقاليد؟ نتبع تقاليد وعادات أهل الأردن أم مصر أم الكويت أم تقاليد أشقائنا في المغرب أو في السودان، أم نترك هذا كله إلى عادات أهل الغرب وتقاليدهم؟ لا أجدني بحاجة إلى ضرب الأمثلة فإن الأمر ظاهر لكل إنسان. ولذا فينبغي لنا أن نفتش عن مرجع نعتمد عليه في أحكامنا وآرائنا وتصرفاتنا، مرجع لا يتغير بتغير الأزمان، ولا يتبدل بتبدل الأماكن، ولا يضطرب مع الأهواء والرغائب، هذا المرجع هو الدين الحنيف، دين الله عز وجل، بكل يقين ووضوح من أمور تتعلق بقصة الرجل والمرأة في الحياة، وما يترتب على العلاقة بينهما من أمور أشرت إليها من قبل، الدين هو المرجعية الوثيقة الوحيدة التي يجب أن نحتكم إليها ونعتمد عليها.

إن الأنبياء أنفسهم لا يملكون أن يجعلوا للناس تشريعًا دائمًا دون أن يكون ذلك صادرًا عن حكم الله عز وجل وعن دين الله الحنيف. جاء رجل يتوثب إلى رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وهو يركب جَمَلَه، فسمع رسول الله ﷺ يقول: «أيها الناس إن الله قد كتب عليكم الحج فحجوا»، فقال ذلك الرجل وهو أشد ما يكون حماسة وأملا في أن يجيبه رسول الله وفق هواه،

قال: أفي كل عام يا رسول اللّه؟ فسكت النبي عليه السلام، مرة ومرة ومرة، وفي الثالثة قال للرجل: لو قلت نعم لوجبت ولما أطقتم»..

انظر إلى أهواء الناس، وإلى شرع اللّه الحكيم.. إن ذلك الرجل كان قصارى أمله أن يقول له الرسول عليه الصلاة والسلام نعم فيقفز على جمله كل عام ويحج، ولكن من يعلم حقيقة مستقبله ومستقبل الناس جميعًا، وحاشا للرسول عليه السلام أن يقول في هذا الأمر نعم، وحاشا لدين اللّه أن يكون فيه هذا الضيق. فالأمر إذن في كل شيء للّه عز وجل. وتروي الروايات أن هذا الرجل نفسه قد عمّر حتى بلغ الثمانين، فصار لا يقوى على ركوب الجمل ولا على الحركة، وكان يردد دائمًا: صدق رسول اللّه، صدق رسول اللّه.

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴾

(٣)

فلنمضِ إذن في ضوء هذه الحقيقة مع هذا الموضوع، الآية رقم (٤٥) من سورة النجم ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴾ ونجعلها قاعدة لحديثنا عن مسيرة المرأة والرجل في هذه الدنيا، وعن قصة الزواج والزوجية في الحياة، وما يتبع ذلك من أمور ومسائل في سن الزواج وتعدد الزوجات، وحقوق المرأة وواجبات الرجل، وما إلى ذلك من قضايا يخوض الناس فيها كثيرًا، ولا يهتدون منها إلى رأي جامع وبيان شافٍ..

وأول ما نلاحظه في هذه الآية الكريمة قضية (خلق الزوجية بين الذكر والأنثى) ولكل كلمة من هذه الكلمات الأربع دلالة خاصة، فما معنى (خلق)، ومعنى (الزوجين) ومعنى الذكر والأنثى، وما الفرق بين (الذكر والأنثى) و(الرجل والمرأة)؟.

وردت كلمة (زوج) وما يشتق منها في القرآن الكريم إحدى وثمانين مرة، معظمها لكلمة (أزواج)، إذ وردت اثنتين وخمسين مرة، أضيفت فيها أحيانًا إلى ضمير المخاطب (أزواجك) وضمير المخاطبين (أزواجكم) وضمير المتكلمين (أزواجنا) وضمير الغائب (أزواجه) وضمير الغائبين (أزواجهم) والغائبات (أزواجهن)، وهذا يدل على أن كلمة (أزواج) تطلق على الرجال والنساء بدليل (أزواجهم) و(أزواجهن)؛ فالرجل زوج والمرأة زوج، وكلمة زوج تدل على واحد وليس كما يتداولها الناس، فكل منهما زوج، مثلها مثل كلمة (توأم) فهي تدل على واحد، وهما توأمان. فالله عز وجل خلق الرجل والمرأة، لينشئ بينهما علاقة الزوجية، لأنه عز وجل خلق الذكر والأنثى في هذه الدنيا لينشئ فيها نظام الزوجية، وهنا يظهر الفرق بين (الرجل والمرأة) و(الذكر والأنثى)، فالذكر والأنثى دليل على الزوجية في

كل ما خلق الله عز وجل من أمم، ومنها الإنسان والنّبات والجماد، ومنها ما نعلم، وما لا نعلم.

قال تعالى في سورة يس (٣٦): ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾، وقد تقدم ما تنبت الأرض على الإنسان، ويعلم الله عز وجل وحده، كم صنفا مما تنبت الأرض جعل بينهما نظام الزوجية وهو عز وجل وحده يعلم أصناف الحيوان وأصناف الجماد، وقد أيقن الناس اليوم بالدليل القاطع أن الزوجية قائمة حتى في الجماد، فالذرة – وهي أصغر ما عرف حتى الآن من أصناف المادة– مؤلفة أيضًا من زوجين يعرفهما أهل العلم حق المعرفة، سالب وموجب، إلكترون ونيوترون. ومن يدري حقيقة هذا الجماد الذي نسميه نحن كذلك، هل هو جماد حقًا، أم أنه عالم خاص له إحساس من نوع خاص؟ أو لسنا نقرأ قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾ وكل جماد شيء، فكيف يسبح هذا الجماد بكل أصنافه. إنه جماد بالقياس لنا نحن، بني البشر، ولكن ربما كان فيه من الحياة ما يفوق حياتنا نحن أضعافًا مضاعفة حتى نكون نحن بالنسبة له جمادًا، ومهما يكن من أمر فإن الزوجية موجودة فيما خلق الله عز وجل من كائنات، وهذه الزوجية أطلق عليها القرآن الكريم (الذكر والأنثى) وخص (الرجل والمرأة) أو (الرجال والنساء) بالإنس وربما بالجن أيضًا، إذ وردت في القرآن الكريم عبارة (برجال من الجن) أما في دلالة الذكر والأنثى فقد وردت في القرآن الكريم للإنسان، ووردت كذلك للأنعام، قال تعالى في سورة الأنعام الآية ١٤٣:

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾

والناس يقولون عن بعض النباتات: هذا نبات ذكر وهذا أنثى، ويتم التلقيح بينهما ليتم بينهما شكل من أشكال الزواج.

الزوجية بين كل ما خلق اللّه إذن نظام إلهي ثابت أقام اللّه عز وجل على أساسه بناء هذه الحياة، دعنا الآن نتكلم عن هذه الأرض التي نستطيع أن نكتشف ما أودعها اللّه عز وجل من قوانين وأنظمة، وندع الباقي لكشوف العلم اللاحقة، فهي بالتأكيد ستكشف أن النجوم والكواكب وأن ما في السماء والأرض يقوم على نظام الزوجية ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾. وهي الآن مما لا نعلم، وقد يتيسر لنا علم بعض منها، وبالتأكيد سوف تقوم الساعة قبل أن نعلم عن هذه الأرض كل شيء، لأن اللّه عز وجل يخبرنا بأن ما أوتيناه من علم هو نزر يسير بجانب علم اللّه ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، فإذا كان الأمر كذلك فإن نظام الزوجية بين الذكر والأنثى هو نظام بين متكافئين، أي بين زوجين كل منهما يكمل الآخر، ولا يتم الأمر إلا به، كما لا تتم الحياة إلا بالعناصر المتكاملة التي خلقها اللّه عز وجل من أجل أن تكون الحياة في هذه الأرض، فنحن عندما ننظر إلى أي زوجين من عالم الحيوان، زوجين من الإبل مثلا ، أو زوجين من الخيل، أو زوجين من الضأن، أو زوجين من الطير، نشعر أننا أمام فردين يكمل كل منهما الآخر، ولا يخطر في بال أحد منا أن يقول إن هذا أفضل من ذاك، لا يخطر في بالنا أبدًا، لأننا نشعر أن هذين الزوجين خلقَا ليكونَا كذلك، خلقًا ليكملا رسالة وحكمة أرادها اللّه، فإذا فقد أحدهما انتهى الأمر، فليس أحدهما أفضل من الآخر، لأن كليهما في الحقيقة شيء واحد، هو هذا الخلق الذي أراد اللّه له أن يكون، أراد اللّه عز وجل أن يخلق الإبل ليستعين بها الإنسان في حياة الترحل والأسفار والحروب، فما شعرنا يومًا، ولا قرأنا في الأشعار والأخبار أن العرب فضلوا الجمل على الناقة، ولا الناقة على الجمل، بل وصفوا الناقة أكمل وصف، ووصفوا الجمل أجمل وصف، ولم يخطر في بال أحدٍ أن يقول إنّ الجمل هو السيد وأن الناقة تابعة له.

إنّ الزوجين عندما يكونان شيئًا واحدًا بتآلفِ خصائص كل زوج منهما يكونان هما الشيء الواحد الذي لا مفاضلة بين أجزائه. تصور أننا في كل

خلية من ملايين الخلايا في جسم الإنسان، ننظر إلى الجزأين المتكاملين فيها ونقول إن النيترون أفضل من البروتون، وإن هذا سيد وهذا تابع له. إن هذا يكون شيئًا كالطرفة.

إن الزوجية نظام إلهي لتقوم الحياة وتستمر، وقد أصرت آيات القرآن الكريم على ذلك.. اقرأ قوله عز وجل في سورة الذاريات (٤٩)، وتأمل فيه: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾. وهذه ترد بعد قوله مباشرة: ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ كأن الله عز وجل أعد الأرض لسكنى الإنسان وجعل هذا الإنسان سلالة من زوجين في أساس الخلق، واستمرت الحياة في الأرض بعد ذلك، كما استمرت الحياة في كل ما خلق الله على الأرض..

واقرأ قوله تعالى في سورة الرحمن (٥٢): ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾، واقرأ قوله تعالى في سورة الشورى (١١): ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ فالزوجية نظام إلهي في هذه الأرض، وفي كل شيء عليها؛ ليقضي الله عز وجل حكمته فيها.

بمثل هذا الفهم، وبهذه النظرة فقط، يجب أن ننظر إلى الرجل والمرأة في هذه الأرض، هما إذن زوجان، خلقهما الله عز وجل ليكملا مسيرة الإنسان في هذه الأرض، كأي زوجين في مخلوقات الله الأخرى. وأول زوجين من البشر في هذه الأرض هما آدم وحواء، قال تعالى في سورة البقرة (٣٥): ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾، وفي سورة طه (١١٧) ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾.. ومن المعروف أن الله عز وجل خلق آدم أولا ثم خلق منه زوجه حواء.. قال الله عز وجل في أول آية من سورة النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾.. وهذه – كما ترى– زوجية خصوصية، ونحن لا ندري كيف خلق الله عز وجل كل زوجين في أي أمة من

أمم الحيوان والنبات والجماد، وقد يدري ذلك بعض العلماء المتخصصين، ولكن في خلق آدم عليه السلام وحواء نعلم علم اليقين أن آدم خلق أولا ثم خلقت حواء بكيفية أرادها الله وهو سبحانه قادر عليها. فأما خلق آدم عليه السلام أولا فهذا واضح في آيات كثيرة، نعد منها ولا نعددها، منها قوله تعالى في سورة الحجر (٢٨- ٣١) ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾.

ومثل هذه الآيات ورد في سورة ص من ٧١-٨٣، ومنها قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾وهـذا الإنسـان الذي خلقه الله عز وجل من طين وأمر الملائكة أن تسجد له هو آدم عليه السلام، يسميه الله عز وجل في سورة آل عمران (٥٩): ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.وقد ورد تعبير (بني آدم) سبع مرات في القرآن الكريم، منها قوله تعالى في سورة الإسراء (٧٠): ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾، وورد كذلك تعبير ذرية آدم مرة واحدة في سورة مريم (٥٨)..

وقد نص القرآن أيضًا نصًّا صريحًا على أن آدم وحواء هما أبوا هؤلاء الناس جميعًا في الدنيا.. قال تعالى في سورة الأعراف (٢٧): ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

آدم وحواء إذن هما أصل كل الناس، كل البشر، وهما أول زوجين من بني الإنسان، وقد أقام الله عز وجل الزوجية بينهما في الأساس على أقوم نظام يربط بين اثنين، وهو نظام الحب ونظام الجاذبية، والحب والجاذبية في الحقيقة هما نظام واحد، وقد عرفناه بين الكواكب والنجوم ومخلوقات

اللّه الأخرى الكبيرة بالقياس إلينا نحن بني الإنسان باسم نظام الجاذبية، أما عند الإنسان وربما عند غيره من أمم الحيوان، وأمم الطير فهو نظام الحب، وقد قال الفلاسفة: إن الحب صانع الوجود، وهو شامل لكل شيء. والجاذبية شكل من أشكال الحب، ومنها الجاذبية الفلكية، فالشمس تجذب الكواكب إليها والكواكب يجذب بعضها بعضًا في نظام إلهي لا يتخلف، وهو سر بقائها بل نظام بقائها.

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴾

(٤)

وربما كان نظام الجاذبية هذا بين الكواكب والنجوم هو العُمُد التي لا نراها وهي ترفع السموات، قال الله عز وجل في سورة الرعد (٢): ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴾.

فالسموات مرفوعة إذن بغير عمد نراها، وهي هكذا خلقت، يقول الله تعالى في سورة لقمان (١٠، ١١) ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾. وفي نظام الجاذبية هذا ينجذب الصغير نحو الكبير، ينجذب القمر للأرض، والأرض للشمس، وتتشكل في الكون منظومات متآلفة في نظام بديع خلقه الله عز وجل، وأرجو من السادة علماء الفلك والرياضيات والفيزياء أن يحدقوا في هذه الفكرة وأن يتدبروها عسى أن تنكشف لهم بتطور أدوات المعرفة أمور تسهم في إسعاد الناس وبناء يقينه بخالقه وإيمانه بدينه، ونمضي نحن مع نظام الزوجية الإنساني، أو نظام الجاذبية الإنساني الذي سأعود إليه عند الحديث عن علاقة الوالدين بالأولاد، إن هذا النظام وحده هو الذي تقوم عليه الحياة الإنسانية، ولولا أن الله عز وجل أودعه قلوب الناس ما انتظمت الحياة على هذه الأرض..

إن نظام الجاذبية الإنسانية، أو نظام المحبة التي تنظم حياة الإنسان يبدأ منذ خلق الإنسان على وجه الأرض، فالله عز وجل خلق آدم من تراب، ثم نفخ فيه من روحه وقال له كن فكان آدم أبًا للبشر، وكان الله عز وجل

قادرًا – سبحانه– على أن يخلق حواء مثلما خلق آدم على الطريقة نفسها، أن يسويها بشرًا من طين، ثم ينفخ فيها من روحه، فتكون أمًّا للناس جميعًا، ولكن الله عز وجل أراد أن تجري على آدم وحواء سنته في خلقه جميعًا؛ سنته الزوجية التي تنتظم الحياة وتنظم الحياة ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يس: ٣٦)..

وقد اقتضت إرادة الله عز وجل أن يخلق حواء من آدم، حتى تكون جزءًا منه، والشيء ينجذب إلى أصله، والجزء يتفاعل مع الأجزاء الأخرى، وهذا سر التجاذب بين الرجل والمرأة..

إن ميل الرجل للمرأة، وميل المرأة للرجل غريزة فطرية لا يملك امرؤ في الكون أن ينكرها؛ لأن المرأة بعض نفس الرجل، قال تعالى في مطلع سورة النساء:
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ فإذا خلقت المرأة من نفس الرجل، فإنه من البديهي أن تتعلق النفس بعناصرها وتنجذب إليها.

ولذلك تنجذب نفس المرأة إلى نفس الرجل كما تنجذب نفس الرجل إلى نفس المرأة، وهو شعور صادق حي عام بين كل رجل وامرأة، لذلك عندما يرى الرجل – أي رجل– امرأة – أي امرأة– في أي مكان في العالم فتهفو نفسه إليها، يكون هذا شعورًا طبيعيًّا، والاعتراف به ليس عيبًا، بل إن إنكاره هو العيب، وهو الخطأ، وهو الذي يسير بالناس إلى الخطأ في تفسيراتهم وأحكامهم وما يترتب عليها من علاقات وتصرفات.. الرجل ينظر إلى المرأة برغبة، وهي تنظر إليه بذلك أيضا، وهذا سر خلق حواء من نفس آدم، فالرجل والمرأة بينهما تجاذب من أصل الخلق..

أما بعد آدم وحواء فصار الناس يتناسلون بالطريقة التي حددها الله

عز وجل، من اشتراك الرجل والمرأة في علاقة زوجية، يقدم هو شيئًا منه، وتقدم هي شيئًا منها، ويلتقي الشيئان في البيئة التي هيأها الله عز وجل للجنين، في رحم المرأة، هذا الوعاء السامي الأفضل الذي خلقه الله عز وجل فأتقن خلقه وصنعه سبحانه، فيكون بعد ذلك الولد ذكرًا أو أنثى، ومن هنا كان حدب الوالدين على الولد، وتعرفون ما حدب الوالدين على الولد، حتى صار حنان الوالدين مضرب المثل في الحنان والرحمة، يقول شوقي:

فإذا رحمت فأنت أمٌ أو أبٌ   هذان في الدنيا هما الرحماء

ولكن الوالدين، أي والدين، لا يجدان هذه الرحمة على غير ولدهما بمثل ما يحسان بها لفلذة كبدهما. هذا خلق الله، لكي يرعى كل أب وكل أم أولادهما.. فتستمر الحياة.. أما الرجل كرجل والمرأة كامرأة فبينهما حب ورغبة، تجذب كلا منهما إلى الآخر؛ لأنهما في الأصل نفسٌ واحدة خلق منها الله عز وجل زوجها، وعلى هذا فإن الزوجين يكونان حلقة واحدة، أو قل خلية واحدة بها تستمر الحياة وهو الهدف الأساسي من خلق الزوجين..

الزوج هو والزوج هي يكونان الخلية الإنسانية التي تتشكل منها الأسرة والمجتمع والأمة بعد ذلك، فكيف إذن نقول: إن الرجل أفضل من المرأة، أو هي أفضل من الرجل؟ من يقرر ذلك، ومن يعلم حقيقة ما يفضل أحدهما الآخر به مما أودعه الله فيه من صفات وملكات تناسب وظيفته في حياته. بعض الناس يقول: إن الرجل أقوى من المرأة، وهو كلام غير دقيق، فلعل في المرأة أجهزة وأعضاء تكون أقوى فيها من مثيلها في الرجل، وبخاصة عظام الحوض، والساقين وعضلات البطن والظهر حتى تستطيع هذه البنية القوية أن تحمل جنينًا تسعة أشهر ثم تستعد لولادته وإخراجه إلى نور الحياة. فقوة الرجل بساعديه، وتفكيره، وقدرته على العمل اليدوي – مثلا – تكافئ قدرة المرأة على الحمل والرعاية والإرضاع والحنان على الوليد الرضيع والطفل الفتي والغلام اليافع في تدرج مراحل حياته.

وإنه ليحزنني أن يظل المختصون والمتعلمون مختلفين حول حقائق ما ينبغي لهم أن يختلفوا عندها لو أنهم وقفوا على الدلالات الدقيقة للمصطلح القرآني.

إن القضية تتحدد وتنشأ بسبب عدم الاتفاق على مفهوم محدد للمصطلح القرآني حيثما ورد. ويشتد الأمر خطورة عندما يلتقط الباحثون والمختصون مصطلحًا وافدًا ثم يجعلونه في موضع البحث والنظر والنقاش من وجهة نظر القرآن، علمًا بأن القرآن الكريم يكون قد عرض الأمر بأسلوب قرآني واضح، لو عقله الناس ما وقعوا في مثل هذا الحوار المتصل الذي أرى أنه لا يصل إلى نهاية مقنعة لأي إنسان، ولأضرب هنا مثلا بموضوع يكثر تساؤل الناس فيه: هل ساوى القرآن بين الرجل والمرأة؟

ما معنى المساواة؟ المساواة بين الرجل والمرأة في أي موضوع؟ أين ورد موضوع المساواة بين الرجل والمرأة في القرآن الكريم؟ وأين ورد موضوع المساواة بينهما في الحديث الشريف؟ أين ورد موضوع تفضيل أحدهما على الآخر في القرآن الكريم، وفي الحديث الشريف؟ أيهما أفضل: الليل أم النهار؟ أيهما أفضل: الشمس أم القمر، أيهما أفضل: الماء أم الهواء؟ أيهما أفضل سورة البقرة أم آل عمران أم سورة الناس؟ إني لأعجب كيف اختلق الناس قضية ما كان لها أن تكون..

إن آيات القرآن الكريم عاملت (الزوجين) الذكر والأنثى على أنهما زوجان بهما تقوم الحياة، لا بأحدهما ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۞ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۞ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ ترى ما حكمة ورود الذكر والأنثى بعد الليل والنهار؟ هل يعلمنا الله عز وجل أن خلق الذكر والأنثى كخلق الليل والنهار؟ إن قضية المساواة بين الرجل والمرأة قضية مختلقة ما ينبغي لها أن تكون، وإن البحث فيها بحث خاطئ يقوم على غير أساس. لو تدبرنا آيات القرآن الكريم لوجدنا أنه قدم لنا أمثلة شاهدة على ما نقول، لا يستوي الخبيث

والطيب، ولا يستوي الأعمى والبصير، ولا تستوي الظلمات والنور، ولا يستوي القاعدون غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله، ولا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، ولا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، وكل فئة من هذه الفئات فيها الرجال وفيها النساء ويحب بعض الناس أن يذهب في الجدال إلى حد المماراة والمعاياة فيقول: لماذا قدم الله عز وجل الرجل على المرأة، أو الذكر على الأنثى في القول؟ فاسأله: لماذا قدم الله عز وجل الليل على النهار؟ بل هؤلاء لمَ لا يسألون أنفسهم هذا السؤال؟ هذا أمر بدأ به الله، وقد بدأ الله عز وجلَ بالصفا قبل المروة حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ ولما حج النبي ﷺ وأراد السعي بينهما قال: «نبدأ بما بدأ به الله». ولم يخطر على باله عليه الصلاة والسلام أن الصفا أفضل من المروة، أو أن البحث يجب أن يستقر في أيهما أفضل عند الله، أم هل تساوي المروة الصفا، ذلك أمر الله. إن الرجل والمرأة زوجان بهما تقوم الحياة، وإذا قام كل منهما بما خلقه الله له فإن الحياة تقوم كما أرادها الله، وأي اختلال في ذلك يكون خللا في حياة الإنسان على الأرض.

إن الذي أدعو إليه أن نحسن النظر في آيات القرآن الكريم، وأن نفهم الدلالة القرآنية، وأن نقدم ديننا إلى الناس تقديمًا حسنًا يناسب المهمة الموكولة إلى كل امرئ يؤمن بالله عز وجل، وبخاصة في هذا الزمن الذي تشتد فيه الحاجة إلى مخاطبة الناس بوعي وفهم دقيق لآيات الله عز وجل: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وأود أن أقول: إن الناس لو درسوا الحياة الاجتماعية التي كانت بين الزوجين، الذكر والأنثى، وشاهدوا الصورة المشرقة للتعامل الإسلامي الصحيح بين الزوجين، إذن لأدركوا أن صورة الزوجية صورة مشرقة يتجلى فيها التكامل الزوجي الذي ينتج التكامل الاجتماعي الصحيح في ميدان الحياة، وكل قول أو مثل غير ذلك إنما هو بسبب الانحراف عن فهم دين الله وفهم سيرة رسول الله ﷺ حق الفهم. وما أكثر ما يحمّل الناس القرآن خطأ ما لايحسنون فهمه من آياته البينات!!.

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴾

(٥)

المفاضلة إذن بين الرجل والمرأة، هكذا، دون تحديد، لا يجوز، وليس لها أي وجه علمي أو منطقي، وإن هذا الكلام لا يعني أيضًا أنهما متساويان، فهذا القول أيضًا غير منطقي وغير علمي، بل القول الصحيح أنهما متكاملان، يكمل أحدهما الآخر، وهذا التكامل بينهما يصنع الحياة، فالرجل خُلِق لوظيفة محددة، ما أظن أحدًا من الناس يماري فيها، والمرأة خلقت لوظيفة محددة، ولا أظن أحدًا من الناس يماري فيها. وإن نظرة سريعة إلى الحياة الإنسانية منذ كان الإنسان، وقبل معرفة الأديان، وتنزّل الرسالات، تؤكد أن الرجل والمرأة متكاملان، وأن لكل منهما وظيفة أساسية معروفة، فإذا قام كل منهما بوظيفته الأساسية التي خلق من أجلها، فإن الأعمال الأخرى بعد ذلك متاحة لأي فرد لديه القدرة والخبرة على القيام بها. إن الرجل، الموكل في الأصل أن يتدبر شأن الخلية الإنسانية، والأسرة الاجتماعية، وأن يسعى ويكد ويشقى لتوفير أسباب الحياة الأساسية لزوجه وأبنائه، يمكن أن يقوم بأي عمل مما تقوم به المرأة خارج نطاق عملها ووظيفتها الأساسية في الحياة، وهي الحمل والإرضاع والرعاية والعناية وتوفير الحنان والرحمة التي يتشكل بها الطفل السوي بين أحضان أمه أولا، ثم برعايتها ورعاية والده في مسيرة عمره الطويل، وأن المرأة الموكلة في الأصل بالوظيفة التي عَرَفْتَ يمكن لها أن تقوم بأي عمل يقوم به الرجل إذا أسعفتها قدراتها وخبراتها، وعلى هذا فإن الإسلام يعجب من أسئلة يسوقها بسطاء الناس، من مثل: هل يحق للمرأة أن تعمل في الوظائف، أو تقود سيارة، أو تتعلم في الجامعة، أو تمارس رياضة؟ ومن أسئلة أخرى يمكن أن تساق حول عمل الرجل، هل يجوز للرجل أن يعمل في البيت، أو يهيئ الطعام، أو يرعى أبناءه، أو يغسل، أو يكنس، وغير ذلك مما قد يستهجن من بعض الناس. إن الأمر

ليس كذلك، إن لكل امرئ -رجلا كان أو امرأة- قدرات ومواهب وخبرات وظروفًا اجتماعية تملي عليه أن يفعل أشياء كثيرة، مما قد تضطره إليه ظروف الحياة.

إن الرجل والمرأة عندما يدركان حقيقة العلاقة بينهما، وعندما يقوم كل واحد منهما، بصدق وموضوعية، بما يتناسب والتركيب الإلهي الذي خلقه الله عليه، يجدان أن الحياة تسير على نظام دقيق، وأسلوب منظم، وأن كل ما يخالف ذلك، هو نتيجة تراكم قيم وعادات وتقاليد على مر العصور، صارت تتحكم وتشكل مفاهيم الناس وتصرفاتهم، حتى صار الرجل يخجل جدًّا أن يتهم بأنه غسل صحنًا في بيته هيأ فيه لابنه الصغير بعض الطعام، إنني أرى أن المسألة إذا وُضِعت في سياقها المنطقي، يختفي من عند الناس الإحساس بتفوق الرجل أو دونية المرأة، هذا الإحساس ليس من الإسلام في شيء.

لقد نص القرآن الكريم على أن السيدة مريم عليها السلام صدِّيقة. وقد اختلف بعض العلماء حول كونها نبية أم لا؛ فبعضهم قال: إنها نبية لأنه أوحى إليها، وبعضهم قال: لا، بل هي في مرتبة عالية ولكنها لا تصل إلى مرتبة النبوة. ومهما كان رأي العلماء، فإن تفكيرهم في هذه المسألة دليل على مكانة المرأة في الإسلام، ثم إن النبي ﷺ قال في شأن السيدة عائشة: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء».

وإن امرأة يأمرنا رسول الله ﷺ أن نأخذ نصف ديننا عنها لهي امرأة ذات شأن كبير. وإن دينًا يأتمن المرأة على حَمْلِه لهو دين قويم. وعلاوة على ذلك فإن أخبار استشارة المرأة والعمل برأيها، وأخبار العلاقة الخصوصية بين الرجل والمرأة كزوجين، وما يجب أن يسود هذه العلاقة من مودة ورحمة تدل على أن الإسلام ينظر إلى المرأة والرجل نظره إلى متكافئين في صنع الحياة، وفي تنظيم مسيرة الإنسان..

هكذا يجب أن يفهم أفراد المجتمع طبيعة الأسرة في الإسلام، بل إن الإسلام ساوى بين الناس جميعًا في الحياة، وجعل التفاضل بينهم في التقوى إلى الله عز وجل ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أما في الحياة الدنيا فكل إنسان في خدمة أخيه الإنسان. وكل إنسان يفضل غيره بما يقدمه له من خدمة؛ فالمعلم أفضل من غيره في وظيفته، ولكنه يحتاج إلى الخبَّاز الذي يقدم له الخبز وإلى اللّحَّام الذي يبيعه اللحم، وإلى السائق الذي يحمله إلى عمله، وإلى التاجر الذي يبيعه سلعته، وكل منهم أفضل منه في وظيفته، فكل امرئ في الإسلام فاضل ومفضول عليه، ومرفوع ومرفوع عليه، هو فاضل في خدمته لغيره وهو مفضول عليه في حاجته إلى غيره، وهذا تفسير قوله تعالى:﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ ولذلك يتساوى الناس في الإسلام من حيث المكانة الإنسانية، ويتفاضلون من حيث قيام كل منهم بوظيفته، وهكذا يكون الشأن بين الرجل والمرأة، هي تفضله بقيامها بوظيفتها التي لا يحسنها هو ولا يستطيعها، وهو يفضلها بوظيفته التي لا تحسنها هي ولا تستطيعها، أقول ذلك وأنا واع بأن بعض الناس يحب أن يبالغ فيقول: إن المرأة يمكن أن تقوم بكل ما يقوم به الرجل، وهذا قول يرفضه منطق الواقع وأخبار التاريخ، وبعيدًا عن تعاليم أي دين، أو كتاب سماوي.

إذا نظرنا إلى أعماق التاريخ أو نظرنا إلى ميدان الحاضر الفسيح، نجد أن المرأة قل أن تغادر ميدانها الذي تتألق فيه إلى ميادين يشقى بها الرجل كميادين القتال والصناعة والحروب، والمناجم والتجارة والحكم والسياسة والقضاء. نعم إن بعض النساء قد يمارسن بعض ميادين التجارة والسياسة والحكم، ولكن هذا يكون في مجال محدود، وفق تفوق بعض النساء في خبراتهن وقدراتهن، ولكن الغالب هو موضع القياس.

وإني أربأ بالمرأة أن تخالف أمر الله فيما رسمه لها من حياة جميلة، ووظيفة سامية، ومكانة عالية، تكون فيها الأم الرؤوم والزوجة الوفية والإبنة

المدللة والأخت العزيزة، وأن تطالب باستقلال حياتها عن رعاية أب أو زوج أو أخ أو ابن، أوتدري المرأة ماذا تفعل إن هي أصرت على ذلك؟ إنها تحكم على نفسها بالموت في سن الثلاثين أو سن الأربعين عند بعض النساء اللواتي قد يسعفهن شيء من المؤهلات الخاصة.. إن المرأة التي تتسلح بجمالها، أو بعلمها وجمالها على التقدير الأحسن، سوف تصل سريعًا إلى نهاية الطريق، سوف تصل إلى مرحلة لا ينجدها فيها العلم ولا يشفع لها فيها جمال. عندئذ لا تجد إلا الشقاء، والمزيد من ضرورة العمل الشاق، وعندئذ أيضًا سوف تفتقد القدرة على ممارسة العمل الأساسي الذي خلقت من أجله.

أرجو ألا يكون هذا الاستطراد قد أخذنا عما نحن فيه من حديث الزوجية الصحيحة بين الرجل والمرأة، وربما كان استطرادًا مناسبًا أؤكد فيه أن الرجل والمرأة عنصران متكاملان عندما يسيران وفق شرع الله عز وجل. وهما كذلك شاءا أم أبيا؛ فإن شاءا فإن الحياة تسير على نظام صحيح يشيع فيها المتعة الجميلة والعِشْرة الصافية، وإن أبيا فإن أمثلة من الشقاء والمنازعات والقلق والاضطراب تنتشر في الناس، ما كان أغناهم عنها لو أن الأمور سارت في طريقها الصحيح..

قلت: إن الرغبة المتبادلة بين الرجل والمرأة أمر طبيعي لا ينكره عاقل، وأن هذه الرغبة تنشأ في جسد المرأة والرجل كما تنشأ الرغبات والمشاعر الأخرى عند كل منهما. وتنشأ النوازع والرغبات عند الإنسان وفق ما يحتاج إليه في مسيرة حياته؛ فهو منذ ولادته تنشأ عنده الرغبة في الطعام والشراب فيقبل على ثدي أمه، ويبدأ جسمه بالنمو، وتنشأ عنده نوازع ورغبات لا نهاية لها تتفق ومراحل عمره؛ من حب اللعب والسيطرة والتعلق والنظر، والرعاية والإحساس بالذات، ويظل الإنسان ينمو وينمو حتى يستوي عوده ويبلغ أشده وتتحرك في جسده الرغبة في الجنس الآخر، وهو ما يسميه العلماء سن البلوغ، في هذه السن يكون الإنسان رجلا أو امرأة مستعدًا أو صالحًا للزواج.

وقد قلت من قبل: إن هذا شعور فطري طبيعي، وحاجة طبيعية ملحة، وهي طاقة متفجرة تسيطر على الإنسان، وتملأ عليه حياته، وينبغي على الإنسان –في الفهم الصحيح أو التفكير الموضوعي العلمي– أن يستخدم هذه الطاقة، أو يلبي هذه الرغبة الجامحة، وفق ما رسمه الله عز وجل في شرعه الحكيم من تصرفات حكيمة وحلول قويمة.

إنّ الحل القويم في هذه الحالة هو الزواج الذي يقوم وفق سنة الله ورسوله كما نقول. ونحن عندما نقول (الزواج) هو الحل الشرعي الأمثل لهذه الحاجة الطبيعية، فكأننا نقول إن (الأكل والشرب) هو الحل الأمثل لحاجة ملحَّة إلى الطعام وإلى الماء.. هل يلام امرؤ إذا أعلن عن حاجته إلى الطعام أو الشراب نتيجة جوع قارص أو ظمأ شديد؟! أم هل يتردد امرؤٌ أن يطلب طعامًا إذا مسه الجوع، أو يطلب شرابًا إذا اشتد به الظمأ؟ فما زال هذا المرء نفسه يلام إذا تحدث عن حاجته إلى الزواج، أو يتردد في الإعلان عن رغبة تتدفق في جسده خشية أن يحكم عليه المجتمع حكمًا قاسيًا، أو تحسبًا لعادات اجتماعية يعلم هو من قبل أنها تحول دونه وما يريده أو ما يتمناه.

إن حاجة المرء إلى الطعام والشراب والزواج حاجات طبيعية متشابهة، وينبغي أن يكون أمرُ تلبية هذه الحاجات الطبيعية عند الإنسان ميسرًا، فأما الطعام والشراب فأمره ميسور، ونعلم أنه لو حيل بين طعام امرئ وشرابه حتى يشرف على الهلاك مثلا لثار هذا المرء وارتكب ما لا نحمده منه أو نقبله. ونعلم أن المرء لو كان جائعًا أو ظامئًا لما استطاع أن يفعل شيئًا قبل أن يحقق حاجته إلى الطعام والشراب، لأنه بدونهما لا يستطيع أن يفكر أو يعمل أو يستريح أو يطمئن أو ينتج أو يقوم بأي نشاط ذي بال، وأن هذا الحكم نفسه ينطبق على الزواج.

إن الحاجة الملحة الطبيعية عند الإنسان –رجلا كان أو امرأة– تبدأ عند سن البلوغ، وهو عند الناس جميعًا يتراوح بين الخامسة عشرة والعشرين،

وربما كان قبل ذلك في المناطق الحارة، ولكن المعدل الذي درج الناس عليه يكون في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، على أن العلامات عند النساء والرجال تحدد ذلك بيقين، لا يستطيع امرؤ أن يدفعها أو أن ينكر أثرها. والرجل والمرأة منذ هذا الوقت يبدأ كل منهما التفكير في الجنس الآخر، وفق طبيعة أودعها الله فيه عندما خلق الناس جميعًا من نفس واحدة وخلق منها زوجها. والمجتمع عندما يتنكر لهذه الحالة بعاداته وتقاليده الخاطئة، يسبب في الأرض فتنة وفسادًا كبيرًا..

ومن المعروف نفسيًّا أن المرء إذا كان بحاجة إلى شيء ضروري فإنه لا يستطيع التفكير المتزن ولا الاستقرار المطمئن حتى يتحقق له ذلك الشيء، وبخاصة إذا كان ذلك الشيء طعامًا أو شرابًا أو رغبة فطرية جياشة فيه. والأمر الطبيعي في الشباب –رجالا ونساء– أن يحاول كل منهما تحقيق رغبته في الآخر منذ بدء الإحساس بهذه الرغبة. فإذا وجد الشاب ذو الثمانية عشر ربيعًا مثلا رفيقة حياته فإنه ينصرف إلى تحقيق مطالبه الأخرى بقلب متزن وفكر مستقر، ونفس مطمئنة، أما إذا لم يجد ما يسدّ رغبته فإنه يفكر في سبل غير قويمة وغير صحيحة، لا يرضاها المجتمع ولا تقبلها العادات التي هي نفسها حالت دون أن يحقق رغبته في إطار الشرع المقبول. وهنا يعيش الشاب في تناقض واضطراب، وتثقل نفسه الهموم والمشكلات، وتملأ حياته صور من الأفكار والتصرفات والأخلاق غير الحميدة، وهو في هذه الفترة معطل الحواس والقدرات إلا من التفكير في تلك الحاجة الفطرية التي حبست عنه. وهذا القول ينطبق على الفتاة أيضًا.. ولذا تعد هذه الفترة من عمر الفتى والفتاة فترة معطلة غير منتجة، لا غناء فيها.

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴾

(٦)

هذه الفترة الممتدة من سن الرشد عند الفتى والفتاة حتى يتسنى له أو لها أن تتزوج بعد الخامسة والعشرين غالبًا عند كل منهما، بل تكاد تصبح سن الزواج الآن في الثلاثين من عمر الشاب وأقل من ذلك بسنة أو سنتين عند الفتاة. هذه الفترة تضيع هباء لا يقدم فيها الشاب شيئًا ذا بال لنفسه ولا لمجتمعه ولا لأمته. وقد أصبحنا نرى الشباب في العقد الثالث من أعمارهم لا يزالون أطفالا في تصرفاتهم؛ لا يحملون مسؤولية، ولا يقدرون على تصرف حازم حكيم في غياب آبائهم، على حين كان الشاب من قبل يمكن أن يكون شيخ عشيرة أو قائد جيش أو رجلا مسؤولا وهو لم يتجاوز العشرين من العمر. لماذا؟ لأن الشاب في هذه الأيام يحال بينه وبين ممارسة حياته كما يجب، وتحول العادات والتقاليد الخاطئة بينه وبين الاستقرار في بيته ومع زوجه؛ لأن العادات أصبحت تقول إن الفتى إذا تزوج وهو في العشرين فكأنما اقترف جريمة لأنه ما زال طفلا، وأنه لا بد أن يتعلم أولا ثم (يكوّن) نفسه.. وكلمة (يكوّن) نفسه هذه تختلف من بيئة إلى أخرى، وهي على كل حال عقبة كؤود أمام معظم الشباب من الجنسين. وليس هذا الكلام يعني أن الفتى لا يتعلم، بل يعني أننا يجب أن ننظم حياتنا على نظم مستمدة من ظلال شرع الله الحكيم. يجب أن نسن تشريعات تتيح للفتى والفتاة أن يتعلما، وأن يمارسا حياتهما الطبيعية في أسر سعيدة، تقوم على المودة والرحمة، لا على المظاهر والتقاليد البالية، التي تشترط على الفتى والفتاة شروطًا مستحيلة قبل أن تجمع بينهما في بيت واحد، فإذا اجتمعا بعد ذلك وظهر الشقاء والعناء، فإنه يكون بيتًا تصدعت أركانه قبل أن يستقر فيه سكانه، ويعلم الناس جميعًا أن المظاهر والكماليات والأثاث والرياش والحلي والجواهر لا تصنع بيتًا سعيدًا ترفرف عليه السكينة

والصفاء، على حين يمكن أن تصنع هذا العش السعيد كلمة دافئة، وشعور صادق، وثقة متبادلة، ورغبة صادقة في التعاون على تبعات الحياة حلوها ومرها. ولو أن البنات والأولاد خيروا لاختاروا أن يعيشوا على حصير، في بيت متواضع، وأن يبنيا عشهما السعيد عودًا عودًا، إذا كانت مطالب الأهل ستحول دون التقائهما في حياة زوجية سعيدة..

إن مال الدنيا كله لا يسعد فتاة لا يحترمها زوجها، ولا يشعر أنها الزوجة المخلصة الصادقة الوفية التي تنتظره بقلبها المخلص ووفائها الجميل، وحبها الأكيد. وإن جاه الدنيا كله لا يسعد رجلا لا يطمئن إلى وفاء زوجه وعفتها وإخلاصها وتقديرها له. إننا يجب أن نوفر لأبنائنا الراحة والحياة اليسيرة، وأن نجمع بينهم في الخير، في حدود الإمكانات المتاحة لينصرف كل منهما إلى استغلال طاقته في الأمور النافعة والمجالات المفيدة، لا أن يعيش كل منهما فترة مهمة في حياته في شعور من الكبت والقهر والمصابرة تذهب بكثير من قدراته ومجالات إبداعه.

وعندما أخبرنا الله عز وجل أنه خلق الزوجين الذكر والأنثى فكأنما يؤكد لنا أن الذكر والأنثى لم يخلقا إلا ليكونا زوجين في هذه الحياة، لتتم بهذه الزوجية الحياة وتستمر. والإسلام –ممثلا بآيات القرآن الكريم، وبالأحاديث النبوية الشريفة– نظر إلى هذه المسألة نظرة واقعيّة، فالرجل والمرأة زوجان، وعندما يبلغ أي منهما سن الرشد يجب أن يجتمع برفيقه ليكوِّنا الأسرة المسلمة نواة المجتمع المسلم، قال الله عز وجل في سورة النحل (٧٢): ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾، وقال تعالى في مطلع سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾، وقال تعالى في سورة الفرقان (٥٤): ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ وهذه الآية الأخيرة تدل دلالة قاطعة

على أن الهدف من خلق الزوجين هو أن يكوِّنا الأسرة في المجتمع، والأسرة هي صورة النسب والمصاهرة. والعلاقة بين الناس جميعًا هي إما علاقة نسب وهي الروابط من جهة الأب، وإما المصاهرة وهي الروابط من جهة الأم والبنات. انظر من حولك إلى الأقارب تجدهم إما أقارب لك من جهة أبيك كالأعمام وأبنائهم ومن يتفرع عنهم، وإما أصهارا لك من جهة أمك وأخواتك كالأخوال وأزواج الأخوات ومن يتفرع عنهم، فالله عز وجل خلق من الماء بشرًا، وهذا البشر تشكل في صور النسب والمصاهرة. هذا هو الأصل وكل ما خالف الأصل فهو شاذ لا يقاس عليه، وهو استثناء من القاعدة، القاعدة أن يتزوج الرجل وتتزوج المرأة.

أما القاعدة الصحيحة والأصل القويم هو أن يتزوج الرجل والمرأة حال اندفاع هذه القدرة لدى كل منهما، وكل تأخير يتم بعد ذلك إنما هو استجابة لظروف غالبًا ما تصنعها العادات والتقاليد التي – مهما كانت غلبتها– لاتغني من الحق شيئًا، ولا تكفي للحكم على قواعد الإسلام الراسخة. هكذا مارس المسلمون الأولون حياتهم، وهكذا صنعوا المجتمع المتماسك السعيد الذي انصرف إلى البناء والفتوح والتأليف والإنتاج في زمن وجيز جدًا.

وعندما حل الإسلام مشكلة الزواج فرغ جهود الشباب، بنين وبنات، إلى البناء وإلى التفكير الخلاق، وإلى الإبداع؛ لأن الزواج يمسك على الرجل وعلى المرأة قوتهم الروحية والنفسية، ويوفر لهما الوقت لإنفاقه في العمل الصالح، ويبعد عنهما شبح القلق والاضطراب والضعف والشذوذ والتصرفات غير الحكيمة.

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴾

(٧)

إن المسلمين في زمن النبي ﷺ وزمن أصحابه الراشدين، والتابعين الأوائل ممن حملوا الإسلام إلى الدنيا كلها، فهموا حقيقة العلاقة بين الرجل والمرأة، فهموا حقيقة العمل الذي يجب أن يقوم به كل منهما؛ فهموا أن الرجل بحسب خلقه وبنيته وفطرته التي فطره الله عليها يجب أن يقوم برعاية البيت الذي أنشأه، والزوج التي اختارها، والأبناء الذين رزق بهم، وهذه هي القوامة التي أناطها الله عز وجل به، وهو أعلم بخلقه، قال تعالى في سورة النساء (٣٤): ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾.

فالقوامة مسؤولية، وإدارة وإنفاق، وقدرة بدنية، وحالة اجتماعية هُيئ الرجل لها لأنها وظيفته الأولى. ولم يفهم أحد من المسلمين أن هذه القوامة تعني السيطرة والتفوق والتكبر والتحكم والاضطهاد والعنجهية والجبروت؛ لأنهم فهموا أيضًا حق الفهم أن للمرأة وظيفة أساسية أخرى تقابلها وهي الحمل والولادة والتربية والرعاية والعناية والحنان والعطف والدفء، وهما وظيفتان متكافئتان متكاملتان، غير متعارضتين، ولو أن رجال الدنيا كلهم حاولوا أن يقوموا بدور المرأة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ولو أن نساء الدنيا كلها حاولن أن يقمن بدور الرجال ما استطعن إلى ذلك سبيلا. نعم، قد تبرز بعض النساء من تتفوق ببعض الصفات والمهارات والقدرات فتعمل أعمالا يقوم بها الرجال، أو لا يقوم بها كثير من الرجال، وهذه المرأة يجب أن يفسح أمامها المجال لكي تتحقق قدراتها وتفيد المجتمع بمواهبها دون أن يكون في ذلك اعتداء أو وقف لوظيفتها الأولى، الأهم، وهي صنع الحياة..

وقد يعمل بعض الرجال بعض الأعمال التي اشتهرت بها النساء، ولكن

ذلك يكون منهم، ومنهن، ضمن الاستثناء الذي لا ينقض القاعدة. ومهما يكن من أمر فإن الرجال والنساء، إذا علمنا ذلك وفهمناه، سواء أمام اللّه عز وجل، وأمام الناس يكونان المجتمع السعيد بأسره المستقرّة. فالإنسان العاقل لا يمكن أن يقف موقف الموازنة والمفاضلة بين اثنين يقوم كل منهما بعمل متكامل، يقدم كل فرد منه طرفًا أو شطرًا. وما أظن أن شخصًا يمكن أن يسأل أيهما أهم أو أفضل في إنجاب الولد وحفظ الذرية: الرجل أم المرأة؟ ما أظن عاقلا يسأل ذلك.

والمساواة التي نعتقد بها هي المساواة الإنسانية أمام اللّه أولا وأمام الناس ثانيا، المساواة التي تتحقق من خلال الوظيفة الإلهية التي أودعها اللّه الرجل والمرأة، فهما إذن متساويان في الحياة، يقف كل منهما أمام ربه في الصلاة، يقرأ قرآنًا واحدًا، ويقوم بحركات واحدة، ويصوم كل منهما رمضان، ويحج كل منهما بيت اللّه الحرام، ويؤدي كل منهما زكاته. فمن يعلم أيهما أقرب وأكرم عند اللّه؟ ومن يجرؤ على أن يقول إن الرجل أفضل من المرأة أو إنها أفضل من الرجل؟ هكذا يجب أن نفهم العلاقة بين الرجل والمرأة؛ العلاقة الصحيحة التي من أجلها خُلِق الرجل وخلقت المرأة. وأظن أن المرأة عندما تعرف حقيقة مكانتها ووظيفتها وأثرها في بناء الحياة ترفض أن تكون غير ذلك. إن المرأة العاقلة ترفض أن تنزل من هذه العلياء لكي تكون غير ذلك، إن المرأة العاقلة هي التي تحقق ذاتها وتحقق مملكتها أمًّا رؤومًا وزوجة صالحة وأختا شفيقة، وابنة ريحانة في بيت والدها.

عرف المسلمون إذن حقيقة العلاقة بين الرجل والمرأة، حقيقة الزوجية بينهما فعرفوا للرجل قدره وللمرأة قدرها، عرفوا للرجل عمله وللمرأة عملها، عرفوا ما يجب للرجل من زوجته، وما يجب للمرأة من زوجها، عرفوا أن المرأة شريكة الرجل وزوجته وحبيبته وموئل سكنه وراحته وأم أولاده، وسيدة بيته، فشرع لها الإسلام ما يحقق لها ذلك. وقد شاع في معلومات الناس ما يجب أن تكون عليه المرأة من استعداد وهيأة لكي يقبل الرجل على

بيته بمودة واطمئنان وسرور وقبول وارتياح، فيجد فيه كل ما يلبي حاجته ويريح باله، ويطمئن نفسه، فيستريح، ويستعد لعمله في اليوم التالي قويًّا سعيدًا مطمئنا صافيًا فيقبل عليه بعزم وقوة وتصميم، ويحقق من صنوف الإبداع والامتياز، في كل مجال، ما هو معروف، ولكن كثيرًا من الناس لايعلمون –في المقابل– أن المرأة تحب أن ترى الرجل بمثل الصورة التي يحب أن يراها فيها! إن الإسلام العظيم أمر الرجال أن يتجملوا وأن يتزينوا وأن يُرجِّلوا شعورهم، وألا يدخل على امرأته وهو مشعان أشعث أغبر، وقد ورد في السيرة أن رسول الله ﷺ أمر الرجال وقد عادوا من إحدى الغزوات في المساء، أمرهم أن يبيتوا ليلتهم خارج المدينة ثم يصابحوا زوجاتهم وقد رجّلوا شعورهم وغسلوا وجوههم، وأراحوا أجسادهم، وأمر ألا يفاجئ الرجل زوجته بليل كالمتجسس عليها. وأمر الإسلام المرأة أن تتزين لزوجها لا لغيره، وقد روي أن السيدة عائشة رضي الله عنها سئلت: هل تتزين المرأة لزوجها؟ فقالت للسائلة: «لو استطعت أن تنزعي مقلة عينك وأن تضعيها في وضع أحسن فافعلي». ونهى الإسلام المرأة أن تبيت مغاضبة زوجها، ونهاها أن تُدْخل بيته أحدًا لا يرضاه، ونهاها عن الصوم في غير رمضان حتى تستأذن زوجها، فلعل له عندها حاجة.

ومن حقوق المرأة على الرجل أيضًا أن يكرمها وأن يكسوها وأن يرعاها وأن يعاملها معاملة كريمة، فقد قال رسول الله ﷺ : «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم». وقد جعل الإسلام المرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسؤولة عن رعيتها، ولك أن تنظر – أخي القارئ– إلى هذه المنزلة وإلى هذه المكانة السامية التي ترتفع فيها المرأة؛ إنها المسؤولة عن بيتها وعن رعيتها وعن أبنائها، وهذا قد يفاجئ كثيرًا من الناس، ممن درجوا على اعتبار المرأة ظلا تابعًا للرجل. والحق أن تعاليم الإسلام في حقيقة العلاقة بين الزوجين تعاليم غائبة وسط ركام العادات والتقاليد والجهل، حتى إن المرء عندما يتحدث عن علاقة الرجل

بزوجه، وعن دلال الرجل لزوجه، وعن مظلة الحب والحنان والاحترام بين الرجل وزوجه في بيتهما السعيد يشعر بحرج شديد بما يُجَابه به بين الناس الذين لم يعتادوا ذلك. وقد أتيح لي – بحمد الله– أن أقرأ الحديث النبوي الشريف في الصحيحين قراءة مستنيرة عندما كتبت (بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف) للحصول على درجة الدكتوراة في اللغة العربية وآدابها، فوجدت أن حياة الرسول ﷺ في بيته مع أزواجه، كانت أكمل حياة يعيشها رجل مع نسائه في إطار شرع الله الحكيم.

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴾

(٨)

من خلال مفهوم الزوجية، الذي أَطَلْنا الوقوف عنده، ننظر إلى المرأة والرجل، وقد تبين لنا أن الرجل والمرأة كليهما خلقا ليكونا حالة الزوجية التي هي أساس بناء الكون بكل من فيه وما فيه. وما دام الإنسان يعمر هذه الأرض، فسيظل الرجل ينظر إلى المرأة على أنها جزء من نفسه، وعلى أنها حاجة أساسية لا يستغني عنها، وأنها جزء من بيته، وأنها شريكة عمره، وستظل المرأة تنظر إلى الرجل على أنه حاجة أساسية لا تستغني عنه، وأنه القوة التي تحميها، وتشقى من أجل توفير حاجات الحياة الضرورية لها من طعام وشراب وكساء وأمن.

ووظيفة المرأة تجاه الرجل لا تتجزأ، ومن يريدون تجزئتها يريدون الإساءة إلى المرأة، وتجريدها من أعز ما تملكه دون النظر إلى حياتها كاملة طوال عمرها، فالمرأة لا تُطّلب زوجة في بيت زوجها فحسب، بل تُطّلب زوجة وراعية في بيتها، وسيدة في تنظيم شؤون زوجها وأبنائها، ومربية وحاضنة لأبنائها، ودون ذلك يختل المجتمع؛ لأن وظيفة المرأة اختلت. فالمرأة التي لا تربي أبناءها ولا ترضعهم حنانها ودفء صدرها ينشأ أبناؤها وهم ذوو شعور مضطرب وحياة قلقة، ونفوس قاسية.

وقد أثبتت الدراسات النفسية أن الجنود الذين ينشأون في ملاجئ رعاية الأيتام، ورعاية الأبناء الضالين، وفي رعاية نساء غير أمهاتهن، ينشأون قساة القلوب، جفاة الأخلاق، عديمي الولاء، ويكون من غير المفيد الاستعانة بهم في الحروب؛ لأنهم لا يقاتلون عن ولاء وتضحية بل يقاتلون عن أداء واجب سرعان ما يتهربون منه إذا سنحت لهم الفرصة بذلك. فوظيفة المرأة إذن لا تقتصر على أن تكون زوجة جسد، ومصدر متعة فقط، وليس

لهذا خلقت المرأة فحسب، يقول جل وعلا في سورة الروم (٢١): ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، فالمرأة خلقت لتكون زوجة أولا ولتكون سكنًا ولتصنع المودة والرحمة، وهذا ما يجب أن يتفكر فيه أولو الألباب. وحبذا لو نظرنا إلى مسألة علاقة الرجل بالمرأة هذه النظرة الشاملة الواقعية في الوقت نفسه..

والرجل يطلب المرأة لنفسه ولبيته، والمرأة تطلب الرجل لنفسها ولبيتها.. هذا البيت الذي يبنيه الرجل والمرأة، يقوم كل منهما فيه بوظيفته. والوظيفة الأساسية فيه، وهو استمرار النسل واستمرار الحياة، يقوم بها الرجل والمرأة سواء بسواء، يقومان بها بحب ورغبة وإقبال. ويحقق بها كل منهما سعادته وراحته، حتى إذا أفضى كل منهما إلى صاحبه، انطلقا بعد ذلك لإكمال مسيرة الحياة؛ هو يسعى بجد وجهد ورغبة لرعاية الوليد المنتظر، ولتهيئة البيت لاستقباله، ولتوفير الطعام والشراب والكساء له.. وهي تسعى بجد وجهد ورغبة للعناية بالوليد المنتظر، ليكون في أحسن حالاته: جنينًا، ثم وليدًا، ثم طفلا، ثم فتى يافعًا، ثم غلامًا، وهي في كل ذلك ترعى هذا الوافد الجديد ولدًا أو بنتًا حتى تستمر الحياة كما تستمر الشمس في الشروق والغروب في كل يوم.

من أجل إقامة هذه العلاقة الزوجية على أقوى الأسس وأكمل الوجوه توجهت آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة إلى حث الشباب على الزواج، وحرصت على توفير كل الوسائل والسبل التي تيسر على الشباب والشواب، أي الرجال والنساء، طريق الزواج الشرعي الشريف. والإسلام يدعو الرجل والمرأة إلى الزواج منذ بلوغ كل منهما سن الرشد، لأن كلا منهما يبدأ في الإحساس بهذه الرغبة منذ هذه السن، ولذلك يجب ألا تحول دون تحقيق هذه الرغبة عقبات وموانع ليست من الدين في شيء. ولهذا

حث الإسلام على الاهتمام بالصفات والمزايا الباقية في المرأة والرجل لكي يُقْبل كل منهما على الآخر، فالمرأة الصالحة هي المرأة ذات الدين القويم، والوجه الذي يسر الرجل أن ينظر إليه، والتي لا ترهق الرجل بالمهر الغالي، ولا تثقله بالمطالب المستحيلة. وهي المرأة البكر التي تجد عند الرجل قبولا واستقبالا أوفر وأرحب من غيرها. ولعل في هذا دعوة غير مباشرة إلى الإسراع في الزواج، وعدم تأخير سن الزواج لأسباب واهية..

والـزوج الصالح الكريم هـو الـزوج ذو الـديـن المتين والقلب الكبير والاستعداد الكافي لبناء بيته، وليس شرطًا أن يكون ذا مال ممدود، وجاه عريض؛ لأن المال –في التحليل الصحيح– ليس يكفي لإسعاد المـرأة، أو لبناء بيت سعيد، إذا فقدت الأسباب الأخرى، ولأن الجمال عند المرأة – في النظرة الصحيحة أيضًا– ليس يكفي لإسعاد الرجل، أو لبناء بيت سعيد، إذا فقد ت المزايا الأخرى، وإذا نحن نظرنا في سير الناس في صدر الإسلام نجد أنهم نظروا إلى الزواج نظرة واقعية عملية، ليتنا نعود إليها، ونتعلم منها.

كان الناس ينظرون إلى الـزواج على أنه ضرورة اجتماعية وضرورة نفسية يجب أن تتحقق بأيسر السبل، ولذلك كانت تخطب الفتاة حال بلوغها السن المناسبة، وكان الرجل يتزوج حال بلوغه سن الرشد، وما كان يدور في خلد الناس أن يتأخر الزواج ريثما يكمل الإنسان مشروعًا آخر في حياته.

ولم يجدوا أي تعارض في أن يتزوج الرجل أو المرأة وهو يطلب العلم أو هو يعمل في أي عمل، أو وهو مسافر، أو مجاهد، بل إن الواقع الذي كان فعلا، هو أنهم جعلوا من الـزواج عونًا لهم على تحقيق الأمـور الأخرى، لأنهم وجدوا أن الرجل والمرأة كليهما عندما يشبع هذه الحاجة الفطرية كان ينطلق صافي الذهن قوي الجسم إلى أعماله وأمـوره الأخـرى، كان الجنس –كما نسميه الآن– لا يستغرق عليه تفكيره ولا يعطل عليه ملكاته وحواسه بل كان مصدر قوة له واطمئنان وصفاء، ولذا كان كلٌّ من الرجل

والمرأة ينصرف إلى القيام بأعماله دون اضطراب وقلق وهمّ. ولذلك كان الحديث عن الـزواج، وما يتعلق به من أمـور الخطبة والإيـجـاب والقبول حديثًا عاديًا لا زيف فيه ولا بعد عن الواقع، لأنه حاجة من حاجات الحياة اليومية.

إن هذه الفطرة المتدفقة في جسد الرجل والمـرأة، ينبغي أن يكون لها نظام محدد وتوجيه سليم حتى تسير نحو الهدف النبيل المرسوم الذي يريده الله عز وجل. إن ما يجري الآن في هذه الدنيا الواسعة، مما نلاحظه في القنوات المرئية، ونقرأ عنه في الصحف السيارة، ونسمع عنه في الإذاعات، من اضطراب وفساد في تنظيم العلاقة بين الرجل والمـرأة، وفي تحطيم القيم والأخـلاق التي تحكم علاقات الرجال بالنساء وصلاتهم بهن، إن هذا الاضطراب الذي لا ينكره عاقل، يشهد على حسن تنظيم الإسلام لهذه العلاقة الطبيعية. وإن هذا في الحقيقة هو دأب الدين الحنيف، لا يضع شيئًا إلا وهيأ له النظام الذي يسير عليه، وحاشا لله عز وجل أن يخلق الرجل والمرأة ويجعل الصلة بينهما صلة مضطربة تجري وفق الأهواء والرغبات على غير نظام وحدود..

نظَّم الإسلام صلة الرجل بالمرأة فجعل للزواج عقدًا له شروط، وأقامه على الإيجاب والقبول، والصداق والشهود العدول، وعندما انتشر الناس، واتسعت المدائن والقرى، صار تسجيل ذلك في المحاكم الشرعية، والدوائر الرسمية أمرًا لازمًا حتى تحفظ الأنساب وتعرف حدود الأسرة المسلمة التي هي نواة المجتمع الإسلامي السعيد، وهكذا صار الـزواج، الذي هو الحل الأمثل للحاجة الفطرية الطبيعية عند الرجل والمرأة، أمرًا طبيعيًّا ينظر إليه الناس، رجالا ونساء نظرة واقعية، فلا الرجال يخشون شيئًا عندما يعلنون عن رغبتهم في الزواج، ولا النساء يشعرن بالحرج عندما يوافقن على إتمام هذه العلاقة النبيلة الشريفة وفق شرع الله عز وجل.

ولو أننا أجرينا دراسة على سن الزواج في صدر الإسلام، في فترة النبي

ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين لوجدنا أن المرأة كانت تخطب في مطلع سن البلوغ، وتتزوج في مثل هذه السن، وغالبًا ما كان الزواج يتم مباشرة إثر إعلان الرجل عن رغبته في الزواج من امرأة ما، وإتمام ذلك وفق القواعد الشرعية المعروفة.. لم تكن هناك فترة خطوبة كما شاع الآن في العصر الحاضر، كان الرجل لا ينتظر إلا لتهيئة بيته وإحضار عروسه، وكثيرًا ما كان الرجل يحمل زوجه معه حال إتمام الزواج بإيجاب وقبول أمام الشهود في مجلس الخطبة. كان الزواج يتم بيسر وسهولة تتناسب مع نظرة الناس الطبيعية له، دو ن أن نلغي أثر البيئة في تحديد سن الزواج مما لا ينبغي أن يجعل قضية تؤجج الصراع والخلاف.

ولم تكن الحالة المادية – كما نقول الآن– تحول دون زواج الفتى والفتاة عند بلوغهما سن الرشد. كان الرجل يبذل الميسور لديه، وما كانت الفتاة أو أهلها يعترضون على ذلك، بل إني أرى أن الناس في تلك الأيام لم يكونوا ليمنعوا زواجًا بسبب عدم توفر حاجة أو متاع من متاع الدنيا. حقيقة أن الإنسان رجلا كان أو امرأة يستحسن أن يكون في الوضع الحسن من حيث مسكنه ومنزله وملبسه ومشربه ومأكله، ولكن ذلك يتأتى بالتدريج وفق تطورات الحياة بالرجل والمرأة في نطاق الأسرة التي جمعت بينهما. إنني أشبه ذلك بحاجة الإنسان إلى الطعام والشراب، فإذا كان المرء جائعًا فإنه ينظر إلى أقرب طعام يتيسر له تناوله من أجل أن يسد حاجة فطرية ألحت عليه. وما أظن إنسانًا واقعيًّا يماري في ذلك، قد يحب المرء أن يتناول ما لذ وطاب من شهي الطعام، ولكن ذلك يكون وفق حالة الإنسان وقدراته. وما أظن امرأ يمتنع عن الطعام والشراب إلا إذا كان بآنية من فضة أو كان من أطايب الطعام، إن المرء يحقق حاجته أولا ثم يسعى إلى البحث عما يكون فوق ذلك. ولعل هذا سبب تسمية ذلك (بالكماليات) يقصدون بها ما زاد عن حاجة الإنسان الأساسية. وأظن أن التسمية غير دقيقة لو أمعنا النظر في الكلمة، ومهما يكن من أمر فإن الناس كانوا ينظرون إلى

زواج الرجل والمرأة على أنه أمر طبيعي، وقد ضربت لكم الأمثلة من أصدق الناس وأكرمهم عند الله عز وجل؛ من أسرة النبي ﷺ وبعض أزواجه، وهو المثل الذي يجب أن نقتدي به، وأن نتأسى سيرته الشريفة، وإلا فإن الأمر يميل بنا إلى ما لا نحب مما نرى صورًا منه هذه الأيام.

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴾

(٩)

إن الصواب في أن نعود إلى شرع الله الحكيم، وأن نجعله قانونًا نسير عليه في أمور الزواج، وتنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة وأن نطرح ما يحكم مجتمعاتنا من قيم وتقاليد وعادات قلنا منذ البداية أنها لا تصلح أن تنظم هذه المسألة الهامة في حياة كل مجتمع. وقد مارس المسلمون حياتهم في إطار شرع الله الحكيم دون تعقيد، ودون خجل، ودون تحريف لمقاصد الشرع، فكانت العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة طبيعية واقعية، وكانت الحياة الزوجية تسير وادعة خيرة ينصرف فيها الرجل والمرأة إلى وظيفته الأساسية بكل يسر وسهولة. وإنني أتمنى لو أن الناس جميعًا يقرؤون بعض سير أعلام النساء في تلك العصور، إذن لرأوا الصورة الحقيقية للمرأة المسلمة؛ المرأة الحرة التي تختار زوجها بكامل إرادتها، المرأة التي تعرف ما لها وما عليها؛ المرأة التي تطالب بحقوقها وتناقش فيها كل إنسان حتى رسول الله ﷺ؛ المرأة التي لا تتردد في طلب حقوقها حتى في أخص الشؤون دون أن يحول بينها وبين ذلك خوف من العادات والتقاليد البالية التي تحكم الناس هذه الأيام. لو قرأ الناس تلك السير لوجدوا المرأة المسلمة امرأة عزيزة قوية في حقوقها، قائمة بواجباتها في بيتها، منجبة مربية معلمة موجهة إلى خير التوجيه والتربية والتعليم..

إن الذي يقرأ سير أعلام النساء يخرج بانطباع كله احترام وتقدير للمرأة المسلمة الحرة العزيزة، التي لا تتردد في طلب حقوقها.. ويخرج بانطباع كله احترام وتقدير وإيمان بهذا الشرع الحكيم الذي يقيم الأمر على وجهه الصحيح، فالمرأة لها حق في إرضاء رغبتها، ولها الحق أن تعيش حياتها كما تشاء، ولكن في إطار الشرع الحكيم الذي نظم لها هذه الحياة،

فالشرع الحكيم أعطاها الحق كله في أن تكون امرأة مطلوبة مرغوبة، وهي لم تتردد في أن تحافظ على هذا الحق. وإنني إذا ضربت الآن بعض الأمثلة، فإنني أذكِّر القارئ الكريم بأنني سأذكر هذه الأمثلة وأترك للقارئ أن يتصور بقية القواعد والأسس التي قام عليها مشروع الزواج في الإسلام، من تنظيم شؤون الخطبة والزواج وأحكام العدة والمهر والصداق والشهود، وما إلى ذلك من تنظيمات فرعية. إنني أريد أن أضرب الأمثلة التي توضح حرية المرأة وفهمها لحقوقها وواجباتها، وأترك للقارئ أن يقارن ذلك بما نمارسه نحن الآن من جهل مطبق لأحكام الإسلام، يترجم في النهاية تصرفات تفسد الحياة وتسيء إلى المرأة والرجل كليهما مع أن ذلك يجري باسم الإسلام وانطلاقًا – كما يزعمون– من أحكامه.

هذه سبيعة الأسلمية –رضي الله عنها– مَثَل من أمثال الفهم الصحيح لدى المرأة المسلمة، والتصرف الصحيح في ممارسة حقها. وهي كما ورد في أعلام النساء (جزء ٢ ص ١٤٨) راوية من راويات الحديث، روي لها عن رسول الله ﷺ اثنا عشر حديثًا. وكانت هي – كما ورد في صحيح مسلم جزء ٢ ص١١٢٢– زوجة سعد بن خولة، وكان ممن شهد بدرًا فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل فلم تنشب (تمكث) أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلت (قامت وارتفعت) من نِفَاسها تجملت للخطاب. فدخل عليها أبو السنابل – رجل من بني عبد الدار– (وقد ورد في روايات أخرى أنه خالها)، فقال لها: ما لي أراك متجملة، لعلك ترجبين النكاح، إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعتُ عليَّ ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي. قال ابن شهاب: فلا أرى بأسًا أن تتزوج حين وضعت وإن كانت في دمها، غير أن لا يقربها زوجها حتى تطهر.

في هذا الحديث الشريف عبر كثيرة ومعان ودلالات عديدة، أولها أن

المرأة المسلمة لا تتردد في طلب حقها، فإذا انقضت عدة المرأة المتوفى عنها زوجها لها أن تتزوج إن أرادت. وتاريخ الحياة الإسلامية يذكر أن معظم النساء اللواتي كن يفقدن أزواجهن في الجهاد أو في غيره كن يتزوجن حالا بعد انتهاء العدة. لا يجدن في ذلك حرجًا، ولا يجد الرجال الذين يخطبونهن في ذلك حرجًا، كان الأمر طبيعيًّا، فالرسول ﷺ يأمر سبيعة أن تتجمل للرجال وأن تنكح إن أرادت. ومعنى أن تتجمل للرجال أي أن تخرج من حالة الحداد الذي تعيشه المرأة بعد وفاة زوجها، وعندما تخرج من تلك الحالة بملابسها وبهيئتها فإن الناس يعلمون أنها الآن يمكن أن تخطب وتتزوج، ثم إن الحرية لها أن تتزوج أو لا. وغالبًا ما كانت المرأة تتزوج بعد وفاة زوجها أو بعد طلاقها منه إن حدث الطلاق لأمر ما. لا يجد المسلمون في ذلك حرجًا، وهذه سنة الحياة. وزواج المرأة بعد وفاة زوجها أفضل ألف مرة من بقائها دون زواج، أقول ذلك وأنا أعرف – كما تعرفون– ما يتصرف به الناس الآن عند وفاة الزوج، إنهم – في الغالب– يُكْرهون المرأة على أن تبقى دون زواج، حتى إن أرادت؛ لأنهم يقيمون أمامها العقبات ويضعون أمامها العادات القاسية، فإن هي فكرت في الزواج تناولتها الألسنة، وكثرت حولها الأقاويل، وانهالت عليها الانتقادات، ووضعت أمامها العراقيل، وصوروا لها الحياة القادمة جحيمًا لا يطاق، وأخافوها بضياع أولادها، وإن هي رغبت في الحياة دون زواج، فإنها ترغب في ذلك هربًا من الحرج، وخوفًا من ألسنة الناس، فتعيش إذن حياة نكدة قاسية معقدة، فإن حافظت على عفتها عاشت حياة مجاهدة ومصابرة، وإلا فإنها قد تنحرف إلى طريق الرذيلة في الخفاء هربًا من عيون الناس، فلِمَ كل هذا العناء وهذا الشقاء؟!

الإسلام منح المرأة حرية الزواج، بل شجع عليه، ولم أقرأ عن امرأة في صدر الإسلام توفي عنها زوجها إلا قد تزوجت بعده رجلا يساويه في المنزلة أو يفوقه في ذلك، اللهم إلا إذا كانت امرأة متقدمة في السن، وتركها زوجها وقد شارفت على النهاية. من هؤلاء السيدة أسماء بنت عميس، رضي اللّه

عنها وأرضاها، نموذج للتصرف السليم من النساء الشريفات العفيفات المسلمات، هذه السيدة هي مهاجرة الهجرتين، ومصلية القبلتين، أي أنها من السابقات في الإسلام، هاجرت مع زوجها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الحبشة، وعندما عاد جعفر إلى المدينة ثم شارك في غزوة مؤتة واستشهد فيها تزوجت بعده أبا بكر الصديق رضي الله عنه، فولدت له محمدًا، وكانت قد أنجبت ولدين لجعفر أحدهما محمد بن جعفر، وعندما توفي عنها أبو بكر الصديق تزوجت عليًّا بن أبي طالب فولدت له ولدين عونًا ويحيى، فأي شرف هذا وأي مكانة لهذه المرأة، وأي دين هذا الذي يتيح لها أن تحيا حياتها، وأن تنجب للناس هؤلاء الرجال الكبار، محمد بن جعفر، ومحمد بن أبي بكر، وعون بن علي، وغيرهم. تفاخر يومًا محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر فقال أحدهما لأخيه: أنا أفضل منك وأبي أفضل من أبيك. فاحتكما إلى أمهما فقالت: ما رأيت شابًا كجعفر ولا كهلا كأبي بكر. فقال علي بن أبي طالب، وقد سمع حديثها: ماذا تركت لنا؟ فقالت: إن ثلاثة أنت أقلهم لخيار. إن هذا المثل في حرية المرأة المسلمة، وفي حقها في ممارسة حياتها، وفي نظرة المجتمع الواقعية الصحيحة لها، لهو واحد من مئات الأمثلة في تاريخ الأسرة المسلمة.

وأود أن أعرض أيضًا قصة السيدة أم حكيم بنت حزام – رضي الله عنها– فإن فيها من الدلالات على ما نحن فيه ما لا ينتهي العجب منه. هذه السيدة كانت زوجة عكرمة بن أبي جهل – رضي الله عنه– هذا الرجل الذي أهدر الرسول ﷺ دمه لشدة عداوته للإسلام والمسلمين، فهرب بعد فتح مكة جنوبًا نحو اليمن، فما زالت زوجه السيدة أم حكيم تحاول أن تهديه إلى الدين الحنيف، وقد سعت لأخذ الأمان له من رسول الله عليه الصلاة والسلام إن هو عاد وأعلن إسلامه، فطارت السيدة إلى زوجها، وصادفته يحاول أن يركب البحر إلى أفريقيا، فما زالت به حتى أقنعته بالعودة، وأحب لو أن المجال يتسع لعرض الحوار الذي دار بينها وبين زوجها، وهو يدل على

مودة شديدة، وإعجاب كبير به وبشخصيته، وقد شاء اللّه عز وجل أن يسلم عكرمة وأن يكون لأبي جهل عذق في الجنة كما كان النبي عليه الصلاة والسلام أخبر من قبل..

وقد شارك عكرمة في غزوة اليرموك، وفيها استشهد، وكان أحد الثلاثة الذين فدى بعضهم بعضًا بشربة ماء، كل منهم يقدمها لأخيه. وكانت السيدة أم حكيم معه تشاركه الجهاد في سبيل اللّه، فعندما استشهد، وهنا يبدأ المشهد الكبير، والمعنى العميق في تصرفات هؤلاء السادة رجالا ونساء، وأكملت السيدة عدتها الشرعية، جاء يخطبها يزيد بن أبي سفيان، وخالد بن سعيد كلاهما، ففضلت خالدًا، وقالت له: لو أنك أجلت هذا الأمر ريثما تنتهي المعركة وتنجلي الأمور، فقال لها: إنني أرجو أن يصيبني سهم غدًا فأقبل على اللّه شهيدًا، وأود أن أؤدي ما عليَّ من حق لك، فقالت فدونك إذن، وحقق اللّه عز وجل له أمله وسقط شهيدًا في أرض المعركة، وبعد انجلاء الأمور وعودة السيدة إلى المدينة خطبها عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه..

ومرة أخرى أحب من القراء أن يتدبروا هذه الوقائع، ويروا ما فيها من دلالات على حقيقة مكانة المرأة في الإسلام، ويناقشوا من خلالها ما نشقى في الحديث عنه ومحاولة كشفه على الحقيقة التي يجب أن يكون عليها، من مسائل كبيرة كمسألة تعدد الزوجات والانتصار للأعراض، وحماية المحارم. وأسارع فأقول: إن مسألة تعدد الزوجات من أشد المسائل التي يجهل الناس حقيقتها، وهم بالتالي يسيئون فهمها ويخلطون في الحديث عنها، وسنقول فيها إن شاء اللّه قولا نرجو أن يكون متسقًا مع دلالات السنة الشريفة والدين الحنيف. إن السيدة أم حكيم امرأة من المسلمين مارست حقها الطبيعي، الذي لم يكن ينكره عليها رجل أو امرأة في المجتمع، فهي على الرغم من حبها الشديد لزوجها عكرمة لم تجد بأسًا من الزواج بعد استشهاده، هذا أمر آخر، والزواج بعده يحفظ عليها حياتها كإنسانة مسلمة

تقية مخلصة، وهي ليست بدعًا في ذلك، إنما كان المجتمع الإسلامي ينظر إلى الرجل والمرأة هذه النظرة الواقعية، ومن هنا أحب أن يتأمل الناس في ظروف الجهاد في سبيل الله، واشتراك الرجال – في المقام الأول– في الحروب والقتال، فهم معرضون للقتل والاستشهاد، فيتركون بعدهم أزواجًا غالبًا ما يكنَّ في مقتبل العمر، فماذا تصنع المرأة، وأي السبيلين أحفظ لدينها وأقوم في تنظيم الحياة؛ إبقاؤها محرومة من نعمة الحياة التي وهبها الله، أم انضواؤها إلى رجل رشيد تكون له نعم الزوج المصون، والسكن الحنون، والبيت الدافئ.. إن مقارنة بين ما يجري الآن، وما كان يجري في تلك الأزمان تجيب إجابة شافية عن مثل هذا السؤال.

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴾

(١٠)

في الأمثلة التي عرضتها آنفًا، وهي أمثلة واقعية مستمدة من حياة الناس في عهد النبي ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين دليل قاطع على أن الإسلام أعطى الرجل والمرأة كليهما الحرية التامة والمساواة الكاملة في التعامل بينهما في نطاق العلاقة الزوجية التي خلقهما في الأساس من أجل إقامتها. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾ ، وعلى هذا الأساس ينبغي أن نفكر في كل مسألة من مسائل الزواج، أو ما يتفرع عنها من موضوعات مثل موضوعات العرض وتعدد الزوجات، وغيرها.

ولنلق نظرة على مسألة العِرْض هذه التي يكثر حديث الناس عنها، ولكنهم في الغالب يتناولونها من واقع العرف والعادات لا من واقع الدين الحنيف، والعِرْض في لغة العرب هو جانب المرء الذي يصونه من نفسه وحسبه أن ينتقص ويثلب، سواء أكان في نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره أو موضع المدح والذم منه أو ما يفتخر به من حسب وشرف.

ولم ترد كلمة (العرض) بهذه الدلالة في القرآن الكريم على الرغم من أن مادة (ع ر ض) وردت تسعًا وسبعين مرة في آيات متعددة، وبصيغ متنوعة مثل (عرضنا) و(عرضهم) و(عرض) و(تُعرضون) و(اعرض) و(عرضها) و(معرضون) وغيرها. ووردت بضعة أحاديث نبوية شريفة فيها مادة (العرض) بدلالة الجانب الذي يحرص المرء على حمايته وصيانته. ولكن الكلمة شاعت في الأدب العربي وصارت مجالات لافتخار الشعراء والخطباء، من ذلك قول السموأل بن عادياء:

يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول

ولكن الناس تمادوا في الاعتزاز بالعرض والتمسك به، وتوسعوا في دلالته وأخذتهم الحمية والعصبية في صيانته حتى نشبت بينهم الحروب أحيانًا، وشاع فيهم القتل، وسفك الدماء، وتعددت فيهم حالات الأخذ بالثأر، وشاع في حياتهم القلق والاضطراب والخوف من الانتقام، كل ذلك لأنهم لم يفهموا دلالة (العرض) كما أراده الله عز وجل، ولم يتعاملوا فيه، وفي كل ما يحدث من اعتداء الآخرين عليه، وفق أوامر الله عز وجل وأحكام شرعه الحكيم. ولسنا نعني بهذه الفكرة أننا نستهين بالعرض، أو نتخفف في الدفاع عنه أو حمايته، معاذ الله، بل نهدف إلى إقامة الأمور في سياقها الشرعي الحكيم، قبل أن ترتجف أنوف بعض الناس غيرة وحمية على الأعراض قبل أن يدركوا حدودها وقواعدها.

العرض – مرة أخرى– هو ما يحرص المرء على صيانته وحمايته، وقد يكون مستعدًا لبذل نفسه في سبيل الدفاع عنه، ولكن كيف يمكن أن نحكم على شخص ما أنه اعتدي عليه أو انتهكت حرماته، إن ذلك يتم إذا تجاوزت تصرفات الناس في هذا الأمر الحدود التي وضعها النظام المعين لحمايته وصيانته، مثال ذلك دوام الموظفين، أو المال العام للدولة، أو حرمات البيوت.. إن الموظف يمكن أن يقال عنه إنه تأخر عن دوامه، أو تقاعس في وظيفته، أو غش في عمله، وهذه التهم لا تصدق عليه إلا إذا كان عمله مخالفًا لما سنَّه نظام الوظيفة من حدود يجب عليه أن يرعاها، وكذلك يقال في المال العام إذا امتدت يد إلى الأخذ منه دون وجه حق وبصورة تخالف قانون الدولة، وكذلك البيوت فلا يجوز لامرئ أيا كان أن يدهم بيتًا فيدخله دون إذن أهله وسكانه، وهكذا الأمثلة كثيرة فيما يصح عمله وما لا يصح، وما يكون فيه العمل مقبولا وما يكون العمل فيه خارجًا على حدود القانون، بهذا الفهم يجب أن ننظر إلى قيمة (العرض) ومعناه في حدود الشرع الذي فرضه الله عز وجل في تنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة.

لذا يجب أن ننظر إلى (حرمة الأعراض) من واقع ما أحله الله عز

وجل وما حرمه، دون الاهتمام بما درج عليه الناس في عاداتهم وتقاليدهم، هذه العادات والتقاليد التي قلنا إنها لا تصلح مقياسًا للحكم على تصرفات المرء في الإسلام، ولا يجوز أن تكون دوافع لبعض التصرفات والأعمال التي تخالف الدين. فالاعتداء على حرمة امرأة ما – مثلا– أو التعرض لها بسوء، أو التقول عليها زورًا وغيبة وبهتانا هو انتهاك لعرضها وعفتها وشرفها، لماذا؟ لأن هذه التصرفات المشينة تخالف ما أمرنا الله عز وجل به من الحفاظ على حدود الله، ومن إقامة العلاقة بين الرجل والمرأة وفق شرع الله، ومن غض البصر وحفظ اللسان وعدم قذف المحصنات الغافلات، ولكن الناس ينسون في غمرة الحمية والغضب، إذا مُسَّت الأعراض، ينسون حقائق بدهية ينبغي التنبيه عليها، منها: أن الغيرة يجب أن تكون لدين الله، وأن الانتصار يجب أن يكون لحرمات الله التي انتهكت، وعلى هذا يكون الحكم واحدًا والشعور واحدًا إذا انتهك أي امرئ أو امرأة حدود الله؛ لأن الرجل والمرأة كليهما مكلفان ومأموران بالأمر نفسه، ويجب أن تكون الغيرة والحمية والانتصار لدين الله إذا انتهك أي امرئ أو امرأة قريبة أو بعيدة أي حد من حدود الله.

إن الإسلام جعل المرأة والرجل متكاملين في صنع الحياة، فهما متكافئان في إقامة حدود الله، وفي الائتمار بأمر الله، وفي حمل الدين الحنيف، وكلاهما مأمور بأوامر الله عز وجل، كلاهما مأمور بالاستقامة والعفة والشرف وغض البصر وحفظ اللسان، بل إن الرجل مخاطب بعدم مد بصره ليتسلل إلى أعراض الآخرين. ودعونا نقرأ آيات الله عز وجل فنتأكد من أن الأمر نفسه وجه إلى الرجل وإلى المرأة بالنص نفسه في كثير من الأحيان:

قال الله عز وجل في سورة النور (٣٠-٣١): ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۞ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ إن الأمر نفسه بالكلمات نفسها

موجه إلى الرجال وإلى النساء، بل إن الرجال أمروا به قبل النساء.

وتأمل الآية الكريمة من سورة الأحزاب (٣٥) وتدبرها يسوقان إلى أن الرجل والمرأة سواء في اتباع دين الله، وفي الاتصاف بالصفات الحميدة إذا أطاعوا الله عز وجل، فيجب أن يكونوا كذلك إذن في إيقاع العقوبة إذا خالف أي منهما أمرًا من أوامر الله. وعندئذ فقط يكون الحكم لله، وتكون الغيرة على دين الله، ويكون الانتصار لحرمات الله وحدوده، يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

هذا هو المجتمع المسلم، مجتمع يلتقي المسلمون المؤمنون الصادقون الشرفاء بالمسلمات المؤمنات الصادقات الشريفات فيصنعون المجتمع المتكامل السعيد القوي. فإذا خرج فرد من الناس لسوء طبع وفساد نية على هذا المجتمع فيجب عندئذ تأديبه بالعقوبة التي نص الله عليها، لا بعقوبة بشرية، لأن الله الذي صنع هذا المجتمع بأحكامه وأوامره، وخلق هذا الإنسان رجاله ونساءه، هو عز وجل وحده القادر على أن يشرع له ما يناسبه لتكون حياته حياة قويمة مستقيمة، والشرع فيه الأمر وفيه العقوبة، والعقوبة في الإسلام حياة للمجتمع ودرء للمفاسد ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ولكن أكثر الناس في هذا الزمن، وبخاصة في مجال العرض والشرف ينسون هذه الحقيقة، وتأخذهم العزة بالإثم فيعاقبون المرأة أشد العقوبات التي قد تصل إلى القتل في كثير من الأحيان، ويتركون الرجل حرًّا طليقًا يتباهى بفعلته، ويتفاخر بها. إن هذا أمر ليس من الإسلام، الإسلام يأمر بالعدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وإقامة الحد أو

إيقاع العقوبة على أحد الطرفين، وترك الآخر حرًّا طليقًا هو أشد أنواع البغي والظلم، وهو غير متفق مع دين اللّٰه.

ولكن قبل التفكير في إقامة الحدود، يجب علينا أن نغلق الأبواب التي تؤدي إلى الفاحشة والمنكر.



﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا . . . ﴾

لعل هذه الآية الكريمة من سورة الروم تحدد المراد بمصطلح (الزوج) في القرآن الكريم. ومن المعروف أن كلمة (زوج) تطلق على الرجل والمرأة، فهو زوج وهي زوج. ولم ترد كلمة (زوجة) بالتاء المربوطة في القرآن الكريم أبدًا على الرغم من شيوعها في كلام الناس. بل لا يكاد الناس يستعملون للرجل سوى كلمة (زوج) وللمرأة سوى كلمة (زوجة) حتى صار المتمسك بلغته إذا قال كلمة (زوجي) عن امرأته يشعر ببعض الحرج، نظرًا لجهل عامة الناس بالاستعمال الفصيح. ولكن كلمة (زوجة) بالتأنيث هكذا، وردت في بعض الأحاديث الشريفة، منها الجمل التالية التي وردت في البخاري، (ويدع زوجته من أجلي) في باب الصوم، و(لكل واحد منهم زوجتان) في باب بدء الخلق. و(انظر أي زوجتي هويت) في باب البيوع، كذلك وردت الكلمة في صحيح مسلم في باب الإيمان (فيدخل عليه زوجتاه من الحور العين) . ووردت في ابن ماجة والنسائي، والترمذي.

وأظن أن اختصاص كلمة (زوج) للرجل والمرأة في القرآن الكريم يدل على مبدأ الزوجية الأساسي في نظام الحياة، فهما زوجان متكافئان، فلم يتقدم الرجل على المرأة بهذه الصفة ولا تتقدم عليه المرأة بالصفة نفسها. وأرجو ألا يفهم هذا القول على غير وجهه. فمن المعروف أن التفاضل تكاملي في المرأة والرجل، وهذا ما سنعرض له بالتفصيل قريبًا، ولكن كون أحدهما زوجًا للآخر لا يكفي لكي يفضل أحدهما الآخر؛ لأن كلا منهما حمل هذا الوصف بالقياس إلى قرينه، فلولا الطرف الآخر لما كان أي منهما زوجًا.

وقد وردت كلمة (زوج) سبع عشرة مرة في القرآن الكريم، كانت منها (إحدى عشرة مرة) تعني المرأة، وفي مرتين كانت تعني الرجل، وفي المواضع الباقية كانت دلالتها عامة على غير الإنسان وبخاصة دلالتها على النبات. وإذا علمت أن كلمة (أزواج) جمع زوج وردت في القرآن الكريم (٥٢) مرة، وأنها لم ترد بمعنى الأزواج الرجال سوى مرة واحدة، وأن الباقي في معظمه يعني الأزواج النساء، إذا علمت هذا فقد يدل ذلك على أن الزوجية بين

الرجل والمرأة تصنعها المرأة في المقام الأول، وأن دلالة (زوج) بل هذه الكلمة نفسها (زوج) أطلقت في أول الأمر، وفي بداية الخلق على المرأة لا على الرجل.. قال تعالى في مطلع سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ وهذا يدل على أن الأصل في العلاقة بين الرجل والمرأة، بعد أن يبلغا النكاح، هو في مكانة المرأة ودورها.

وهذا يفهم من قوله تعالى (وخلق منها زوجها)، فلا يجوز أن تبقى العلاقة بينهما علاقة رجل وامرأة، أي علاقة فردين من الناس، ذكر وأنثى، لا صلة بينهما، بل إنهما خُلقا لكي يكون كل منهما (زوجا) للآخر. ومن اللافت للنظر أو ينبغي أن يكون كذلك، أن المرأة هي الأصل في صنع الحياة الأسرية، وإلا فلماذا أصرت آيات القرآن الكريم على هذا التعبير (وخلق منها زوجها) أو (ثم جعل منها زوجها). فإذا تدبرنا قوله تعالى في سورة الروم ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ وجدنا أن المرأة هي السكن وهي البيت، وهي الأسرة، ودون المرأة لا يكون كل ذلك، والحقائق البشرية أعلى من كل جدال أو حوار يكون في هذا الموضوع. ولو نظر امرؤ إلى حياته الشخصية لوجد أن المرأة عماد البيت، وأن الرجل، مهما أوتي من إمكانات مادية أو اجتماعية، لا يستطيع أن يصنع بيتًا. إنه قد يصنع بيتًا صوريًا في الظاهر، ولكنه لا يصنع البيت الذي رسمته الآية الكريمة ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾..

وقد حاول بعض الدارسين أن يفرقوا بين دلالة (الزوجة) ودلالة (المرأة)؛ من هؤلاء الزميل الكريم الدكتور صلاح الخالدي، في كتابه إعجاز القرآن البياني، فقال في ص٢١٣: «متى تكون المرأة زوجًا ومتى لا تكون... إنه يطلق على المرأة زوج إذا كانت الزوجية تامة بينها وبين زوجها، وكان

الاقتران والتوافق والانسجام تامًا بينهما بدون اختلاف ديني أو جنسي أو نفسي، فإن لم يكن التوافق والانسجام كاملا، ولم تكن الزوجية متحققة بينهما، فإن القرآن يطلق عليها امرأة، وليست زوجًا، كأن يكون اختلاف ديني أو جنسي بينهما». ولا أدري ماذا يقصد الدكتور بالاختلاف الجنسي بينهما والاختلاف الجنسي بدهي. وأقول: إن دلالة (المرأة) كما سبق بيانها لا يقتصر على المرأة المتزوجة، بل يتعداه إلى الفتاة أيًا كانت سنها، وإن كانت غير متزوجة، كما يدل على ذلك قصة سيدنا موسى عليه السلام مع ابنتي شعيب عليه السلام، حيث يقول الله عز وجل: ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ وكانت الفتاتان غير متزوجتين، وقد تزوج سيدنا موسى بعد هذه القصة إحدى الفتاتين.

وقد سبقت الدكتورة بنت الشاطئ زميلنا الدكتور صلاح الخالدي أيضًا بهذه الفكرة. وأقول: إنه كان الأولى أن نستنتج هذه الدلالة من كلمة (زوج) نفسها، حيث إنها لا تتحقق دلالتها اللغوية والبيانية إلا من خلال وجود القرين الآخر. والزوجة يمكن أن تكون مع زوجها، ويمكن أن تكون مطلقة، ويمكن أن تكون أرملة، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾، وليس من دليل قرآني على أن المرأة تكون عند عدم التوافق والانسجام الكاملين بين الرجل والمرأة، كما يرى الدكتور الخالدي؛ لأننا لا نستطيع أن نحكم على العلاقة بين اثنين بأنه لانسجام أو توافق بينهما. من يدرينا بأن أبا لهب لم يكن منسجمًا أو متوافقًا مع (امرأته) حمالة الحطب، التي سماها القرآن كذلك، وهي كما نعلم زوجه، الموافقة له تمامًا والمنسجمة معه جدًا، لأنها كانت تشاركه في إيذاء النبي؟. إنني أرى أن (المرأة) هي مؤنث كلمة (امرؤ) وأنها تدل على الأنثى في كل أحوالها، فإذا تحققت بينهما وبين الرجل صلة الزواج، صارت زوجًا له، وصارت بالتالي ضمن ما أطلق عليه القرآن مصطلح (النساء).

ومن تمام القول في هذه الآية الكريمة أن نقف مع الفعل (جعل) الذي ما

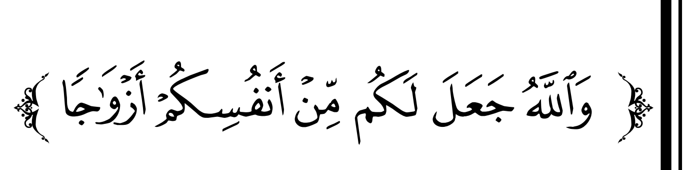
زال يفيض حيوية وظلالا ودلالات ساحرة. والحمد للّه الذي (جعل) المودة والرحمة له لا لغيره، ولو كانت المودة والرحمة من غيره لما كانت صادقة صافية دائمة كالمودة والرحمة التي يزرعها اللّه عز وجل.. راقب نفسك – عزيزي القارئ – وراقب من حولك، وانظر إلى ما بين الناس من علاقات اجتماعية وعلاقات المحبة والصداقة، لعلك ترى –مثلي– العجب العجاب، إن كل مودة، أو محبة لا يجعلها اللّه عز وجل أو لا يصنعها اللّه عز وجل تكون زائفة وتنتهي إلى خصام ونكد. وقد تضافرت الآيات والأحاديث على تأكيد هذه الحقيقة، على تأكيد أن ما كان للّه فهو المتصل، وما كان لغير اللّه فهو المنقطع. إن صلة الرحم من صنع اللّه، والأمومة والأبوة من صنع اللّه عز وجل، والعطف على الصغير والمريض والفقير والمسكين من صنع اللّه عز وجل، وما دون ذلك من صنع البشر. وقد بينت في مقالات سابقة أن قلب المسلم لا يعرف الكره والحقد؛ لأن اللّه عز وجل لم يجعل فيه سوى المودة والرحمة، فإن كان المرء يستحق منك المودة والرحمة فهو كذلك، وإلا فإنك لا تحبه، ولكنك لا تكرهه، إنك لا تحبه لأنه لم يفعل ما يجعل قلبك يحبه ويميل إليه، فإن غيّر سلوكه وترك ما وجدته فيه أحببته للتو وأصفيت له المودة..

وقد وصف اللّه عز وجل ذاته بأنه يحب المحسنين، ويحب المتقين، ويحب الصابرين، ووصف ذاته عز وجل بأنه لا يحب المفسدين ولا يحب الظالمين ولا يحب كل مختال فخور، فإن ترك هؤلاء تصرفاتهم هذه فإنهم يصبحون من أحباب اللّه عز وجل. وهكذا يجب أن يكون المسلم؛ يحب أو لا يحب وهما صفتان متعادلتان في سلوك المسلم وفي ميزان عمله، وهو مثاب على كل منهما، وهذا من عجائب هذا الدين الكامل. والمودة أعلى درجات الحب، ولذلك وصف اللّه عز وجل أولياءه وأكرم عباده ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾. ووصف ذاته جل شأنه بأنه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ۝ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾ ولم يسأل اللّه عز وجل الناس إلا المودة في القربى

لأنبيائه ورسله عليهم السلام ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾..

إن المودة والقربى اللتين يجعلهما الله عز وجل بين الزوجين لا يصنعهما إلا الله عز وجل، ولا يكونان إلا بين زوجين أقاما رباط حياتهما على شرع الله عز وجل وسنة رسوله، ومن هنا كان تأكيد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ والتفكر في القرآن الكريم يعني العبادة، ولولا أن في هذه الآية الكريمة من الأسرار العظيمة والدلالات الواسعة لما كانت فاصلتها تأكيد على ما فيها من آيات وعظات لقوم يتفكرون. ولعل هذا التأكيد وهذه المعاني التي تشع من الآية الكريمة وتشيع فيها تعلم الناس كيف يفكرون وكيف يقيمون حياتهم الزوجية على الرباط المقدس الذي يباركه الله عز وجل ويفيض عليه السكينة والمودة والرحمة.





﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴾

إن القضية الأساسية في علاقة الرجل والمرأة هي قضية الزواج، وهي قضية يخوض فيها الناس كثيرًا: سن الزواج، شروط الزواج، أنواع الزواج، حقوق الزوجة على زوجها وحقوق الزوج على زوجته، وواجبات كل منهما تجاه الآخر، وموقف الدين وحكمه في كل ذلك، وكيف يتعامل الناس مع كل هذه الأمور، وكيف يفهم الناس قضية تعدد الزوجات، هذه أمور كبيرة، وأظن لو أن الناس تعاملوا مع قضايا الزواج وفق شرع الإسلام لعاشوا سعداء، ولانتهت مشاكل اجتماعية كثيرة تعيش فينا ونسمع عنها كل يوم.

والزوجية هي نظام الكون، هكذا بكل الإيجاز والاختصار ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، فالزوجية هي قوام النظام الإنساني (وفي أنفسكم) وقوام عالم النبات (مما تنبت الأرض) وقوام كل الأنظمة التي لا نعلمها. والزوجية هي لقاء الزوجين في حياة زوجية مستمرة، ولذلك سمى الله عز وجل كلا منهما، هو وهي، زوجًا، قال تعالى في الآية ٤٩ من الذاريات: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

ولم أسمع أحدًا من الناس قدم زوجًا على نظيره في أي عالم من العوالم الأخرى، عالم الحيوان أو عالم النبات، بل نحن ننظر إلى ما حولنا من مخلوقات، ونسبح بحمد الله وقدرته جل شأنه، ونؤمن بأن كل خلق قائم على ما قدر له الله، لا نبحث عن فرد أفضل من غيره، ولا عن زوج أسمى من نظيره، فإذا وصلنا إلى عالم الإنسان تحطمت هذه الصورة النبيلة، وصارت المشاكل والخلافات، ونشب الجدال، واحتدمت المعارك في تفضيل الرجل على المرأة، وفي الصراع من أجل حقوق المرأة، وفي الحروب من أجل تفسير حقيقة المرأة وحقيقة الرجل، ويجب أن نتخذ من نظام الزوجية الكوني قاعدة للنظر في هذه المسألة، وألا ننسى هذه القاعدة في أي مرحلة من مراحل الدرس والنظر. فإذا سلمنا بذلك، وهي مسلمة بدهية أو حقيقة علمية، أو برهان ديني يقيني، فينبغي أن نقيس الأمور كلها عليها، أو ننطلق في الأمور كلها منها، فالزوجان –إذن- الرجل والمرأة يقومان بصناعة

الحياة، سواء بسواء، فردان متكاملان، الرجل يسير نصف الطريق، والمرأة تسير النصف الآخر، ويلتقيان، وتنشأ الأسرة وتستمر الحياة، فكيف يقال إن أحدهما أفضل من الآخر، ولقد رأينا في هذه الدراسة أن القرآن الكريم لم يفرق في أي من آياته بين الرجل والمرأة ذكرًا وأنثى، رجلا وامرأة، ولدًا وبنتًا، أخًا وأختًا، لم يفرق بينهما من حيث القيمة الإنسانية، وإنما فضل القرآن بعضهم على بعض بشيء امتاز كل منهما عن الآخر، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ، وهذا الجار والمجرور (به) هو مفتاح الأمر كله، إن (به) هذه تجعل لكل من الرجل والمرأة شيئًا يفضل أحدهما الآخر به، وهذا الشيء الذي يفضل كل منهما الآخر به هو الذي جعل من الرجل زوجًا ومن المرأة زوجًا، وجعل منهما زوجين ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾. إن الرجل خلق رجلا لكي يقوم بدوره، بوظيفته مؤهلا للإنجاب والتربية والرعاية لأسرته، وإن المرأة خلقت امرأة لكي تقوم بدورها، بوظيفتها، ففضلها الله عز وجل وزودها بما به تكون زوجًا مؤهلة للإنجاب ولتربية أبنائها، ولكي يقوم كل منهما بوظيفته خير قيام، فصلت له آيات القرآن الكريم حقيقة وظيفته، وصروف حياته، وأفاضت آيات القرآن في تفصيل أحوال المرأة، فتحدثت عن الخطبة، وعن الزواج، وعن الحيض وعن الطهر، وعن ظروف الطلاق، وعن الأمومة وعن الرضاعة، وعن ميراثها الخاص بها، تحدّثتْ عن كل شيء، وما أظن أن آيات القرآن تحدثت عن كل ذلك ثم يجادل امرؤ في أن للمرأة دورًا ووظيفة غير هذه.

إن الله عز وجل خلق المرأة لكي تكون امرأة ريحانة بيتها، وشريكة زوجها، وهذا لعمري شرف كبير، ووظيفة كبيرة، لا يقوم بها غيرها. إن الدنيا كلها، بعيدًا عن أحكام الدين، تعترف بذلك على الرغم من مكابرات بعض الكتّاب والصحفيين. ورجال الصالونات الأدبية، وسيدات المجتمع المتفرغات للأحاديث الهامشية، لو نظرت إلى ما يجري في سياق حياتهم لرأيت أن صناعة الأزياء وصناعة الموديلات وصناعة السينما والأفلام

والأغاني كلها تقوم على أن المرأة هي المرأة، خلقت لتكون مطلوبة للرجل، وفي الوقت نفسه، تجد الرجال قوامين بوظيفتهم في المصانع والشركات والمؤسسات والمناجم في أجواز الفضاء وفي باطن الأرض، وفي أعماق البحار، في الطائرات النفاثة، والغواصات النووية؛ يقطعون الصحاري، ويصعدون الجبال، يقوم كل رجل بعمله حتى إذا فاءوا إلى بيوتهم وجدوا قلبًا كبيرًا وصدرًا دافئًا، وسكنًا مريحًا، ونفسًا رضية، تخفف عنهم تعب يومهم الشاق، إن هذا هو الوضع الطبيعي..

وقد قلت إن هذا هو الوضع القائم، حتى لو أن آيات القرآن الكريم لم تقرر ذلك فالواقع يقره ويقرره، والحياة تشهد به، وإن الحالات اليسيرة التي تمنى أن يقوم فيها رجل بعمل هو من طبيعة المرأة، وإن الحالات اليسيرة التي يمكن أن تقوم فيها امرأة بعمل من طبيعة الرجل حالات يسيرة في القياس العالمي الإنساني على مر الدهور.

ومما يلفت النظر في الآيات التي تتحدث عن الزوجية في القرآن الكريم، أنها كلها تجمع على أن الله عز وجل خلق النفس الإنسانية وخلق منها زوجها، وأحيانًا تقول الآيات إنه جل شأنه جعل منها زوجها، فما دلالة هذا التعبير؟ يقول الله عز وجل في أول سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾، وفي الآية ١٨٩ من سورة الأعراف يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾، وفي الآية ٦ من سورة الزمر: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾. هذا فيما يتعلق بأصل الخلق، أما الآيات الأخرى التي وردت في هذه المادة، بصيغ متعددة فهي تتعلق بأحوال هذه الحياة الدنيا، مثل استبدال زوج مكان زوج، ومثل ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾. ومثل ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾، وغير ذلك من المعاني ومن الآيات الكريمة التي تدل عليها، ولم أجد في حدود ما قرأت

أحدًا من الناس حاول أن يفسر معنى خلق منها زوجها، مع الإيمان بأن الرسول ﷺ أخبرنا أن حواء خلقت من ضلع، وأن الله عز وجل خلق آدم عليه السلام أولا ثم خلق منه حواء، ولكن كيف تم ذلك، لم يقل العلم كلمته بعد، وأقول: إن هذا أمر يمكن أن يتوصل إليه العلم، وبخاصة أن القرآن الكريم تحدث عنه وألح عليه، وقد اعتدنا أن الإشارات العلمية في القرآن الكريم هي فروض تستحث الدارسين والباحثين أن ينظروا فيها، وإننا نرجو أن يعود العلماء المسلمون إلى كتاب ربهم فينطلقوا منه، ويبحثوا في إشاراته العلمية، ولسنا الآن بصدد الحديث عن الجانب العلمي في القرآن، ولكني أقول باستمرار: إن القرآن الكريم كتاب في التشريع الإسلامي، في تقديم دين الله عز وجل إلى الإنسان لكي يعبد الله به، ويعمر الكون بمنهاجه. من خلال ذلك تكون إشارات علمية؛ لأن القرآن وهو يبحث في أمور الخلق وواجبات الإنسان وحقوقه، يربط بينه وبين آيات الله في كونه الواسع، فتكون إشارات عن نظام هذه الدنيا، هذه الأرض في إطار كونها جزءًا من الكواكب والنجوم التي خلقها الله..

ويتحدث القرآن الكريم عن الماء والهواء والبحار والأنهار والليل والنهار والشمس والقمر والعواصف والأمطار والسهول والجبال، وكل ما يتعلق بذلك في إطار تقدير الله عز وجل وحكمته وقضائه. من خلال ذلك قد يتوجه النظر إلى شيء يذكره الله عز وجل فيسأل الإنسان عنه كيف يكون، كيف يتشكل، ماذا يعني، ما تفسيره، كل هذه الأسئلة تفتح أمام الباحثين المختصين أبوابًا واسعة للدراسات العلمية والتجارب العلمية وفق المنهج العلمي التجريبي. وهذا باب واسع يحتاج إلى دراسات خاصة، وهنا في هذا السياق قد يتساءل دارس مسلم عن معنى قوله عز وجل: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ،وقال في مكان آخر: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ هل النفس الواحدة هي سيدنا آدم عليه السلام؟ ليس في ذلك من شك. هل الزوج الذي خلقه الله منها هي

حـواء؟ ليس في ذلـك مـن شـك. ولـكـن كيـف تم هـذا الخـلـق؟ مـن أي جـزء مـن آدم، مـن أضـلاع صـدره؟ كـل ذلـك بـحـاجـة إلى إجـابـة.. ثم قال تعالى في آيتين «جعل منها زوجها» وفي آية واحدة «ثم خلق منها زوجها»، فهل ثمة فرق بين الخلق وبين الجعل؟

إن أمام العلم أسئلة كثيرة. ولكن الذي يحزن المرء أن العلماء المسلمين لا يبادرون إلى مثل هذه التساؤلات، ويتركون غيرهم يبحثون ويجربون، فإذا توصل هؤلاء إلى نتيجة علمية هب العلماء يقولون إن القرآن الكريم يقول كذا وكذا منذ آلاف السنين. وكان الأحرى بهم، وهم يتلون القرآن الذي قال لهم اقرأ في أول كلمة نزلت فيه، أن يكونوا هم السابقين غيرهم إلى مثل هذا الاكتشاف... وغني عن البيان أن كل ما أودعه الله عز وجل من علم في الأرض، أو في الكون، إنما هو في نطاق القدرة الإلهية على خلق الكون وفق مشيئة الله، وأن الإنسان يكتشف ما في الأرض رويدًا رويدًا، ويطور ما يكتشفه، ويمضي فيه، فالمعرفة الإنسانية مهما اتسعت وتنوعت فمصدرها هو العلم الإلهي، ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ وعـنـدمـا تقوم الساعة يكون كل ما اكتشفه «الإنسان» من علم في عمر الدنيا كلها إنما يدخل في قول الله عز وجل: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. ويشبه هـذا – ولله المثل الأعلى- جنينًا يولد لا يعلم شيئًا، فيتعلم، ويكتشف ويكون شيئًا مذكورًا، ثم في كبره يعود لا يعلم شيئًا، ثم يموت ويترك ما علمه، وما لم يعلمه في الأرض، ويكون ما علمه قطرة صغيرة من بحر العلم الذي تزخر به الأرض..

إن نظرية المعرفة الإسلامية يجب أن تتشكل وفق هذه القاعدة، وهذا لعمري سبيل يدفع العلماء إلى البحث والاكتشاف، ولا يقعد بهم عن البحث والتجريب كما قد يتبادر إلى بعض الأذهـان، ثم نتساءل أخيرًا ونحن في نطاق هذه الآية الكريمة﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾: مـا سـر انجذاب الرجل نحو زوجه طوال عمره، يظل يشتهيها وتشتهيه، ولا يجد

الرجل الشعور نفسه نحو ابنته أو أخته، ما السر في هذا؟ هل في خلق الزوج من نفس الرجل صلة بذلك؟ ثم بعد أن كان الرجل وكانت المرأة صار الابن والابنة نتاجًا مستقلا لرجل وامرأة كلاهما أسهم فيه، قد تبدو هذه الأسئلة ساذجة بجانب ما تحاول أن تجيب عنه، ولكنها على كل حال أكثر عمقًا من سؤال نيوتن عن حبة التفاح التي سقطت من الشجرة إلى الأسفل ولم تذهب إلى الأعلى، أو إلى اليمين أو إلى اليسار مع أن الأجواء مفتوحة أمامها، فكان جواب هذا السؤال اكتشاف أكبر حقيقة علمية على وجه الأرض الآن، وهي قانون الجاذبية الأرضية. إن علينا إذن أن نتساءل، فما استطعنا أن نجيب عنه أجبنا، وما لم نستطع فإنه يكفينا أن نكون قد فتحنا أبوابًا واسعة لإعادة السؤال.



﴿ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴾

وفي سياق هذه المسألة، نتحدث عن مصطلحي (البنات) و(البنين) في استعمال القرآن الكريم، بعد أن تبين لنا في الكلمات السابقة أن كلمة (الأولاد) و(الولد) و(الأبناء) تشمل الجنسين دون تمييز، وأن هذه الدلالة تعني أن الله عز وجل قدر في شرعه الحكيم تكافؤ الجنسين في ميزان الحياة، وميزان العمل، أعني: تقدير كل منهما تقديرًا متساويًا عندما يقوم كل منهما بما خلقه الله عز وجل له.

والعجيب أنه في الوقت الذي يساوي فيه شرع الله، وتجمع فيه كلمات الله عز وجل بين الذكر والأنثى، فلا تجعل بينهما فرقًا في الاعتبار، ولا تجعل للجنس أثرًا في تقبل العمل والمجازاة به، نجد أن الإنسان الضعيف المخلوق يضع من التشريعات والقوانين ما يفسد فيه شرع الله الحكيم، ويفسد بالتالي في الأرض التي أصلحها الله، ويضطر لذلك أن ينظر إلى المرأة نظرة تختلف عن نظرته للرجل، ويبني على هذه النظرة الخاطئة نظريات وقوانين يتصرف على هدي منها. ومع مرور الأيام والسنين، تصبح هذه القواعد والنظريات، التي شرعت خطأ، عادات وتقاليد راسخة في حياة الناس، ومن عجب أن كثيرًا من الناس بعد ذلك من الأجيال اللاحقة ينسبونها إلى الإسلام، فيقولون إن القرآن الكريم فرق بين الرجل والمرأة، أو امتهن المرأة، وجعلها طبقة دنيا لا ترقى إلى مستوى الرجل السيد، والإسلام من كل ذلك براء، والدين ينكر ذلك كل الإنكار.

يدل على هذا الذي نقول ما صورته آيات القرآن الكريم من دلالة لكلمة (البنات) ولكلمة (البنين) في استعمال العرب ومعتقداتهم في العصر الجاهلي، هذه المعتقدات التي امتد كثير منها حتى الآن في القرن الحادي والعشرين على الرغم من أنّ نزول القرآن الكريم ينفي ذلك ويبين في آياته نظرته المتكافئة إلى الذكر والأنثى، وإلى الأولاد والأبناء.

وردت كلمة (البنات) نكرة ومعرفة ومضافة إلى الضمير سبع عشرة مرة في آيات القرآن الكريم. وعدا بعض الآيات التي ورد فيها تعبيرات

تصور حالات اجتماعية عادية، مثل بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك وبنات الأخ وبنات الأخت، وردت كلمة (بنات) تصور إحساس العرب بمهانة البنت وأنها أقل شأنا من الرجل، حتى إنهم كانوا يجعلونها لله ويجعلون لهم البنين اعتقادًا منهم بأن البنات لَسْنَ في منزلة البنين، يقول الله سبحانه في الآية ٥٧ من سورة النحل: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ وتعبير (ولهم ما يشتهون) يدل على أنهم لا يشتهون البنات، ولا يرحبون بهن. ومن المعروف بأنهم كانوا، في بعض القبائل والبيئات، ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾. وليس حديث أصرح من هذا البيان القرآني في تصوير البيئة العربية ونظرتها إلى البنت، أو إلى الأنثى. كان الرجل يشعر بالخزي والعار أمام قومه إذا ولدت له أنثى، ولذلك هو أمام خيارين إما أن يمسكها على هون، أي يتقبلها على ذلة ومهانة واستكراه، وإما أنْ يدسها في التراب ويتخلص منها، وهذا ما حكم الله عز وجل عليه بأنه حكم سيئ، وتصرف مشين..

ولقد كان وأد البنات معروفًا في الجاهلية، وهو دفن البنت حية في التراب، تخلصًا منها ومن شرها -في زعمهم- ومن ذلها. وقد صورت سورة التكوير هذه الجريمة في قوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ نعم بأي ذنب؟ إنه لا جواب عن هذا السؤال سوى أنها أنثى، وأنها بنت. ويحاول بعض المفسرين أو الدارسين اليوم أنْ يقلل من حدوث هذه الجريمة في الجاهلية، ويقول إنها حدثت في نطاق ضيق، وأنا أقول ربما كان الأمر كذلك. ولكن حديث القرآن عنها يدل على أنها كانت موجودة فعلا، وإذا كانت ظاهرة واسعة منتشرة أو ضيقة محدودة، فإنها على كل حال تدل على شعور اجتماعي معين تجاه ولادة البنت، وأنها أمر غير مستحب، ولا يستقبل بالترحاب والسرور كما يستقبل الولد الذكر، وهذا الشعور الاجتماعي عام عند كل الناس سواء كانوا ممن يئدون البنات أو ممن لا يفعلون ذلك، ولكن

الجو العام هو كذلك، وهذا ما أكدته الآيات القرآنية من سورة النحل. وتفيض الكتب والدراسات السابقة واللاحقة في عرض القصص والأمثلة والحوادث التي تدل على تمييز العرب بين البنين والبنات وعلى تفضيل الولد على البنت. وليس من مهمة هذا العرض الموجز عرض الأمثلة، بل هو يعرض الفكرة، ويذكِّر الأخوة القراء إنْ أرادوا بحث هذه المسألة بحثًا علميًا موثقًا محكمًا، فإن ذلك ميسر لهم في المصادر والمراجع، ولكن الفكرة الموجزة – الآن- قد تغني عن البحث المفصل.

ومن العجيب أنّ هذه النظرة القاتمة للبنت قد ولّدت شعورًا عكسيًّا باحترام طبقة من النساء، كأنّ الأمر لا يسير على قاعدة رضا الناس أو سخطهم بل هو أوسع من ذلك. إن امتهان البنت في الجاهلية قد جعل المجتمع ينظر إلى نوعين من النساء: النساء الحرائر اللواتي يتمسكن بطهرهن وعفتهن والنساء المظلمات اللواتي يقترفن المنكرات والفواحش، وكن يرفعن أعلامًا خاصة على بيوتهن ليستدل عليهن من أرادهن. ونشأت نتيجة ذلك طبقة الإماء والجواري والخدم وكانت عادات الغزو الجاهلية تفرز السبايا والإماء أيضًا. وهذا كله كما ترى من صنع الناس وليس من دين الله القويم الذي لم يفرق منذ البداية بين (الأولاد) ذكورًا كانوا أم إناثًا، ولم يفرق بين (الذكر) و(الأنثى) من حيث المنزلة الإنسانية.



﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾

الناس إذن هم الذين فرقوا بين البنت والابن في المنزلة والمكانة والاعتبار الاجتماعي، وآيات القرآن عندما تؤكد ذلك تدل دلالة قاطعة على أن الدين لم يفرق بينهما في هذا المقياس أبدًا. ويستحيل على المرء منا أن يفهم الأمر على غير هذا الوجه؛ إذ كيف تشنع الآيات القرآنية موقف الناس من ولادة البنت، ومن وأد البنات، ثم يحتمل أن يكون الدين الذي تمثله تلك الآيات مفرقًا بين الولد والبنت، هذا أمر بعيد وفهم غير سديد لآيات القرآن الكريم، وما زال عند الناس بقية باقية من هذا التمييز غير المقبول بين البنت والابن منذ العصر الجاهلي.

ما زلنا نرى عند كثير من الناس الآن استقبالا فاترًا لولادة البنت، واستقبالا حاشدًا لولادة الابن الذكر، إنّ صوت الزعاريد يختفي إذا كانت المولودة أنثى، على حين هو يرتفع ويشع في وجوه النساء إذا كان المولود ذكرًا. وأذكر أن أسرةً صغيرة كان عندها ثلاث بنات كالزهور اليانعة، وكانت الأم تنتظر مولودها الرابع، فعندما كان (ولدا) ما كنت تسمع من كل الناس المحيطين بالأسرة، النساء والرجال، الداخلين والخارجين، المهنئين والمباركين، سوى كلمة (ولد) ولد، ولد، ولد. صباحًا ومساء .. ليلا ونهارًا لا تسمع البنات الصغيرات، أخواته، من الناس، سوى كلمة ولد.. ولد.. ولد. حتى ظنت البنت الصغرى أن اسم أخيها ولد. إن هذا الموقف هو بقية من الإحساس الجاهلي الذي يفرق بين البنت عند الولادة وبين الولد وليس هو من صنع الدين، ولذلك يبقى الحكم قائمًا بأن آيات الله عز وجل لم تميز بين الذكر والأنثى، ولا بين الأولاد من الجنسين.

واستمرارا لبيان هذه الصورة نحدق الآن في عرض القرآن الكريم لكلمة (بنين) في مقابل كلمة (بنات) التي عرضناها في السطور السابقة. ومن العجيب، وربما من المفاجئ لكثير من الناس، وبخاصة المهتمون بالدراسات القرآنية، أن كلمة (بنون) في القرآن الكريم خاصة بالذكور من الأبناء دون البنات، مع أن الذي يتبادر إلى الذهن في الوهلة الأولى أن (البنين) تشمل

البنات والأبناء من الجنسين. وكثير من الناس عندما يقرؤون الآية (٤٦) من سورة الكهف ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ يظنون أن الكلمة تشمل الأبناء جميعًا من الذكور والإناث. إن هذا الذي يتبادر إلى الذهن عند قراءة هذه الآية الكريمة، هو الشعور الفطري الصافي الصحيح الذي يجب أن يكون عليه الإنسان، وهو حكم الدين، وهو تفسير آيات القرآن الكريم عندما يتدبر المرء آيات القرآن الكريم بوعي وفهم. إن آيات القرآن في استعمال كلمة (بنون) بصيغها المختلفة قد أكدت أن المقصود بها هو الذكور من الأبناء، وهذا تصوير دقيق لعادات جاهلية غير محمودة، وغير مقبولة في مقياس الدين؛ فقد كان الناس يستقبلون الولد الذكر استقبالا حافلا، وكان الرجل يفتخر بزيادة عدد أبنائه الذكور، ويعد ذلك من مفاخره ومن سؤدده، ومن مظاهر سيادته وزعامته لقومه. انظر في الآيات الكريمات من سورة المدثر، التي تتحدث عن مصير الوليد بن المغيرة المخزومي (والد خالد بن الوليد) الذي كان مكابرًا معاندًا لآيات الله، معتزًا بماله وولده الذين بلغوا عشرة أو أحد عشر على اختلاف الروايات، وهو الذي قال: (إن محمدًا أبتر، غدا ينتهي وينتهي عقبه)، أي أن محمدًا – عليه الصلاة والسلام- ليس له ولد وسوف ينتهي ذِكره بعد موته. يقول الله عز وجل في الآيات ١١–٣٠ من سورة المدثر: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴾ إلى آخر الآيات الكريمة. فالبنون الشهود هنا هم أبناؤه الذكور الذين كان يعتز بهم ويفتخر، ولكنهم ذهبوا معه، وذهب ذكرهم، وبقي ذكر رسول الله ﷺ خالدًا أبد الدهر، ويقول الله عز وجل في ذلك، مشيرًا إلى قول هذا المعاند المكابر: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ والشانئ هو هذا المعاند المكابر. فالبنون في العرف الجاهلي هم الذكور من الأبناء، وهم الذين كانوا يزينون الحياة كما يعتقد الناس. انظر في قوله تعالى في سورة آل عمران، الآية ١٤ ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ

ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾

فهذه الأمور إذا هي متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب. فليس من أحكام الله عز وجل أن يعتز المرء بأبنائه الذكور دون الإناث. ولكن الإنسان يخالف عن أمر الله كثيرًا، ويصطنع له أحيانًا أحكامًا وقواعد ما أنزل الله بها من سلطان. وهذا استعمال حقيقي هنا لهذه العبارة التي تشيع على ألسنة الناس؛ أن (البنين) في القرآن الكريم هم الذكور فقط، وهم محور اهتمام الناس في العصر الجاهلي، وفي كل عصر يتخذ هذه الفكرة أساسًا لتصرفاته.

هذه آيات سورة القلم من ١٠-١٦، تصور تصويرًا دقيقًا عقيدة الناس التي تعتز بالأبناء الذكور فقط، يقول الله عز وجل في التعريض بزعيم آخر من زعماء الجاهلية، من المتجبرين العتاة الذين يعتزون بأموالهم وأبنائهم، وهو أبو جهل، عمرو بن هشام، يقول سبحانه: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۞ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۞ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۞ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۞ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۞ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ هذه آيات القرآن الكريم تنطق بالحق، وتصور عادات الناس وتصرفاتهم الفاسدة أحيانًا، وتبين بوضوح صراط الله المستقيم، وحكمه الثابت الصادق في كل ما يأمر به وينهى عنه.



﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾

هذا مطلع سورة النساء، السورة الرابعة من سور القرآن الكريم، يقول الله عز وجل فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ ومصطلح «الرجال» و«النساء» هما المصطلحان الشائعان في هذه المسألة التي نحن بصددها منذ بعض الوقت. الرجال والنساء لفظان متقابلان في كلام الناس دائمًا، وهما -لو علمت- لفظان متكاملان وليسا متقابلين إذا أخذنا المفهوم اللغوي للتقابل وهو شيء من التعارض أو الاختلاف، ويقال أيضًا الرجل والمرأة، وهما كذلك لفظان شائعان كالماء والهواء، فما الرجل؟ وما المرأة؟ وما الرجال وما النساء؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة وفق ما أراده الله عز وجل من دلالاتها هو جوهر مسألة العلاقة بين الرجل والمرأة في حكم الدين، وتلاحظ أن الآية الكريمة قالت:﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾ أي من الزوجين، ولم تقل: وبث منهما ذكورًا كثيرًا وإناثًا، ثم لاحظْ أنه جل شأنه وصف الرجال بالكثرة، ولم يصف النساء بذلك، ولعل في هذه الصفة دلالات عميقة ينبغي أن نبحث عنها.

والرجال جمع رجل، وهو جمع تكسير كما يقول النحاة، أي ليس جمع مذكر سالمًا. وفي معاجم اللغة، الرجل: الذكر البالغ من بني آدم، يقال: هذا رجل كامل في الرجال بين الرجولة والرجولية، وهاتان صفتان تعنيان كمال الصفات المميزة للرجل..

وجمعه رجال ورِجْلة، وجمع الجمع رِجالات، يقال: هو من رجالات القوم وأشرافهم. والذَّكَر كما مرّ بنا قبلُ هو خلاف الأنثى.. وعند الأنثى قالت المعاجم: هي خلاف الذكر، وهذا فيما أرى ليس تعريفًا شافيًا كاملا، وأريد أن أتساءل هنا، ولعلك تتساءل معي، وتعينني على الإجابة: ما الفرق بين الذكر والرجل؟ أقول (وهذا فهم من واقع اللغة): إنّ الذكر يدل على أصل الجنس الإنساني، وكذلك الأنثى. والذكر مأخوذ من الذِّكر بكسر الذال

وأصل المادة اللغوية ذكر الشيء يذكره ذِكْرًا وذَكرًا وذكرى وتذكارًا، أي حفظه واستحضره وجرى على لسانه بعد نسيانه..

فالذِّكْرُ هو الحفظ في الأساس، فكأن الذكر بفتح الذال والكاف هو مادة حفظ النوع الإنساني، فكل مولود يولد فهو ذكر أو هو أنثى، وبين هذا الذكر وهذه الأنثى تكون الزوجية، ومنها تمتلئ الدنيا رجالا كثيرًا ونساء، فلا زوجية دون ذكر وأنثى، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ ولكن الله عز وجل قال: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾.. كأنما يقول الله عز وجل بالإيحاء الموجز والبيان المعجز: إن الذكور والإناث الذين هم أصل الزوجية لا ينجبون الرجال والنساء إلا إذا كبروا وصاروا رجالا ونساء، فليس كل ذكر رجلاً، بل الرجل هو من تجاوز سن الطفولة إلى الشباب والقوة، وصار قادرًا على الزواج، وهو كما قالت معاجم اللغة: الذكر البالغ من بني آدم، وهو تعريف دقيق، فهو الذكر البالغ، فإذا لم يصل إلى البلوغ فهو ذكر، وقد يسمى الطفل المولود لساعته ذكرًا، بل إنّ شهادات الميلاد تضع كلمة ذكر أو أنثى عند خانة الجنس، ولا تضع كلمة رجل وامرأة، فهما يدلان على شيء بعد الطفولة يكون، ولذلك يقول تعالى: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ . وهذه الكلمة الأخيرة «النساء» جمع لا مفرد له من لفظه فليس في اللغة كلمة مفردة منها، ولذلك نقول: الرجل والمرأة، ونقول: الرجال والنساء مع أن كلمة «امرأة» التي شاع أنها الفتاة المتزوجة عند الناس يمكن أن تكون غير متزوجة، ولكنها متأهلة للزواج، أي غادرت سن الطفولة، ووصلت حدّ البلوغ الذي يمكِّنها من الزواج، قال الله عز وجل في شأن ابنتي شعيب – عليه السلام– مع سيدنا موسى عليه السلام في آية «٢٣» من سورة القصص:

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾

وهاتان المرأتان كانتا غير متزوجتين في تلك اللحظة، وقد تزوج سيدنا موسى عليه السلام (إحداهما)، كما تبين آيات سورة القصص، ولكن لفظ

«المرأة» لا يطلق إلا على الفتاة الكبيرة، المتزوجة أو التي بلغت سن الزواج، وليس لهذه اللفظة جمع من جنسها، فالمرأة مفرد جمعه نساء، والنساء جمع مفرده امرأة أو مرأة، ويقول بعض علماء اللغة: إن للنساء مفردًا ولكنه غير مستعمل، ويشيرون إلى مفرده في اللغة العبرية تعني امرأة، والعبرية لغة سامية كالعربية، ولكن هذا لا يلغي الحكم بأن النساء في العربية جمع لامفرد له في الاستعمال القائم الآن، ولذلك نحن نتعامل مع الألفاظ وفق دلالاتها القرآنية، فالرجال والنساء لفظان متداولان في القرآن الكريم، والرجل والمرأة كذلك..

وقد قلنا قبل قليل: إن القرآن الكريم فرَّق بين لفظ الرجال ولفظ الذكور، فالذكور هم أصل الزوجية، وهم عنوان استمرار النسل، ولكن ذلك لا يكون إلا بفعل الرجال والنساء، إذ هم البالغون القادرون على تحقيق شرع الله عز وجل وسنة نبيه في إتمام صورة الزوجية الحقيقية المنتجة، وفي استعمال القرآن الكريم لكلمة «رجل» و«رجال» تحس بعنصر القوة المقصودة لهذه الكلمة، يقول الله عز وجل في آية ٢٣ من سورة الأحزاب: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ﴾ ويقول تعالى في آية ٣٧ من سورة النور: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾. وكذلك تشعر أن القرآن الكريم جعل دلالة خاصة لكلمة «زوج» ولكلمة «امرأة» ولكلمة «نساء»..

فالرجال إذن هم الطبقة الفاعلة من الذكور؛ لأن الذكر تطلق على كل مولود منذ ولادته حتى وفاته، ولكن مرحلة ما في هذه الطريق تعد مرحلة الرجولة، فكأن كلمة «الرجل» حملت معنى القوة والإرادة العاقلة والتدبير، ولذلك نرى القرآن الكريم يستعمل كلمة «رجل» في المهمات التي تحتاج إلى وعي وتدبير وعقل وحزم وتخطيط وإرادة. انظر إلى قوله تعالى في آية من سورة يونس: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ وهل يوحي الله عز وجل إلا إلى رجل شديد قوي حازم يملك إرادته، ويمكن أن

يقود الناس؟ وانظر في قوله تعالى من الآية ٢٨ من سورة غافر: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾. ولقد كان المشركون من رجال قريش يعرفون هذا المعنى اللغوي وهذه الدلالة لكلمة رجل، فكانوا يرون أن الرجل تساوي عندهم العظمة والسيادة، ولذلك عندما اعترضوا على نبوة محمد ﷺ كانوا يريدونها لرجل عظيم منهم، يقول تعالى في تصوير هذا الموقف في آية ٣١ من سورة الزخرف:﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾. ويقول تعالى في الآية ١٥٥ من الأعراف: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾. وفي سورة المائدة الآية ٢٣ يقول الله عز وجل: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ والذين يخافون الله هم الذين يدركون ويحسنون تقدير الأمور..

ولعل سائلا يعترض فيقول: إنّ العرب كانت تصف القوي بأنه ذكر؛ فيقولون مثلا: هذا سيف ذكر، وهذا فحل ذكر. وهذا صحيح، ولكن لذلك دلالة مرتبطة بشيء يسبقها، ولعل فيها إشارة بعيدة إلى إحساس العرب بشكل عام بأن الرجل أو أن الذكر أقوى من الأنثى، بدنيًّا وجسمانيًّا فوصفوا به ما يرون أنه قوي شديد. ولكن القرآن الكريم رسم دلالة واضحة للكلمتين: الذكر والرجل، فالذكر هو الدائرة الأوسع والرجل هو الدائرة الأقل اتساعًا من الدائرة الأولى. وحمَّل الرجل المسؤولية. وأما النساء فهو اسم جمع لامفرد له من جنسه كما رأينا، وكان استعمال القرآن الكريم لكلمة النساء استعمالا عامًا بمعنى النساء المتزوجات أو اللواتي في سن النساء المتزوجات أو اللواتي في سن الزواج أو اللواتي فقدن أزواجهن بالموت أو بالطلاق، وفي آيات معدودات قليلات، من ثمان وثلاثين آية وردت فيها كلمة النساء في القرآن الكريم يمكن أن يفهم من الكلمة أنها تعني المرأة بشكل عام، أي أنها تشمل الفتيات الصغيرات، أو تشمل الأنثى بشكل عام. وهذا يفهم من قوله تعالى في الآية ١١ من سورة النساء﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾. ومن المعروف أن هذا

الحكم من أحكام الميراث يتعلق بالمرأة أيًّا كان سنها، حتى لو كانت وليدة. ويفهم أيضًا من قوله تعالى في الآية الأخيرة من سورة النساء: ﴿ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾. وهذا من التراكيب العجيبة في القرآن الكريم، وقد يتساءل امرؤ عن الفرق بين الرجال والنساء وبين الذكور والإناث، ولماذا لم يقل سبحانه وتعالى في الآية السابقة «وإن كانوا إخوة ذكورًا وإناثًا فللذكر مثل حظ الأنثيين»؟ أليس هذا عجيبًا ومثيرًا للتساؤل؟! ويمكن أن يقال -والله أعلم بمراده- إن الذكر والأنثى لفظان عامان في كل الأجناس وكل المخلوقات الحية..

فالذكر هو الذكر في كل المخلوقات، وكذلك الأنثى هي الأنثى، وفي عالم الإنسان تكون الأنثى امرأة، وتكون الإناث نساء، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾، فالنساء في القرآن الكريم تدل بوجه عام على النساء المتزوجات، اللواتي صنعن مع أزواجهن بيوتًا. وهن في الغالب نساء محصنات عفيفات طاهرات، فكلمة النساء ترد في المعاني الطيبة، يقول تعالى في الآية ٤٢ من آل عمران: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. ويقول تعالى في الآية ٢٤ من النساء: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ويقول تعالى في الآية ٣٢ من الأحزاب: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾، ويقول تعالى في الآية ٣١ من سورة النور: ﴿ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾. فالنساء إذن هن مكونات البيت الأساسية؛ هن اللواتي تقوم بهن الحياة، هن لبنة الأسرة وقاعدتها. فالمرأة كلمة عامة قد تكون زوجة وقد لا تكون، والأنثى كلمة عامة في كل المخلوقات الحية، أما النساء فهن عنصر الحياة في البيوت التي تقوم على سنة الله ورسوله. ولذلك وردت مع كلمة النساء كل أحوال المرأة، وكل ما يعرض لها في حياتها الزوجية. فقد وردت مع كلمة «النساء» أحكام الحيض ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾، وأحكام الطلاق ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ

﴿ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ ﴾. وأحكام الخِطبة قال تعالى في الآية ٢٣٥ من سورة البقرة: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾.

وكذلك وردت مع «النساء» أحكام الميراث، وأحكام الزواج وأحكام الحياة الأسرية بكل تفاصيلها. وفي مقابل «النساء» كان القرآن الكريم يذكر «الرجال»، فكل علاقة تتم بين الزوجين إنما تتم بين الرجال والنساء، ولذلك سمى القرآن الكريم الرجل زوجًا وسمى المرأة زوجًا، وهما زوجان. وقد عرَّف العلماء الزوج بأنه كل شيء يقترن بآخر من جنسه ليكمله ويتم بهما وظيفتهما في الحياة. وفي معاجم اللغة: كل شيئين اقترن أحدهما بالآخر فهما زوجان، ولذلك فإن البحث في مسألة الرجل والمرأة في ميزان القرآن يجب أن يبدأ وينتهي فيما لكل منهما من حقوق وواجبات في نطاق الزوجية التي أقام الله عز وجل عليها بناء الكون كله، فقد قال الله عز وجل في الآية ٤٩ من سورة الذاريات: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾. وقال تعالى في الآية ٢١ من سورة الروم: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً ﴾. وقد مرّ بنا حديث مطول عن دلالة هذه الآية الكريمة.



﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ ﴾

فإذا تبينت لنا دلالة الذكر والأنثى، وأنهما أصل الإنسان الإنساني، وأنهما عند الله عز وجل متكاملان يصنعان الزوجية التي هي أساس الوجود الإنساني. وأن كلمة (زوج) تطلق على الذكر وعلى الأنثى سواء بسواء، فإننا ننتقل الآن إلى مناقشة كلمة (ولد) وجمعها (أولاد)، وهل في هذه اللفظة ما يشعر بالفرق بين الذكر والأنثى في المنزلة والمكانة؟.

فأقول: إن كلمة (أولاد) ومفردها كلمة (ولد) وردت في القرآن الكريم بمعنى جنس الولد، بما فيه الذكر والأنثى، وليس هي كما يتبادر إلى الذهن تعني الأولاد الذكور دون الإناث، وهذا مما يثير الدهشة، ويشتد له العجب، وبخاصة عند من لم يقرأ القرآن الكريم قراءة تدبر وتفهم. فأولاد الرجل هم أولاده من الذكور والإناث. وهذا في الحقيقة هو معناها الاجتماعي الشائع في بلاد الشام عامة، وربما في كل الوطن العربي.

فأنت عندما تقول مثلا: إن الأولاد أوصوني في البيت على كذا وكذا، فإنك لا تعني البنين دون البنات، بل تعنيهم جميعًا. وعندما يحمل الرجل همّ مصروف (الأولاد)، فإنه يعني أولاده من البنين والبنات جميعًا. اقرأ الآن الآيات الكريم التالية، وانظر كيف أنها تجعل الأولاد تشمل الجنسين جميعًا دون تمييز:

- قال تعالى في سورة النساء، الآية ١١: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾.

- وفي سورة (المنافقون)، الآية ٩: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾.

- وفي سورة الأنعام، الآية ١٥١: ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ ﴾.

- وفي سورة آل عمران آية ١١٦: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ

وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا ﴾.

- وفي سورة البقرة، آية ٢٣٣﴿ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾.

وهذه الآيات تدل يقينًا على أن (الأولاد) يقصد بها جميع أبناء الرجل من البنين والبنات. وكذلك كلمة (ولد) في القرآن الكريم، وقد وردت ثلاثًا وثلاثين مرة، فإنها تعني (ولد) الإنسان من البنين والبنات دون تمييز في الجنس، وهذه الآيات الكريمات تدل على ذلك.. تدبر قول الله عز وجل:

- في سورة النساء الآية ١١: ﴿ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞ ﴾.

- وفي سورة مريم، الآية ٣٥: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ ﴾.

- وفي سورة يوسف، الآية ٢٥: ﴿ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ﴾.

- وفي سورة لقمان، الآية ٣٣: ﴿ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾.

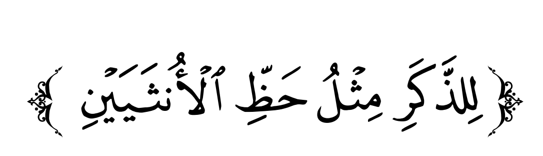
وهكذا ترى أن (الولد) في القرآن الكريم هو مطلق الجنس، في التعبير عن الأبناء، ومن البديهي أن يكون كل ما يحس به الإنسان، وما يتصرفه نتيجة هذا الإحساس، يساوي فيه بين أولاده، بنين وبنات، فالوالدة ترضع ابنها أو ابنتها بالحنان نفسه، والرغبة نفسها، والثدي نفسه، والأب يسعى في طلب رزق أولاده، ويرعاهم ويعطف عليهم ويحميهم، فهم إذن في قلوب والديهم سواء. وما أعلم آية قرآنية أو حديثًا شريفًا نصَّ على غير هذا المعنى..

ولا يغيب عن بال القارئ أن تفاوت البنات والبنين في الأعمال والمهمات لا يعني أبدًا تفاوتهم في المكانة والمنزلة، وأظن – ولله الحكمة البالغة– أن مساواة الأولاد في القرآن الكريم، وعدم التمييز بينهم دليل يقينيّ على أن

الإسلام يريد من كل من يحمله ألاّ يفرق بينهم في الأهمية والمكانة والمنزلة. هذا شرع الله عز وجل، ونحن نعلم أن القرآن الكريم قد وضع كل كلمة في مكانها، وجعل لكل تركيب دلالته، ولكل كلمة معناها، في سياقها، وأنه لا تغني فيه كلمة عن غيرها، فكلمة الأولاد في القرآن الكريم تعني أولاد الرجل المباشرين، أما كلمة (أبناء) فإنها تعني الأبناء المباشرين، ومن قبلهم حتى يصل إلى بدء الخلق أو منتهاه، فنحن نقول: (بني آدم)، ونقول: أبناء أمتنا العربية، ونقول: حقوق الأبناء على الآباء، ونعني بذلك أبناء الأمة بشكل عام على آبائهم. وقد استخدم القرآن الكريم كلمة (أبناء) بهذا المعنى العام، فقال تعالى في الآية ٦١ من سورة آل عمران: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾.. وقال تعالى في الآية ٢٤٦ من سورة البقرة: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾.

ويلاحظ أن (الأبناء) هنا أيضًا تجمع البنين والبنات، وهذا يعني أن أساس النظرة، ومبدأ التعامل مع (الأولاد) ومع (الأبناء) أنهما شيء واحد، لاميزة لأحد على الآخر بجنسه بينما يمكن أن يمتاز أي منهم بعمله، أو بالقيام بما أنيط به من مهمات وفق التنشئة التي فطره الله عز وجل عليها، وخلقه من أجلها.




﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾

﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾

(١)

ومن الألفاظ التي لا بد من بحث دلالتها القرآنية عند الحديث عن مسألة الرجل والمرأة في ميزان القرآن: ألفاظ الأخ والأخت والبنت والزوجة والزوج، وقد تحدثنا بشيء من التفصيل عن كلمتي الابن والبنت من قبل وقلنا هناك إن القرآن تحدث عن الابن والبنت على أنهما متكافئان في المكانة الاجتماعية، ولم يفضل القرآن أحدهما عن الآخر بشيء..

وقد جعل القرآن للابن والابنة والأبناء بشكل عام دلالتين: الأولى أنهما بمعنى الأولاد المباشرين لوالديهما، والثانية دلالة عامة على كل الأبناء دون تخصيص والد أو والدة فعلية، كقوله تعالى: ﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾. والابنة في الإسلام في رعاية والدها رعاية شرعية واجبة، لها عليه حق تعليمها وتربيتها والإنفاق عليها وحمايتها ورعايتها ما دامت عنده، فإذا انتقلت إلى وضع اجتماعي آخر كأن تصبح زوجة فقد صارت في رعاية زوجها فيما لها من حقوق وعليها من واجبات. وإذا لم يكن للابنة والد يرعاها كأن يكون متوفى أو غير أهل لذلك، لسبب ما، فإن أخاها يرعاها رعاية شرعية، وإلا فرعايتها واجبة على أقرب رجل يمتُّ لها بقرابة شرعية. وهذا يدل على أن البنت، والمرأة بشكل عام في أحوالها كلها، أمًّا وبنتًا وأختًا وزوجة، هي جوهرة مكنونة وهي مصونة صيانة الكفاية والتكافؤ مع إخوتها أو أخواتها، لا رعاية العجز والضعف.

إن الإسلام لا يتخلى عن (المرأة) طوال حياتها، وهي تكتسب هذا الحق من الدين دون منّ أو أذى من أحد، ولعل هذا ليس موجودًا في أي تشريع غير الإسلام. وقد يروعك أن تعلم أن غير الإسلام يفرض على الرجل أو على الأب والأم أن يتخليا عن أبنائهما بعد أن يبلغوا سن الرشد، فالفتاة والفتى

يتصرفان بحرية شخصية تامة وليس لوالديهما، أحدهما أو كليهما، أي سيطرة عليهم، لا سيطرة أدبية ولا حقوقية ولا رسمية. وقد قابلت ذات سنة رجلا مصريًا استحوذ على الجنسية السويدية وولد له ولد سمَّاه (طارق)، ونشأ طارق بفضل الله على الإسلام على الرغم من أن أمه سويدية غير مسلمة، وعندما رغبت في رؤية طارق مرة أخرى بعد أن صلينا الجمعة معًا في عاصمة السويد، قال لي أبوه بأسى: إنه لا يعيش معه، وإنما استدعاه قبل يومين لكي يعرّفه علينا، ثم أردف يقول: إنه لهذا السبب اكتفى بهذا الولد وعمل على ألا ينجب غيره، خشية أن ينجب ابنة لا يستطيع أن يربيها تربية إسلامية، ولا يطيق أن يراها على غير ذلك..

إن وضع الأبناء (بنين وبنات) في العادات الأجنبية غير الإسلامية أمر معروف، تكفي الإشارة له عن التفصيل. أما في الإسلام فالبنت مصونة في رعاية والدها إلى أن تتزوج. وقد حرص الإسلام على حقوق البنات كما حرص على حقوق البنين، وقد نص الإسلام على حقوقها في التعليم والتربية والتنشئة وفي كل شيء، وبعد أن يتوفى الأب جعل الإسلام لابنته نصيبًا مفروضًا في الميراث. ومن يتدبر آيات الميراث يجد أن الله عز وجل جعل نصيب الفتاة أو البنت هو الأساس الذي يقاس عليه توزيع الأنصباء أو الحصص، تدبر قوله عز وجل في سورة النساء آية (١١): ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾. وإنك لتجد ذروة البيان ولطائف التعبير في هذا التدبير الإلهي؛ فقد بيَّن الله عز وجل حق (الأولاد) ذكورًا وإناثًا في أموال أبيهم، ولئن تقدم الذكر في اللفظ فإن نصيبه يقدر بنصيب أخته، للذكر نصيب أختين. وقد تسرع بعض البسطاء فظنوا أن هذا ظلم للبنت، كيف تأخذ نصف نصيب أخيها، ولو أنهم ترووا في الحكم لوجدوا أن الفتاة تأخذ في مجموع ما تأخذه أكثر مما يأخذ أخوها على الرغم من أنه يتكفل بها في غياب والده، وهي غير مكلفة به. وهي مكفولة بكفالة زوجها عندما تتزوج، وبكفالة أبنائها عندما تكبر وتصبح أمًّا. وللفتاة نصيب وهي

ابنة وزوج وأم، وأيضا وهي أخت في كثير من الأحيان، ولذلك فإن نصيبها مع إخوتها من والدهم نصيب كاف، يحفظ لها حقها الإنساني، وفيه كفاية وزيادة. هذا في حكم القرآن الكريم، أما في أيامنا هذه وفي مجتمعاتنا المعاصرة فقد ظلمت الفتاة ظلمًا بيِّنًا، فكثير من الأبناء يحرمون أخواتهم من الميراث المفروض لهن. ويستولي الأخوة الكبار أو الأخوة الذكور، أو الأخ الأكبر على ميراث والده، ويحرم أخواته، ويعطي إخوته بعض الشيء. ويتساهل كثير من الناس في حق اللّه في الميراث، فيظنون أن الأمر يؤخذ ببساطة وبسذاجة، فيخرج الرجل التاجر الغني من صندوقه حفنة من الدنانير ويعطيها للفقراء، ويقول: هذه زكاة مالي، أو يعطي إخوته مبلغًا بسيطًا من المال ويقول: هذا نصيبك من الميراث، ويستولي على الباقي، وبعضهم يتمتع في أموال الأيتام ويتنعم فيها بحجة أنه يقوم برعايتها وتنميتها حتى إذا كبر اليتيم أعطاه جزءًا يسيرًا مما له، وكل ذلك حرام. وقد نبه القرآن الكريم على كل هذه الأمور، وشدد على آكلي أموال الأيتام، وآكلي ميراث إخوتهم، وآكلي الربا، وآكلي السحت، وقد فصّلت آيات القرآن ذلك كله ببيان ووضوح، مما يمكن الاستشهاد به في حينه وفي مواضعه..

ولكنا الآن مع البنت أو الأخت في أحكام الإسلام وفي ميزان القرآن، ونقول: إن القرآن الكريم حمى الرجل والمرأة كليهما من كل ظلم، وأقام التشريع على الكمال والحق، ولكن الإنسان هو الظلوم لنفسه، الذي أفسد في الأرض بعد إصلاحها بدين اللّه وبمنهاج الإسلام.

ولو أن كل فرد منا حقق أحكام اللّه وشريعته في كل شيء، وبخاصة في أحكام المال لما احتاج إنسانٌ غيرَه، ولما ظلم إنسانٌ غيرَه، ولعاشت الأسرة، كما يريد لها اللّه عز وجل؛ أسرة كريمة آمنة مطمئنة، مكتفية بما قسم اللّه لها، محققة شرع اللّه فيها من سكينة ورحمة ومودة.

﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾

(٢)

الميراث إحدى الركائز الأساسية في النظام الاقتصادي الإسلامي، وهذا النظام الاقتصادي خيط في نسيج متكامل هو الإسلام، والمسلم عندما يتحدث عن دينه، يدرك أنه يتحدث عن نظام متكامل متوازن شامل، فإن دعته دواع خاصة للحديث عن جزء من هذا الدين فإن ذلك يكون بقصد التوضيح لهذه الحقيقة الجزئية التي هو يدرك تمامًا وهو يتحدث عنها أنه جزء من كل في نظام متسق، يشبه ذلك المعلم الذي يتحدث عن عناصر العمل الأدبي، فيتحدث عن الأفكار والعاطفة والتصوير والتعبير والتحليل والشرح ليكون لدى المتعلم قاعدة ينطلق منها لتذوق العمل الأدبي المتكامل..

أقول هذا لأني أجد بعض الناس، إما عن جهل وإما عن غرض، يناقش في جزئيات صغيرة من حقائق الإسلام، كما لو أن هذه النقطة هي الإسلام كله، فتجد بعض الناس – مثلا- تتورم أنوفهم عندما يقرؤون قول الله عز وجل، في سياق آيات الميراث ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾. فيشتدون في الهجوم على الإسلام بحجة ظلمه للمرأة ومحاباته للذكر، وينسون ما سبب هذه الكلمات، وما لحق بها من حقائق النظام المتكامل في الميراث، ولو أن امرأ درس الميراث دراسة متكاملة، ونظر إليه نظرة شاملة، وربط بينه وبين حقائق الحياة الاجتماعية، وصورها الواقعية، التي تتكرر في حياة الناس كل يوم، في سيرة الحياة المستمرة، لوجد أن نظام الميراث نظام إلهي محكم يحقق مصلحة الرجل والمرأة، ويلبي حاجة كل منهما على حد سواء. ولقد قام أحد الباحثين الجادين، والمهتمين بوعي وفهم لحقائق الدين، وهو الدكتور محمد عمارة، بدراسة لقضايا الميراث، أقامها على الحقائق الاجتماعية الواقعية في عدد من الأسر، فوجد أن المرأة في معظم حالات

الميراث تأخذ أكثر من الرجل، وأن نظام الميراث الإسلامي لو أنه نفذ على حقيقته، وعلى صورته الشرعية الدقيقة لما وجدنا – في الغالب– أسرًا فقيرة معدمة في مقابل أسر شديدة الثراء تعيش في رغد من العيش؛ لأن المسافة الشاسعة بين أسر لا تجد إلا كسرة من الخبز الناشف تبلها بشيء من الشاي طوال الأسبوع، وأسر ترمي في المهملات من أطايب الطعام ما يكفي لعدد من الفقراء، إن هذه المسافة إنما كانت بسبب التقصير أو الخطأ أو الإعراض عن تطبيق شرع الله في تقسيم الميراث، وفي إخراج الزكاة، وفي دفع الصدقات، والله عز وجل يقول إن في أموال الأغنياء حقًا معلوما، أي حقًا محددًا مقررًا للسائل والمحروم، هذا الحق المقرر المعلوم يبخل به، ويضن بدفعه نسبة عالية جدًا من الناس، ممن هم مكلفون بدفعه، ومسؤولون عن البخل به، ولقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن أول ما يضيعه الناس من حدود الله هو الميراث، ولقد صدق رسول الله عليه الصلاة والسلام، فإن النسبة الغالبة من الناس – هذه الأيام– لا تحتفل أصلا بأحكام الله وشرعه، وإن النسبة الغالبة من الناس الذين يحرصون على اتباع الإسلام والتمسك به، تقصر في إخراج الميراث وفق شرع الله، ولعلكم تشاهدون في سياق الحياة اليومية من يوزع الميراث وفق هواه، فيعطي هذا ويحرم هذا، ويعطي الرجل ويحجب المرأة، فإن أعطاها فشيء قليل رفعًا للضغط النفسي والاجتماعي.

والتشريع الإسلامي ينبغي أن يُنظر إليه نظرة متكاملة، وأن يؤخذ كله دينًا واحدًا متكاملا شاملا لكل ما يعترض الإنسان من مسائل في كل شؤون حياته العامة والخاصة، فإذا أخذ المرء نقطة واحدة، ونظر إليها نظرة جزئية فإنه قد يقع في الخطأ، وربما وصف الدين بالقصور أو التناقض عن جهل عند بعض الناس أو غرض. من ذلك في مسألة الميراث – مثلا– أن يقول أحدهم: إن الإسلام يظلم الجد الهرم عندما يحجبه عن ميراث حفيده؛ لأن الأب يحجب الجد، فإذا توفي رجل وله أب وجد فإن الأب يحجب الجد (أباه) عن ميراث حفيده. ولكن هذا القول المتسرع ينسى

أن هذا الأب الذي ورث ابنه هو وماله لأبيه، من هذه القاعدة الأساسية في الدين أرجو أن يكون الفهم والتفسير والحكم بكتاب الله عز وجل. والسنة النبوية الشريفة كانت المثل الأكمل لفهم كتاب الله والعمل به. وعليه فإن كل امرئ في الإسلام يأخذ حقه الذي له، ويؤدي واجبه الذي عليه، فلا يظلم رجل امرأة، ولا شاب شيخًا، ولا فرد مجتمعًا، ولا مجتمع فردًا. فإذا نظرنا الآن إلى قوله عز وجل في الآية (١١) من سورة النساء ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ فينبغي أن نكون على يقين وثقة بأن الله عز وجل شرع للذكر وللأنثى ما يجعل حياته هنيئة مستقرة..

والحق أن الآية الأولى من آيات الميراث تؤكد للإنسان أن الله عز وجل أكد حق المرأة توكيدًا ثابتًا في أخذ ما لها من مال، وتدبروا في قول الله عز وجل في الآية (٧) من سورة النساء: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾.وفي هذه الآية عدة مسائل: منها هذا التكرار لجزء من الآية، وكان يمكن أن يكون القول: (للرجال وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون)، وبخاصة أننا نعلم أن الإيجاز سمة من سمات القرآن الكريم، واللغة العربية بشكل عام، وفي القرآن مئات المواطن كان الحذف فيها أبلغ من الذكر كما يقول عبد القاهر الجرجاني. وهذا درس واضح في البلاغة العربية، فما بال هذه الآية الكريمة تركت الإيجاز وأعادت القول نفسه للرجال وللنساء ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ و ﴿ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾؟ أو ليس في هذا تأكيد على حق الرجل وحق المرأة؟ ثم انظر إلى قوله تعالى في الآية نفسها: ﴿ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ﴾ حتى لا يستهين الناس بالقليل فيتجاوزوه ويهملوه؛ فقد قدم (ما قل) على (ما كثر) للتوكيد عليه والاهتمام به؛ لأن القلة والكثرة نسبية، فقد يكون الدينار الآن قليلا ولكنه

كان أو يكون في وقت آخر كثيرًا ذا قيمة، ثم انظر إلى قوله تعالى في الآية نفسها ﴿ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ فهو نصيب لا شك في ذلك، وهو مفروض من الله عز وجل فيجب أن يؤدى. والفرض الإلهي دين وتشريع لا بد من أدائه وإلا فإن الإنسان يهدم دينه إذا قصر بحق أو بأمر من أوامر الله. ثم لاحظ أن الله عز وجل قال هنا (للرجال) و(للنساء)، وفي الآية الأخرى قال ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾.والذكر كلمة أعم من الرجل، لأن في الرجل معنى من السلوك والشدة والقوة والعمل قد لا يكون في كل ذكر، وكذلك في المرأة معنى عملي اجتماعي قد لا يكون في كل أنثى. وحتى لا يتجرأ امرؤ على حق الله في تجاوز بعض الأولاد ممن لا يكون (رجلا) في عينه، عاملا أو منتجًا، أو لا تكون (امرأة) ذات شأن، قال تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾.



﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ ﴾

من الكلمات المضيئة في القرآن الكريم، وكل ما في القرآن ضوء ونور، كلمة (الوصية) وما يشتق منها. ويظن كثير من الناس أن (الوصية) لاتكون إلا من إنسان متوفى أو هو على وشك إدراك ذلك. ولكن القرآن الكريم بيَّن لنا أن الوصية هي تفاعل مستمر بين الناس، ينصح بعضهم بعضًا لعمل الخير، وهي منهج اجتماعي يصنع القوة والوحدة والتماسك والتعاون بين الناس، ولعل معناها الشائع بين الناس، وهو ما يوصي به المرء للناس الذين يخافونه ويرثونه هو أقل معانيها استعمالا في القرآن الكريم.. انظر إلى قول الله عز وجل: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾، وإلى قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾. والله عز وجل يوصي أنبياءه بشرعه الحكيم لينشروه في الناس، قال تعالى في سورة الشورى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾. والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يوصون أممهم ويوصون أبناءهم باتباع تعاليم الدين، وبطاعة الله عز وجل، سيدنا يعقوب عليه الصلاة والسلام يوصي أبناءه بالإسلام، وكذلك سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام يوصي أبناءه بالإسلام، قال تعالى في سورة البقرة الآية (١٣٢): ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

ينبغي الإشارة هنا إلى أن القرآن الكريم استخدم كلمة (الوصية) فيما يوصى به الإنسان لمن هم بعده، إلى وجوه الخير أو إلى من يرغب بالتوصية إليهم ببعض ماله. أما التوصية باتباع الخير ومبادئ الدين، وحسن التعامل والتفاعل في شؤون الحياة فقد ورد في جميع الأفعال (وصّى) و(أوصاني) و(تواصوا) وغيرها. ولعل في استخدام المصدر (الوصية) في التعبير عن ما يوصى به المرء إلى من بعده دليل على أهمية الحديث، وعلى الربط بين الحياة والآخرة، وأنه عليه أن يترك بعض ماله في وجوه الخير، وإلى بعض أهله من

ذوي الأرحام أو الفقراء أو المحتاجين، أو ذوي الفضل من الناس الذين يقضون أعمارهم في إقامة المشاريع الخيرية والعمل فيها أو الإشراف عليها. ومن عجيب أسرار التعبير القرآني في موضوع الوصية أن الله عز وجل قدم تنفيذ الوصية على الدين، فقال تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ﴾ وهذا مقطع من آية طويلة في تفصيل أحكام الميراث في الشرع الإسلامي. فبعد أن فصلت الآيات القرآنية أحكام الميراث من الرجل لأبنائه ولزوجه ولأبويه جاء هذا المقطع الذي يتقدم فيه ذكر الوصية على الدَّيْن، على الرغم مما يعرفه جميع الناس من اهتمام الإسلام بسداد الدين وحثه عليه، إلى الحد الذي كان فيه رسول الله ﷺ يسأل أهل المتوفى إنْ كان عليه دين أم لا، فإن كان عليه دين لم يصلّ عليه إلا إذا تكفل أحد أقاربه أو معارفه بأداء ما عليه من دين، على الرغم من ذلك تقدم ذكر الوصية؛ ذلك لأن الوصية لا تجد أحدًا يطالب بها. ومن المعروف أن المرء ضعيف في حق نفسه، فلا يعقل أن يطالب الموصَى له بحقه، وهو في معظم الحالات قد لا يعرف أنه ممن أوصى لهم. أما الدين فإن صاحبه يطالب به بقوة وبيان، لأن لصاحب الحق مقالا. وهذا أيضًا من أسرار النفس الإنسانية، ومن أساليب البيان القرآني الذي يقدم المعاني الظاهرة والأسرار الباطنة في أداء قرآني فريد.

قلت: إن هذه الآية الكريمة تتحدث عن جانب من جوانب تشريع الميراث في الشريعة الإسلامية في سورة النساء، حيث تفصيل شؤون الميراث في الإسلام، إن هذه الآيات تتحدث عن الميراث، وعن أصحاب الفروض والعصبات وأولي الأرحام، ونصاب كل منهم، وعن علاقة كل منهم بالآخر، ونصيب كل منهم مقارنة بالآخرين، وإنك ترى فيها الأرقام الصحيحة والكسور والحصص بتدبير حسابي دقيق، في إطار آيات القرآن الكريم التي بلغت ذروة الإعجاز في الأداء والنظم، فهو الإعجاز في التشريع، والإعجاز في البيان، ولكي يدرك المرء أي إعجاز تتحدث عنه هذه الآيات الكريمة فليحاول أن يعبر تعبيرًا أدبيًّا عن مسألة حسابية فيها تقسيمات وتفريعات

متنوعة، إذنْ لأدرك سقم محاولته، وسمو البيان القرآني. وإلا فكيف يمكن أن يدخل السدس والثلث والنصف والربع في سياق معجز خالد في بيانه وفصاحته..

ثم إن تشريع الميراث نفسه فيه دلائل شاهدة على سموّ هذا الدين وكماله وعظمته. وفيه دلالة على عظمة الخالق عز وجل وكمال تشريعه. أقول هذا ردًا على ملاحظة أحد الناس البسطاء عندما قيل له إن الجد لا يرث بوجود الأب، وإنّ ابن الابن لا يرث بوجود الابن، فقال: إنَّ هذا التشريع يظلم الجد المسن الهرم. ولبيان ذلك نفرض أن رجلا اسمه محمد عبد الكريم حسن قد توفي فإن والده السيد عبد الكريم يرثه، وإن جده السيّد حسن لا يرثه، وهذا في تصور بعض الناس البسطاء ظلم، وقد نسي هؤلاء أن الولد وما يملك لأبيه، وأن رعاية الابن لوالده واجبة، فإذا ورث أب عن ابنه شيئًا فإن هذا الأب موكل بالإنفاق على والده أيضًا، وهذا من تكامل الشرع الإسلامي الحنيف. ولذلك ينبغي أن ينظر إلى الإسلام نظرة كاملة شاملة، ولا ينظر إليه نظرة جزئية؛ لأن في ذلك ظلماً للإسلام نفسه.

والحق أنّ في تشريع الميراث أسرارًا عظيمة ينبغي أن يفصل فيها القول. ولكني هنا أريد أن أشير إلى لطيفة دقيقة في هذه الآية الكريمة ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ ﴾ وتلاحظ أن الوصية تقدمت على الدين في الآية الكريمة، ذلك أن الوصية لا تجد من يطالب بها، ولا تسمح النفس بالمطالبة بها، أما صاحب الدين فإنه يطالب بدينه كما مر قبل قليل، ومن هنا صارت عادة بعض الناس في تحمل ديون المتوفى أمام مشهد في الناس قبل دفنه. فعلى الرغم من أهمية الدين في الإسلام، فقد تقدمت عليه الوصية لأن الموصي يعلم من الحقائق والأسرار ما جعله يوصي بها. ولذلك يجب إنفاذ الوصية على وجهها الصحيح.

وقد تكررت الوصية في القرآن الكريم ثماني مرات، قال تعالى:

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ﴾ ، وقال تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ﴾، وقال تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾،وقد أمرنا الله عز وجل بالوصية وجعلها من سمات المسلم الحق ألا ينام إلا ووصيته مكتوبة؛ حفاظًا على حقوق العباد، وذلك من تمام نعمة الله عز وجل على عباده، ومن دلائل كمال شرعه ودينه عز وجلّ.




﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾

بعد الجولات السابقة مع عدد من المصطلحات التي تتعلق بالرجل والمرأة نصل إلى مصطلح (الأم) وهو أشهر مصطلح في مجال حياة الإنسان الأسرية. تحدثنا من قبل عن مصطلحات: الذكر والرجل والأنثى والمرأة والزوجة، وسوف نعود إن شاء الله إلى هذا المصطلح الأخير (الزوجة) لأنه الأصل والقاعدة في هذه الدراسة..

وقد وردت كلمة (أم) مجردة ومضافة إلى الضمائر ثلاثًا وثلاثين مرة، تراوحت بين صيغ (أم) و(أمك) و(أمه) و(أمها) و(أمهاتكم) و(أمهاتهم). ومن العجيب واللافت للنظر أنها وردت في سبعة عشر موضعًا بمعناها العام، أي غير المختص بفرد أو أفراد معينين، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾. وورد تعبير (أم الكتاب) ثلاث مرات وتعبير (أم القرى) مرتين. أما الجديد في الاستعمال القرآني لكلمة (أم) أنها لم ترتبط بصفة شخصية إلا بسيدنا موسى عليه السلام وسيدنا عيسى عليه السلام، فجاء تعبير أم موسى مرتين، وأمك (والضمير لموسى عليه السلام) مرة واحدة، وكذلك (أمه).. قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ في سورة القصص الآية (٧). وقال تعالى في سورة طه الآية (٣٨): ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾. وقال تعالى: ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ (القصص ١٣)..

وأما مع عيسى عليه السلام فقد ورد في سورة (المؤمنون) كلمة (أمه)، حيث قال تعالى في الآية ٥٠: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾. وتستعمل كلمة (أم) في القرآن الكريم عندما تكون الفكرة عامة تشمل كل الناس، حتى في آية سيدنا عيسى عليه السلام، كان الحديث عنه عليه السلام

كإنسان مثل بقية الناس؛ له أم، كما هو شأن كل الناس، أما عندما كان الحديث خاصًا به استعمل القرآن الكريم تعبير (والدتي) حيث قال تعالى في الآية ٣٢ من سورة مريم: ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾.

واستعمل تعبير (والدتك) حيث قال تعالى في الآية ١١٠ من سورة المائدة: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾. ولم تسند كلمة والدة إلى أحد إلا إلى سيدنا عيسى عليه السلام، وفي هذا دلالة قرآنية لطيفة وهي أن مريم عليها السلام هي والدته، وليست والدة غيره. أما الأم فهي ذات دلالة عامة فهي تكون إما لواحد أو أكثر من الأبناء والبنات. وتستعمل أيضًا كلمةً عامة في الأمهات دون تحديد أم بعينها، وكذلك (الأب) و(الآباء)؛ فالأب هو والد أيضًا، ولكن الوالد مثل الوالدة، يستعمل عندما يكون الأمر مختصًا بالأولاد المباشرين المكلفين برعاية والدهم وطاعته، أو الواقعين تحت رعاية والديهم، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾. أما الأب فيحمل معنى الوالد المباشر، ويحمل معنى الأب بشكل عام، ولذلك قال تعالى في سورة الأحزاب الآية ٤٠: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾. وقال تعالى في الآية ٢٤ من سورة التوبة: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾، والأبناء هنا والآباء تدل على عموم، وليست كالوالدين والأولاد. ومهما يكن من أمر فالأم أو الوالدة هي ركن أساسي من أركان الأسرة، كالأب تمامًا.

وعندما كان القرآن يحث المرء على رعاية والديه، لم يكن يفرّق بينهما، فعندما قال القرآن الكريم: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾.كان يعني الوالد والوالدة. وليس في الأمر الإلهي تمييز أو محاباة لأحدهما عن الآخر، وإن كان ثمة عناية ورعاية مميزة فهي للأم دون الأب؛ لأنها أكثر حاجة إليها.

ونعلم جميعًا الحديث النبوي الشريف الذي يوصي برعاية الأم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول

اللّه، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: (أمك)، قال: ثم من؟ قال: (ثم أمك)، قال: ثم من؟ قال: (ثم أمك)، قال: ثم من؟ قال: (ثم أبوك). والعرب كانوا يدركون ذلك بالفطرة السليمة؛ فلو سألت أي امرئ تصادفه عن الأحق بالرعاية من الأولاد، لقال لك: الآباء؛ أي الأم والأب، فإن سألت: فأيهما الأحق بالرعاية؟ لقال الأم..

وتروي روايات الطرائف أن رجلا كان يطوف حول الكعبة ويجهر بالدعاء: اللهم اغفر لأمي، اللهم اغفر لأمي.. يرددها ويكررها، فسأله سائل: ولِمَ لا تستغفر لأبيك؟ قال: إنّ أبي يحتال لنفسه. إنه اعتراف فطري بالحاجة إلى رعاية الوالدين، وبخاصة الأم، ولم يدر في خلد مخلوق أو في ذهن مسلم يومًا أن اختصاص الأم بالرعاية يجعلها أفضل من الأب، أو أن قدرة الرجل على خدمة نفسه في معظم الأحيان أكثر من زوجه تجعله أفضل منها. إن الفطرة السليمة – كما ترى- تتوجه بالرعاية إلى من يحتاجها دون غيره من غير مساس بكرامة أحد أو تفضيل أحد.

فلماذا –إذن- يحاول بعض الناس أن يجعلوا الرجل أفضل من المرأة؟ لعل بعض الناس يخطئ في فهم قول اللّه عز وجل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، وما ذاك إلا لطبيعة في الرجل جعلته أكثر قدرة على القيام بهذا الأمر دون المرأة؟ وسيرد تفصيل وتحليل لهذه الآية بعد هذا، وسنلتقي أيضًا مع الأب والأم والوالد والوالدة، وما لهما في آيات القرآن الكريم.




فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ

﴿ فَأَنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾

(١)

يرتعد كثير من الناس عند قراءة هذه الآية الكريمة الثالثة من سورة النساء: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾. ولو أن الناس أقاموها مقامها، ودرسوها في نطاق أحكام الزواج وشروطه وواجباته وحقوق الزوجين أحدهما على الآخر، وموقف الناس من فكرة الزواج بوجه عام، وسنة النبي ﷺ في أحكام الزواج، لو عرف الناس كل ذلك، لصار الأمر طبيعيًّا عاديًّا لا يثير أي تساؤل أو خلاف أو اعتراض. وفي هذه الآية الكريمة بحوث واسعة تحتاج إلى كتب لتفصيلها وبيان أحكامها، ولكن هذه الدراسة تفتح أبواب البحث، التي أرجو أن ينهض لها العلماء والباحثون ليكملوا الدراسة وليجيبوا عن الأسئلة التي تثيرها..

ومن الأسئلة التي تثار في هذا السياق ما النكاح وما الزواج وما الفرق بينهما؟ وهل الأمر الإلهي ملزم لكل فرد، أم هو على سبيل التخيير، أم هو مقيد بحدود وشروط؟ وفي غير هذه الدراسة يمكن أن يسأل عن معنى ملك اليمين، وعن العول وأحكامه في الفقه الإسلامي، وعن ارتباط الآية باليتامى، وكل هذه علوم واسعة أرجو أن نأخذ منها ما يتصل بدراستنا هذه عن مسألة العلاقة بين الرجل والمرأة في ميزان القرآن الكريم، وقد ورد في القرآن الكريم مصطلح (الزواج) ومصطلح (النكاح)، وأرى أن مصطلح الزواج عام، وكلمة (زوجية) تشمل كل ما خلق الله، وكذلك كلمة زوج، فهي تشمل عوالم الإنسان والنبات والحيوان، وما لا نعلمه من خلق الله، وفي وصف الجنة يقول الله عز وجل: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾. بل إن الزوجية تمتد إلى الآخرة بعد الدنيا، يقول الله عز وجل في الآيات ٥٥- ٥٨ من سورة

يس: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ۞ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۞ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۞ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾..

وفي معاجم اللغة: زوج الأشياء تزويجًا وزواجًا قرن بعضها ببعض، وزوّجه امرأة جعله يتزوجها، وتزوج امرأة اتخذها زوجة، والزواج: اقتران الزوج بالزوجة أو الذكر بالأنثى، والزوج: كل واحد معه آخر من جنسه، ويطلق كثيرًا على الذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾. أما النكاح فهو في التحليل اللغوي الصورة العملية للزواج بين اثنين، الذكر والأنثى.

في معاجم اللغة نكحت المرأة تنكح (بفتح الكاف في الماضي وكسرها في المضارع)، نكاحًا تزوجت، فهي ناكح وناكحة، ونكح المرأة تزوجها، وأنكح المرأة زوجها، قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾.وأنكح فلانًا المرأة زوَّجه إياها. واستنكح المرأة طلب أن يتزوجها، واستنكح في بني فلان تزوج فيهم، والناكح المتزوج والمتزوجة، والنكح (بكسر النون) الزوج، يقال: هو نكحها وهي نكحته، وهذا يدل على أن النكاح أمر خاص فيما يكون بين الرجل والمرأة، أو بين الذكر والأنثى كأثر من آثار الزواج. وتلاحظ أن الفاعل في كل الأفعال التي أوردتها المعاجم هو الرجل، كأن الرجل هو الذي يبادر إلى طلب المرأة، وهذا أمر طبيعي معقول؛ لأن المرأة من طبيعتها أنها تُطلب، وهي تحب أن تكون مطلوبة، ولذلك عندما تُطلب تصمت حياء دليلا على الموافقة وبخاصة إذا كانت بكرًا، أما إذا كانت ثيبًا فقد تعلن موافقتها وهي في الحالين مطلوبة ومرغوب فيها.

وأصل النكاح هو العلاقة الخاصة بين الذكر والأنثى ثم اتسع وصار دليلا على الزواج، وأرجو أن أبين حقيقة قرآنية لطيفة وهي أن النكاح يكون أثرًا للزواج الصحيح، أما ما كان عن غير هذه الطريق فهو ليس نكاحًا وليس زواجًا، بل هو زنى صراحًا، أما فعل الأمر فهو ملزم للإنسان ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾. والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «يا معشر الشباب، من

استطاع منكم الباءة فليتزوج». والباءة هي القدرة على النكاح وعلى الزواج، ولكن شرع الله الحكيم الذي أمر بالزواج، وألح عليه لم يحرّم عدم الزواج لمن لم يستطعه لظروف خاصة به، وهذا أمر نادر جدًا، ولكنه قد يكون..

وفي أيام الناس هذه التي بدأت العادات والتقاليد تتحكم في حياة الناس، فتؤثر في تيسير أسباب الزواج للفتيان والفتيات فكثر من يعزف عن الزواج، أو صار يتأخر الشاب في سن الزواج حتى صار من المعروف المألوف ألا يتزوج الشاب إلا بعد أن يبلغ الثلاثين، وإلا بعد أن تبلغ الفتاة قريبًا من ذلك، وفي هذا فساد اجتماعي كبير. ولنبدأ عرض المسألة من أولها لننظر في كمال التشريع الإسلامي، ولنتأكد من أن كل خلل في المجتمع يكون أثرًا لعدم فهم الناس أمور دينهم، وحكمة شرع الله الحكيم.

ينظر الإسلام إلى النكاح على أنه ضرورة اجتماعية، وحاجة فطرية أودعها الله عز وجل جسد الرجل والمرأة وأقام بها نظام الحياة، وحفظ النسل، وطريق التكاثر والاستمرار، ومن الطبيعي أن نتعامل مع هذه الغريزة، أو مع هذه الحاجة الفطرية كما نتعامل مع غيرها من الحاجات الإنسانية الفطرية الطبيعية، فالأكل مثلا حاجة طبيعية وقد فكر الإنسان على أنه لا بد له من أن يأكل ويشرب وهو يبدأ طعامه وشرابه منذ ولادته، يبدأ طعامه وشرابه من ثدي أمه، وأمه أحرص ما تكون على غذائه، ثم يستمر في ذلك، والمرء عندما يتناول طعامه وشرابه لا يلومه أحد، ولا ينتقده أحد، وهو حر في أوقات طعامه وكمياته وأنواعه. وإذا امتنع الإنسان عن طعامه وشرابه -لو تصورنا أن ذلك يمكن أن يكون- لهلك في يومه، لأن الله عز وجل فطره على هذه الفطرة، وإذا كانت غريزة الطعام والشراب تنشأ مع الإنسان منذ ولادته وربما قبل ذلك، فإن غريزة النكاح تنشأ مع المرء منذ بلوغ سن الرشد، وقد جعل الله عز وجل لجسد الإنسان، رجلا كان أو امرأة، علامة طبيعية لبلوغ سن الرشد، يعرفها الرجال وتعرفها النساء. ومن المفروض أن يبدأ إرواء هذه الفطرة منذ ظهورها عند الإنسان، لأن لله عز وجل حكمة بالغة في ذلك، وهذه فكرة تحتاج إلى فضل شرح وبيان.

﴿ فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾

(٢)

يقول الله عز وجل في الآية السادسة من سورة النساء: ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾. ويقول الله عز وجل في الآية ٥٩ من سورة النور: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾. وبلوغ النكاح في اللغة هو بلوغ سن الرشد، وسن الحلم الذي عنده يمكن للرجل والمرأة أن يبدآ الحياة الزوجية، وهذا معناه أن الرجل والمرأة كليهما يكونان في هذه السنّ قادرين نفسيًّا وجسديًّا وماديًّا على تبعات الزواج وتكاليفه، وهذه السن تختلف من بيئة إلى بيئة، ويؤثر فيها الطقس والنوع الإنساني كثيرا.. ومن المعروف أن سن الرشد، أو بلوغ المرء أشده وفق التعبير القرآني، يتقدم في المناطق الحارة وعند الشعوب السمراء على غيرها من المناطق، وعلى غيرهم من الأمم.

فإذا فرضنا أن سن الرشد أو أمارات البلوغ تبدأ في الظهور عند النساء وهنَّ في سن العاشرة أو بعدها بقليل أو قبلها بقليل أحيانًا عند شعوب المناطق الحارة، فإنها قد تتأخر عن هذا الموعد عدة سنوات في المناطق الباردة، وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد أن شعوب المناطق الباردة، التي تحكمها العادات ولا اعتبار عندها لأحكام الدين، تسمح بالاتصال بين الفتى والفتاة، أو بين الذكر والأنثى وهما لا يزالان في سن الطفولة المتأخرة، أي في حوالي العاشرة أو فوقها بقليل، ولا سلطان للأبوين على «أطفالهما» إن ساروا في هذه الطريق، على حين نجد شعوب المناطق الحارة والمعتدلة، ومنها شعوب العالم العربي والإسلامي يتأخرون في سن الزواج كثيرًا عن هذه السن؛ وذلك بسبب الظروف الاجتماعية التي لا تسمح للفتى والفتاة أن يَلِجَا عش الزوجية قبل أن يستعدا لذلك ماديًّا واجتماعيًّا، وهذا الاستعداد

تتدخل فيه تقاليد وعـادات وأعـراف اجتماعية وقيم مستوردة، ونظم اجتماعية ومناهج غير قويمة، تجعل الشباب والشواب «البنات» وجهًا لوجه، يكبرون وتكبر معهم أحاسيسهم وقدراتهم وهم لا يملكون لأنفسهم شيئًا سوى الصبر والتأمل وانتظار الفرج، وما أقسى الانتظار وأشد خطره!..

وهذه مسألة هامة وقاعدة أساسية في النظر إلى مسألة الرجل والمرأة في ميزان القرآن. إن الرغبة في الجنس الآخر حاجة فطرية تنشأ مع الإنسان، ثم تظهر وتنضج ويصبح لها تأثير كبير فعال في تصرفات المرء عندما يبلغ أشده.

وإذا كان المرء غير منطلق من أحكام دينه، فإنه يفتح الباب على مصراعيه لنفسه تفعل ما تشاء، فتقع في المحظورات والمحرمات وتنشأ عن ذلك مشاكل اجتماعية، وصحية ونفسية، والرجل والمرأة في ذلك سواء.

والأمر الأشد خطورة في هذا الانحراف عن الدين في أمر الزواج بين الفتى والفتاة، هو أن كليهما يقضي هذه الفترة الحرجة الخطيرة من سن السابعة عشرة إلى الثلاثين في صراع مع نفسه، وفي تفكير متصل بصاحبه، يترجم في خياله الصورة التي يراها بعينه، ويحرم من الوصول إليها وفق شرع الله وسنة رسوله، ولذلك فإننا لا يمكن أن ننتظر من الرجل إبداعًا وتميزًا في حياته، لأن فكره مشغول وعقله معطل وقدراته موجهة إلى زاوية واحدة، وإن شئت فقل إنها معطلة؛ ذلك لأنه يقاوم سيلا جارفًا من مشاعره المتفجرة في جسده، وقل مثل هذا عن الفتاة.. وفي الشرع الإسلامي يؤمر الفتى بأن يتزوج حال وجود الباءة، وهي استطاعة الزواج من الناحية النفسية والمادية، ولكن هذه الاستطاعة كانت ميسورة عندما كان ينظر الناس إلى تحقيق الأهداف السامية والوصول إلى النتائج الكبيرة، كانوا يزوجون ابنتهم إلى الشاب الذي يأتيهم وقد شهد له الناس بسمو الأخلاق وكمال الدين..

والرسول ﷺ يقول: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض». رواه الترمذي في سننه وأحمد بن حنبل في مسنده. وروى البخاري ومسلم كلاهما في صحيحه في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة – رضي الله عنه– عن النبي ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك». وإذا تدبرت هذين الحديثين الشريفين تجد فيهما صلاح المرء وسعادته في الدنيا والآخرة، وفيهما صلاح المجتمع، في الحديث الأول يقول الرسول ﷺ: «إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض». وهذا الفساد العريض واقع الآن لأننا لا نفعله، واقع على أسوأ ما يكون الفساد الاجتماعي والخلقي، انظر إلى ملفات المحاكم وقضاياها تجد أن الزواج الذي لا يقوم على أسس من النظرة الواعية إلى أحكام الدين غالبًا ما ينتهي بالفشل، فإن لم ينته بالفشل فإنها تكون حياة فاسدة بين الزوجين، تملؤها المشاكل والصراعات، وما يتخلل ذلك من اعتداء على الأعراض وعلى الحقوق وعلى المجتمع، وما يتبع ذلك من فساد اجتماعي عريض.. إن الرسول ﷺ يقول بإيجاز: «إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير». وقد بيَّنت قبل قليل أن الرغبة المتفجرة في جسد الشاب والفتاة لا تنتظر أحكام الناس الجائرة بالصبر حتى (يكوّن) الفتى نفسه مما يفرضونه عليه من مطالب ينوء بها معظم الناس. ولم يقل الرسول عليه الصلاة والسلام: من ترضون ماله، ولا من ترضون سمعة عشيرته، ولا من ترضون وظيفته، ولا من ترضون سمته وشكله، بل قال: من ترضون دينه.. ولا أعني بذلك أن المرء يتنكر لأهله ولعشيرته ولنفسه فلا يصلحها، ولا يعتز بقبيلته، إن هذا فهم خاطئ؛ بل على المرء أن يكون متمسكًا بدينه ثم ليكن بعد ذلك من يكون من أبناء العشيرة أو من ذوي المال، أو المنصب. إن الدين هو أساس الحكم والنظر والقبول؛ لأن صاحب الدين هو الذي يسعد المرأة بخلقه ومعاملته وبدينه، ولعمري لو ملك الرجل مال الدنيا كلها، ولم يكن من ذوي الأخلاق والاتزان

لما استطاع أن يسعد زوجته، وبالقَسَم نفسه أقول: لو كانت الفتاة على عرش الجمال لما استطاعت أنْ تسعد زوجها إن لم تحفظ عرضه بدينها وعفتها. ولو كان الرجل قائدًا للجيوش والأساطيل العريضة ولم يكن مطمئنًا إلى عفة بيته فإنه يظل مهزومًا ذليلا بينه وبين نفسه، في الوقت الذي يشعر فيه الرجل بالقوة والثقة والسعادة إذا كان مطمئنًا إلى أن باب بيته لا يُفْتح في غيابه، وأن زوجه تصون عرضه وسمعته وشرفه، ولو كان يعمل في حراثة الأرض أو في حراسة العمارات.

إن الالتزام بالدين يمنح الإنسان الاطمئنان واليقين، فإن تزوج الفتى والفتاة في سن الزواج الطبيعية انصرف كل منهما إلى البناء وإلى الإنتاج، وإلى التفكير وإلى العمل بقلب ثابت ونفس مطمئنة، وجسد متزن قوي، وفكر صاف، وتدبير كامل، أما إذا لم يكن المرء كذلك فإنه يصرف ذهنه في الأوهام، ويهلك البناء والعمل والتفكير، ولذلك لا تجد في هذه السن مع هذه الظروف إبداعًا يذكر أو إنتاجًا مطردًا، ولو قارنت بين شباب المسلمين اليوم، وشبابهم في عصور الإسلام الزاهرة لوجدت الفتيان من ذوي الأسنان الصغيرة، سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة كانوا قادة لجيوش الفتح، وكانوا سادة في العلم والبحث، اقرأ إن شئت سيرة محمد بن القاسم الذي وصل إلى الصين مجاهدًا، وأقسم أن يطأ أرضها وترابها، وعندما سأله رسول إمبراطور الصين عن هدفه وعن جيشه قال له: جئتكم بجيش أوله عندكم وآخره ما زال ينسل من جزيرة العرب، فارتاع ملك الصين، وصالحه ووافق على شروطه، وذلك مفصل في كتب التاريخ الإسلامي المشرق، واقرأ سيرة المثنى بن حارثة الشيباني، وسيرة أسامة بن زيد الذي قاد جيشًا كان من جنوده أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، فأي جيش هذا وأي قائد هذا، واقرأ سيرة المهلب، وسيرة سعد، وسيرة الآلاف من فتيان المسلمين في الحروب وفي العلوم، وفي البحث، اقرأ سيرة ابن حجر العسقلاني الذي جلس للإفتاء في المسجد الحرام وسنه خمس عشرة سنة، اقرأ هذه السير

وانظر إلى شبابنا اليوم، كيف يقضون أوقاتهم في ضياع وفي اضطراب، إننا يجب أن نوفر لشبابنا الإمكانات ليسلكوا الطريق القويم، وألا نطالبهم بشيء ندفعهم دفعًا إلى نقيضه.

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾

(٣)

كان الناس في المجتمع الإسلامي الأول ينظرون إلى مسألة الزواج نظرة واقعية موضوعية، وتعاملوا معه على أنه حاجة فطرية في النفس، وأن على المرء أن يتزوج حال وجد القدرة على ذلك، ولم تكن القدرة مقيدة بقيود العادات والتقاليد البعيدة عن روح الإسلام، ومبادئه السامية. ولو أنك أجريت دراسة عن فئة من الصحابة -مثلا- ورصدت سني زواجهم، وأعمار زوجاتهم، لوجدت أن تسعين في المئة من تلك الحالات كانت أسنانهم فيها لا تتجاوز سن العشرين؛ لأن نداء الجسد عند الرجل والمرأة يشتد في هذه السن، ولا بد من تلبيته، وقد شرع الله عز وجل لنا سبل تلبيته بالطرق السليمة، والأخلاق المستقيمة، وهي الزواج الشرعي الصحيح.

وفي كتب الفقه، وكتب التفسير، وكتب شروح الحديث الشريف، تفصيلات وافية لشروط الزواج وأحكامه. ولكن هذه الدراسة تتحدث عن الأمر بشكل عام، دون الدخول التخصصي في الموضوع، ولذلك نقول إن الرجل والمرأة كان كل منهما يبحث عن نصفه الآخر، عن شريك حياته، لتبدأ حياتهما المشتركة التي بها تستقيم الحياة وتستمر.

وكان الرجل إذا توفيت زوجه لا يتردد أن يتزوج غيرها، وكان الرجل إذا فسدت العلاقة بينه وبين زوجته يسرحها بإحسان، فيغني الله عز وجل كلا من سعته..

وفي تشريع الطلاق في الإسلام حكمة ربانية بالغة، ومصدر لراحة الإنسان وحلول بعض المشكلات العارضة، هذه الحكمة وهذه الحلول لاتكون إلا في الإسلام، ومرة أخرى أقول: إن تفصيل ذلك في كتب الفقه، ولكن أؤكد على أن الذي يشرع الطلاق -في أضيق الحدود- هو الذي شرع الزواج في

أوسع أبوابه؛ ذلك لأن الزواج إذا قام على أسس واعية سليمة فإنه غالبًا سيستمر وينتج أسرة طيبة وأبناء طيبين، أما إذا لم يستمر فإن تشريع الطلاق يعني أن شيئًا خاطئًا كان في البداية عندما تم الزواج، أو أن شيئًا قد حصل لم يكن ظاهرًا عند الزواج، والحل هو أن يتخذ الزوج طريقًا آخر، وتأخذ الزوجة طريقًا أخرى، وقد دلّت بعض الدراسات أن أكثر الذين يتزوجون مع أطراف أخرى بعد الطلاق ينعمون بالسعادة والاستقرار.

وفي التاريخ الإسلامي مئات الشواهد على استقامة الزواج عندما يتم وفق شرع الله، وعلى أن الرجل تزوج مرة أخرى عندما فقد زوجه، وأن المرأة تزوجت مرة أخرى عندما فقدت زوجها. وكانت المرأة لا تجد حرجًا في أن تتزوج إذا مات عنها زوجها، أو إذا طلقها لسبب من الأسباب، كانت لا تجد حرجًا ولا يجد كثير من الناس حرجًا في ذلك، كانت سمة طبيعية في المجتمع، ذلك أن المرأة إذا مات عنها زوجها أو طلقها، وكانت صغيرة السن، فإن الأفضل لها أن تتزوج، فإن كان لديها أطفال، صاروا في حجر زوجها الجديد، الذي يرعاهم كأنهم أبناؤه، هذا في الفهم الصحيح. وعندئذ تنصرف الزوجة إلى رعاية زوجها الثاني، وينصرف الرجل إلى رعاية زوجه، وتنشأ أسرة جديدة، وأبناء جدد، وتستمر الحياة، وتمضي المرأة في بيتها الجديد، آمنة مطمئنة، سعيدة هانئة، أما إذا لم تتزوج كما يحدث في مجتمعاتنا المعاصرة غالبًا، فإنها تعيش حياة ضنكًا نظرًا لسوء نظرة الناس إليها إن تزوجت. وهي في الوقت نفسه لا تسلم من سوء ظنهم إن لم تتزوج، وهذا عيب كبير في المجتمع الذي يحكم على المرأة بالشقاء النفسي، والكبت والحرمان.

كان الزواج أمرًا عاديًا، حاجة فطرية كالطعام والشراب، يتم دون تعقيد، ودون سوء ظن، ودون تفسير حاقد أسود كما نسمع اليوم ممن يرمون المحصنات الغافلات إن فكرت إحداهن بالزواج بعد وفاة زوجها!! هذه سبيعة الأسلمية، اقرأ سيرتها في الإصابة في تمييز الصحابة، وفي كتب

السيرة، توفي عنها زوجها وهي حامل، فلما وضعت تجملت للرجال، ومعنى (تجملت للرجال) أي أنها خرجت من عدتها، وصارت مستعدة للزواج فيما لو خطبها إنسان، ولا يعني هذا ما قد يفهمه بعض الناس، أنها خرجت إلى الشوارع، تلاقي الرجال أنْ هلموا، هذا وَهْم وخطأ في فهم هذه اللغة المشرقة، فلما فعلت ذلك نهاها عمها وشكاها إلى رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام: «أوقد وضعت؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: مرها فلتتجمل للرجال، ولتنكح إذا شاءت». وصدق رسول الله ﷺ لأنه تحدث بلسان الفطرة الإنسانية التي إن وقف دونها واقف ظهر الفساد بين الناس، وهذا قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير».. يظل دستورًا ومرجعًا للناس إلى يوم الدين.

﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾

(٤)

وأضرب لكم مثلا آخر بالسيدة أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بني مخزوم، كانت زوجًا لعكرمة بن أبي جهل وكان الرسول أهدر دمه، وكانت تحبه حبًّا جمًّا، وعندما فر إلى اليمن ما زالت بالرسول عليه الصلاة والسلام حتى استأمنته لزوجها وذهبت تأتي به ثم أسلم، وفي ذلك قصة طويلة، أصدرها السيد رضوان دعبول في كتيب صغير عن مؤسسة الرسالة، وبعد استشهاد عكرمة في معركة اليرموك وخروجها من عدتها بعد أربعة أشهر وعشرة أيام خطبها يزيد بن أبي سفيان وخالد بن سعيد، كلاهما، فاختارت خالد بن سعيد، وما أسرع ما استشهد خالد بن سعيد رضي الله عنه في المعركة نفسها. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعرف قدرها، ويعرف جهادها، ويعرف شخصيتها، فخطبها إلى نفسه وتزوجها وأنجبت له فاطمة بنت عمر. فأي فضل لامرأة أوسع وأعرض من امرأة يتزوجها جعفر وخالد بن سعيد وعمر بن الخطاب؟ إن هذا هو الإسلام الذي ينظم حياة المجتمع بالخير، وبالأسلوب الذي يتلاءم مع الفطرة، وتحقيق رغبة المرء، ويعينه على دينه وعلى أداء عمله خير أداء، ويدفعه دفعًا إلى الإبداع والإنتاج والبناء، حتى لا يظل أسير الأوهام والأحلام ويهلك نفسه وجسده في أمور تعمل على هدم البناء الاجتماعي وتقويض أسس عمرانه وسعادته.

ونحن الآن، في هذا العصر الحاضر، بحاجة ماسة إلى فهم هذه الآية الكريمة فهمًا دقيقًا، وتدبر مكانتها في التشريع الإسلامي.

فإذا نظرنا إلى الزواج، كما نظر إليه أسلافنا الأولون، الذين كانوا أقرب منا إلى عهد الرسول ﷺ وإلى عصر الصحابة والتابعين، وجدنا أن الزواج من ثانية أو ثالثة، أو من ثان أو ثالث هو حل إسلامي لحالة اجتماعية

قد حلت في حياة رجل ما، أو امـرأة ما، وكثير من الناس ينكرون تعدد الزوجات، وينسون مسألة العناية بالمرأة وبخاصة إذا فقدت زوجها بالوفاة أو بالطلاق، ولو أن أمر الزواج أقيم على الوجه الذي أمر الله به، لما حدثت مشكلة تعدد الزوجات كما هي الآن عند بعض الرجال، في بعض البيئات، وأود لو يقوم باحث مخلص ذو صبر وجلد، ويدرس تعدد الزوجات في القرن الأول الهجري مثلا، ويجيب عن أسئلة عديدة مثل ما يلي:

– ما نسبة من تزوجوا مرة ثانية إلى نسبة من اكتفوا بزوجة واحدة؟

– ما سبب الزواج من ثانية؟ أم أن الأمر كان يجري دون أسباب؟

– كيف كانت تجري الحياة مع الزوج وأزواجه في حال تعدد الزوجات؟

– هل كانت الزوجة الثانية أو الثالثة، زوجة بكرًا أم امرأة مات عنها زوجها، أو تركها بالطلاق؟

– هل كان الزواج الثاني أو الثالث، يستمر في حياة الأسرة أم كان يمثل نزوات عابرة في حياة الرجل؟

– كيف كان الزواج يحل مشاكل المجتمع؟

– هل كان لتعدد الزوجات أثر في استقرار الحياة الاجتماعية، أم كان سببًا لإثارة النزاع والخلاف بين الأسر؟

– هل نسبة الزواج الثاني متفقة أو متوافقة مع نسبة الطلاق؟ أم كان الطلاق أقل بكثير؟

إن هذه الأسئلة بحاجة إلى دراسة، وإن الأمر يجب أن يدرس بعقل وموضوعية. إن الله عز وجل يقول: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ (النساء: ٣). فالمسألة إذن فيها قيود وشروط، فما سر ارتباط تعدد الزوجات بالخشية من عدم العدل مع اليتامى، وإلى أي مدى يراعي

الناس شرط العدل الذي نص عليه القرآن؟ إن الذين يهاجمون تعدد الزوجات –في العصر الحاضر– ينظرون من خلال مغامرات بعض الأثرياء والتجار الذين يتزوجون لا لإقامة أسرة ولا للمودة والرحمة والسكن، بل للمتعة، والاستغراق في الملذات، ولذلك هم الذين شوهوا مفاهيم الإسلام عن الزواج، وبينوا للناس كما لو كان الأمر تصرفًا شهوانيًّا، وإن الإسلام من ذلك كله براء. إن تشريع الزواج في الإسلام يحقق مصلحة اجتماعية، حتى إن الله عز وجل جعله من آياته في خلقه، قال تعالى في سورة الروم الآية ٢١:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. إن السكن والرحمة إذن شرط من شروط الزواج الناجح الذي يؤدي رسالته ويسهم في بناء المجتمع الإسلامي، أما الزواج من أجل المتعة فهو مفسدة للمجتمع، ونشر للرذائل فيه، وإضاعة لكثير من القيم والفضائل. ولقد بينت من قبل أنه لو أن الناس ساروا في الزواج وفق سنة الله ورسوله لما كانت هناك فرص كافية لكي يتزوج كل الرجال أكثر من زوجة واحدة، بل لاكتفى كل رجل بزوجته، ولايتزوج غيرها إلا في حاجة ملحة، تجعل زواجه أمرًا لا بد منه.

ولو نظر امرؤ بعين فاحصة إلى منهجية الدين الإسلامي، وأسلوبه في تنظيم الحياة الاجتماعية لوجد أن من روائع التشريع الإسلامي أنه سمح بتعدد الزوجات وسمح بالطلاق. وحاشا لله أن يكون شرعه الحكيم مانعًا لتعدد الزوجات، أو مانعًا للطلاق، إن هذا ليس تشريعًا إسلاميًّا على الإطلاق، ولقد بدأت بعض المناهج الوضعية بالعودة عنه إلى تشريع الإسلام في إباحة الزواج من ثانية وإلى الأخذ بتشريع الطلاق في الحدود التي لا يكون الحل الأمثل فيها إلا الطلاق.. وفي قوله تعالى: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ دليل على توافق الحياة بين الرجل والمرأة، وأن المرأة تظل في عين الرجل هي

المرأة التي تكمل حياته، وتسعد أوقاته، وتكون له سكنًا ومودة ورحمة.. ولذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، لأن المسألة ليست مسألة إجبارية، ولا مسألة منهجية، بل هي مسألة إنسانية فيها اختيار وفيها توافق على صنع الحياة السعيدة.



﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾

توقفت طويلا أمام هذه الآية الكريمة رقم ٧٤ من سورة الفرقان، وقد وردت هذه الآية ضمن الأربع عشرة آية التي انتهت بها سورة الفرقان وتحدثت عن صفات عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما، والذين يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا، إضافة إلى صفات عديدة توالت في هذه الآيات. وقد لفت نظري هذا الدعاء الوارد في هذه الآية الكريمة، فهل رأيت من قبل إنسانًا يبتهل إلى ربه أن يجعل ولده قرة عين له؟ فمن منا لا يشعر بذلك؟ من منا لا يرى في ولده الصورة المجسمة للحب والحنان والعطف والرعاية والمحبة؟ والحق – أخي القارئ– أنك لو تدبرت في الأمر قليلا لرأيت في التعبير القرآني شيئًا عجبًا. نعم، إن كل ولد عزيز على والده وأهله، ولكنه ليس بالضرورة قرة عين له ولأهله، ذلك أن فرقًا كبيرًا بين دلالة «المحبة» ودلالة «قرة العين». إن كل والد يحب ولده لا ريب، وقد قلت من قبل: إن محبة الوالدين لأبنائهما، ورعايتهما لهم هي الجاذبية الإنسانية التي بها يقوم بناء الحياة، ولولا ذلك لفقد الإنسان إنسانيته وتميزه عن غيره من المخلوقات، بل إن كل مخلوقات الله تعطف على أبنائها بالفطرة، ولكن الإنسان موجه، إضافة إلى ذلك، إلى العناية والتربية التي تؤدي إلى تنظيم الحياة وفق قوانين ثابتة، ولولا المحبة الإنسانية بين الأب وولده لما شقى الأب وعانى في سبيل تربية ولده والإنفاق عليه ودفع الغالي والرخيص من أجل تعليمه وتنشئته وعلاجه ورعايته..

إن كل والد – في الحقيقة– مسخر لخدمة ولده، وهو تسخير محبب لأنه نابع من الحب الصافي والحنان الكبير، ولهذا فإن القرآن الكريم ما أوصى والدًا بولده، بل أوصى الولد بوالده ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾ ذلك أن الوالد لا يحتاج نحو ولده إلى وصاة، ولكن هل كل ولد يحفظ لوالده هذه العناية وهذا الحنان، فينشأ محبًا مطيعًا مخلصًا له، رحيما به، عطوفًا عليه؟ لا، مع الأسف، في غالب الأحيان.

إن العديد من الآباء ممن تعرف وأعرف ينظرون إلى أبنائهم الآن بعين

الحسرة والأسف لأن أبناءهم لم ينشئوا على ما أرادوه لهم من سلوك ومن أخلاق، ومن معتقدات وقيم، إن محبة الوالد لولده لا تعني أن ولده قرة عين له، إن المحبة في قلوب الآباء أمر فطري، ولكن المحبة في قلوب الأبناء ليست كذلك، ولذا فإن الحياة المعاصرة تشهد أن كثيرًا من الآباء في واد وأبناءهم في واد آخر، وإني لأسمع كثيرًا من التنهدات والآهات تخرج من أعماق القلوب الحزينة الأسيفة إذا سألت أحدهم عن حال ولده فلان. إن كثيرًا من الأبناء يسببون لآبائهم المشاكل والهموم والأحزان، ويلجئونهم إلى المواقف المحرجة ليخرجوهم من بعض المآزق المخجلة والتصرفات الرعناء التي يقومون بها لطيشهم وتسرعهم، في مثل هذا الجو كم يكون الأب سعيدًا عندما ينشأ له ولد صالح، يطيعه ويحترمه ويحفظ له وده وحنانه، ويرفع من شأنه، وينشر في الأوساط ذكره الحسن وسمعته الطيبة، إن هذا الولد هو الذي يكون قرة عين لوالده، هو الذي يفتخر به أبوه في أوساط الناس، ويرفع رأسه به إذا ما ذكرت سيرته، إن التعبير القرآني كان في غاية الإعجاز والإيجاز عندما قال الله عز وجل على لسان سيدنا زكريا عليه السلام:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۞ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ إن الولد الرضي هو الذي يكون قرة عين لوالديه.

ولكن العلاقة بين الآباء والأبناء في القرآن الكريم ما زالت تحتاج إلى فضل بيان، وبخاصة أن القرآن الكريم يقول تارة: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ في الآية ٤٦ من سورة الكهف، ويقول في الآيتين ١٤،١٥ من سورة التغابن:

﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

ويقـول في الآيـة ٧٤ من سـورة الفـرقـان: ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ فما الأمر إذن؟ وكيف يكون أبناؤنا أعداء لنا؟ ولماذا نحذرهم وهم زينة الحياة الدنيا؟ وكيف يكونون فتنة لنا ثم ندعو الله عز وجل أن يجعلهم لنا قرة أعين؟ لا أريد أن أقول: إن الأمر قد يبدو متقاطعًا لأول وهلة، بل أريد أن أسارع فأقول: إن الآيات القرآنية ترسم منهاجًا متكاملا شافيًا للعلاقة الصحيحة المتكاملة بين الآباء والأبناء، وبين أفراد الأسرة بوجه عام. وليت أمر (الأسرة) في الدنيا كلها التزم بمنهاج الإسلام إذن لرأيت مجتمعات متماسكة متكاملة متصالحة، يعمل بعضها لخدمة بعض..

إن أساس هذا المنهاج أيها الأخوة يقوم على أن (الولد) هو أعز ما في الوجود على قلب (والده) و(والدته). وإن هذه المحبة هي سر عناية الوالدين بالأبناء ورعايتهما لهم ورحمتهما بهم. ولولا هذه المحبة ما سارت الحياة؛ لأن أساليب التعامل والتفاعل والتعاون والتراحم تتقطع عندئذ ويتصرف كل فرد وفق سطوته وقوته وحاجته، فيقتل الكبير الصغير، والقوي الضعيف، والصحيح المريض، والغني الفقير، ويكون الإنسان في أدنى مراتب الحيوان. الأمومة والأبوة اللتان أودعهما الله عز وجل قلب الإنسان هما سر الجاذبية الإنسانية التي تربط بين بني البشر. الولد فلذة كبد والديه، ولكنه على الرغم من ذلك قد لا يكون قرة عين لهما. وهذه هي المفاجأة أن الولد الذي نشأ تحت جناح والديه، ورضع من حنانهما ومحبتهما ورعايتهما قد ينشأ على غير سلوك والديه، وعلى غير منهاجهما، وعلى غير طاعتهما، فيسبب لهما من الهم والحزن والقلق ما يجعلهما في ذل دائم، وقلق مستمر وهمّ مقيم، وحزن مزمن، وحرج قاتل. ولذلك يكون هذا (الولد) مبعث الشقاء والنكد لوالديه، وهو أبعد ما يكون عن راحتهما وسعادتهما. ولذا فهو ليس قرة عين، بل قذى في العين ومرضًا في القلب، ولذلك يتوجه المرء إلى ربه بالدعاء والابتهال أن (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين). وقرة العين كناية عن السعادة والراحة وهناء البال، والوالد في حياته يشقى

ويتعب ويعمل ليلا ونهارًا ليربي أبناءه، فهو حريص عليهم دائمًا، عطوف عليهم، عامل من أجل راحتهم، وهم بالنسبة له (مبخلة مجبنة محزنة) كما وصفهم رسول الله ﷺ، أي أنهم يجعلون الأب بخيلا لحرصه على الإنفاق عليهم، جبانًا لخوفه على سلامتهم، حزينًا لخشيته من أي سوء قد يصيبهم، وهذا مرتبط أشد الارتباط بالمحبة التي أودعها الله عز وجل قلوب الآباء. فالأبناء إذن فتنة، وهم زينة الحياة الدنيا، يصرفون الآباء عن العبادة الصافية، والإنفاق الواسع في سبيل الله، من أجل رعاية أفراد الأسرة، وهذه نظرية الحياة المستمرة إلى ما شاء الله.



﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾

ما زلت أشعر أن مسألة علاقة الأولاد بآبائهم بحاجة إلى فضل بيان، وأن كثيرًا من الناس يعجبون كيف يكون الأولاد الذين هم قرة أعين لآبائهم، يكونون في الوقت نفسه أعداء لآبائهم يجب الحذر منهم. وقد سألني صديق كريم عن هذه الآية الكريمة من سورة التغابن، وقد استوقفه فيها وصف الله عز وجل الأزواج والأولاد بأنهم من الأعداء، على حين تؤكد الآيات القرآنية العديدة، والأحاديث الشريفة ووقائع التراجم والسير المكانة العالية والمنزلة السامية التي وضع فيها الأولاد في الإسلام، ووضع فيها أيضًا الأزواج في نظر بعضهم إلى بعض. والحق أن هذه الآية الكريمة، وهي تبين، في المعنى الظاهر خطورة الأولاد والأزواج على المرء المسلم، إلا أنها في الوقت نفسه، تؤكد –في نظري– المنزلة العالية للأزواج والأولاد في الرعاية الإسلامية، وفي بناء المجتمع الإسلامي..

ولعله من المناسب أن تقرأ هاتين الآيتين من سورة التغابن أولا، حتى يكون القول في هذا الموضوع أكثر وضوحًا وبيانًا، يقول الله تعالى في الآيتين ٤، ٥ من سورة التغابن: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ فالنداء إذًا للذين آمنوا، فهو إذن مجتمع مسلم، والمرء يسهم في بناء مجتمعه من خلال قيامه بطاعة أوامر الله واجتناب نواهيه. وقد حثّ الله عز وجل على رعاية الأولاد، وعلى طاعة الوالدين، وعلى احترام الزوجين أحدهما للآخر. وقد فصلت كتب الفقه والتفسير في واجبات الآباء نحو الأبناء وفي حقوق الآباء من أبنائهم، وجعلت رعاية الوالدين في المرتبة الثانية بعد عبادة الله. وقد نصت الأحاديث الشريفة على حسن رعاية المرأة لزوجها، وعلى فضل رعاية الزوج لزوجه. والرسول ﷺ يقول: «النساء شقائق الرجال»، ويقول عليه السلام: «ما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم»، ويقول عليه الصلاة والسلام: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على

مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك».

فما بال هذه الآية الكريمة تجعل الأزواج والأولاد أعداء للإنسان!! ذلك أن بعض الناس يستغرق في هذا الأمر، ويتخذ منه ذريعة لسلوك طرق الكسب غير المشروع من أجل الإنفاق على الولد، أو أنه يستغرق وقته كله في السعي من أجل الرزق، فيلهيه ذلك عن الطاعات، ويبعده عن الواجبات الدينية ويزين الشيطان له سوء عمله، فيتصرف بكل قوته، في كل وقته في العمل على جمع المال، حتى ينسى الهدف الذي من أجله يعمل، ويصبح جمع المال غاية قصوى، وليس وسيلة لأن يحيا في ظلال طاعة الله ورضاه. ومن جهة أخرى، فإن حنانه على أولاده قد يصرفه عن الغزو، أو عن الجهاد في سبيل الله، فيقع بذلك في حكم المخلفين. وقد تقوم بعض الأزواج، بدافع الغيرة، أو الحب، أو الاستئثار بالزوج بصرفه عن الإنفاق في سبيل الله، أو الخروج في جيوش الفتح والجهاد فيقع الزوج في الفتنة، وفي معصية الله، وبهذا تكون بعض الأزواج وبعض الأولاد أعداء للمرء في الوقت الذي يجب أن يكونوا فيه حواضر للطاعة وميادين للعمل الذي يقرب إلى الله.

وقد تضافرت كتب التفسير على إيراد هذه المعاني، يقول الإمام القرطبي في تفسيره جزء ١٨/ ص١٤٠ في سبب نزول هذه الآية: «نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه فقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرق فيقيم، فنزلت..». وقال الإمام الألوسي في تفسيره، جزء ٢٨ صفحة ١١١: «وقال غير واحد إن عداوتهم من حيث إنهم يحولون بينهم وبين الطاعات والأمور النافعة لهم في آخرتهم، وقد يحملونهم على السعي في اكتساب الحرام وارتكاب الآثام لمنفعة أنفسهم، كما روي عنه ﷺ: «يأتي زمان على أمتي يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده يعيرانه بالفقر فيركب مراكب السوء فيهلك»».

وفي الآيتين الكريمتين لطائف بيانية عديدة، منها أنه في الآية الأولى منهما ذكر (من أزواجكم)، ومن هنا تفيد التبعيض أي بعض أزواجكم

وليس كلهن. ومنها أن كلمة (أزواجكم) تعني الرجال والنساء على حد سواء، وليس كما قد يظن بعض الناس أنها تخص النساء، وكذلك كلمة (أولادكم) تجمع الأولاد والبنات. وقوله تعالى في نهاية الآية الأولى: ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ ﴾ دليل على العودة إلى أصل العلاقة بين الآباء والأبناء وهي علاقة الود والصفاء، فيجب ألا يعكر شيء صفو هذه الحياة، ولكن طاعة الله عز وجل هي المطلب الأسمى، فكل ما يصرف الإنسان عنها يخرجه عن جادة الصواب إلى أن يعود عما هو فيه.

وفي الآية الثانية، ذكر الله عز وجل ﴿ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ ﴾ ليدل على أن حب المال أولا ثم حب الولد أكثر ما يصرف المرء عن دينه، وعن عبادته وهذا يقتضي أن يتفقّه المرء جيدًا في كيفية التعامل بالمال ومع الأولاد. ويلاحظ أن المال تقدم على الأولاد، لأنه في حقيقة الأمر أكثر ما يصرف المرء عن طاعة الله. تلك هي آيات الله عز وجل ترسم لنا منهج الحياة، بكل تفاصيلها وأسرارها، تفعل ذلك من خلال رسم المنهج المتكامل لدين الله.



﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ ﴾

في سورة القصص، ومن الآية ٢٣ إلى الآية ٢٨، ست آيات كريمات يقدمن للناس على مر العصور وثيقة خالدة في منهج تعامل الرجل مع المرأة، وفي آداب الزواج وأهدافه، وفي وسائله ومقدماته، وثيقة تبين لنا أن لدينا من مناهج الحياة الحرة الكريمة العزيزة ما لو أخذنا بها لاستغنينا عن كل مناهج الناس الوضعية، وقوانين الأمم المتناقضة التي غالبًا ما توضع وفق نظرات محدودة، محكومة بأهواء الناس وعاداتهم، وتختلف من مكان إلى مكان، ومن جيل إلى جيل. في هذه الآيات مرحلة من مراحل حياة سيدنا موسى عليه السلام، وهي المرحلة التي سبقت مراحل النبوة، حيث خرج موسى عليه السلام من مصر خائفًا يترقب، وجاء إلى أهل مدين، وهي في أرجح الأقوال مدينة جنوب الأردن، ولعلها المنطقة الواقعة في وسط الأردن الآن حيث جبال البلقاء إلى جنوب الأردن حيث البتراء ووادي موسى، وعين موسى التي يعرفها الناس إلى الآن ويسقون منها.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾. وفي هذه الآية الكريمة عدة مسائل وفوائد، منها:

أولا– ما يفهم ويستنتج من قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ هذا سؤال وجهه رجل غريب إلى امرأتين رآهما وحيدتين ضعيفتين لا تستطيعان مزاحمة الرجال الأقوياء لسقيا الأغنام. وسؤال (الرجل) يدل على أنه من الشهامة والرجولة ألا يمر رجل بامرأة يظن أنها بحاجة إلى مساعدة وينصرف عنها. وربما يخالف في هذه الفكرة بعض الناس جهلا وبعدًا عن فهم أسرار ديننا الحنيف. وأنت ترى أن هذا (الرجل) هو نبي الله عز وجل (موسى عليه السلام) لم يجد حرجًا أن يسأل المرأتين: ما خطبكما ليساعدهما في موقف هما في أشد الحاجة فيه إلى المساعدة. وفي خلال هذه المساعدة يجب أن نعلم أن الرجل – أي رجل– يجب أن يكون في أعلى

ما يكون من الأمانة والرجولة وحسن النية، واستقامة السلوك عندما يقوم بهذه الأعمال، وبذلك تؤدي هذه المساعدة ما أريد بها، وبها أيضًا تحقق أهدافها.

ثانيًا– قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ﴾. وقد شاع في أيامنا هذه أن لفظ (المرأة) لا يقال إلا للسيدة المتزوجة، أما غيرها فيقال لها (الآنسة)، وهذا خطأ، فالمرأة في اللغة مؤنث المرء، والمرء هو الذكر صغيرًا كان أو كبيرًا، متزوجًا أو عزبًا.

وكذلك المرأة، وفي اللغة أيضا (امرأة) وهي مؤنث (امرؤ)، ولا علاقة لها بالزواج، أو عدمه. وكذلك الآنسة فهي المرأة التي تؤنس الرجل لعشرتها وجمالها وظرفها وحياتها، وهي لا تقتصر على مرحلة من العمر، أو حالة من الحياة، بل هي آنسة في كل أحوالها، متزوجة كانت أو غير ذلك. وعلى هذا فإن كل أنثى هي امرأة ولكن ليس كل امرأة آنسة.

ثالثًا– قوله تعالى: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ وكلمة يصدر هو مضارع أصدر، أي حتى يصدر الرعاء مواشيهم من وِرْدِهم، أي يخرجونها ويبعدونها عن مكان السقي. والرعاء جمع راع، مثل الصحاب جمع صاحب، والتِّجار جمع تاجر، ويفهم من هذه أنه على المرأة ألاّ تزاحم الرجال في أي شأن من شؤون الحياة، ليس من أخلاق الإسلام أن تدخل المرأة في صراع مع الرجال في موقف من مواقف الشراء أو البيع أو ركوب الحافلات أو النزول منها، أو تقديم الطلبات، أو أي شأن مما نراه في حياتنا اليومية. وليس لها أن تحتج بأنه لا مساعد لها ولا تجد من يقوم بهذا العمل دونها. إن عليها أن تصبر، وستجد حتمًا من يساعدها في أداء مهمتها، وهذا أفضل لها من إلقاء نفسها في أمواج الازدحام للوصول إلى حاجتها.

رابعًا– قوله تعالى: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾. وهذه فائدة متصلة بما قبلها ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فإنه لولا كبر

الشيخ وعدم قدرته على الخروج لما خرجت البنات لسقي المواشي وجلب الماء.

وهذا دليل أكيد على أن الرجل هو الذي يجب أن يتولى تدبر حاجات المنزل من بيع وشراء، إلا إذا كانت المرأة لا تجد هذا المعيل المساعد لها في شؤون حياتها. كالمرأة الأرملة أو الكبيرة التي لا تجد ولدًا أو زوجًا أو أي رجل محرم عليها يقوم بواجبها. وهذه مسألة تفهم أيضًا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الساعي على الأرملة والمسكين...»، فإن من أجلّ الأعمال أن يسعى الرجل إلى رعاية زوجته، ومساعدة الأرملة والمسكين.

بعد أن سقى موسى عليه السلام للفتاتين أغنامهما تولّى إلى ظل شجرة، وكان شديد الجوع لم يأكل منذ عدة أيام إلا بعض البقول التي يجدها في الطرق حتى تغير لونه، وعندها عرض عليه السلام حاجته بطريق غير مباشر على الله عز وجل أن يرزقه ويطعمه، قال الله عز وجل: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾. قال العلماء: «فعرّض بالدعاء ولم يصرح بالسؤال». و«هكذا روى جميع المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله». (القرطبي: ج١٣ ص٢٧٠).

ثم تمضي الآيات الكريمة في عرض قصته عليه السلام مع سيدنا شعيب وابنتيه، يقول الله عز وجل: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ وفي هذه الآيات وما بعدها عظات وعبر ودروس وأحكام تنظم الحياة الاجتماعية، وتمهد سبل الزواج العفيف الذي يبني الأسرة الكريمة وينشئ المجتمع الصالح، وينشر السلام ودين الله في الأرض، جاءته إحداهما تمشي على استحياء، كانت فتاة حييّة خفرة، قال المفسرون: «ولم تكن سلعفا من النساء خرّاجة ولاجة»، وهذا بلغة اليوم لم تكن جريئة على

الرجال، تخرج وتعود دون رقيب ولا حسيب، ودون سبب في غالب الأحيان. والحياء هو أجمل ما في المرأة، وحياء المرأة جمالها، واستقامتها عنوان شخصيتها.

إن المرأة التي تمشي قاصدة إلى هدفها، غاضة بصرها، يحترمها كل الناس، ولا يجرؤ على اعتراضها أشرّ الناس، أما المرأة التي تخضع بقولها، وتتكسر في سيرها، وترفع من صوتها يتقحمها كل الناس، ولا يحترمونها. جمال المرأة عفتها واستقامتها وسلوكها القويم، وهذا أمر معروف يدركه كل الناس إدراكًا تامًا حتى هؤلاء الذين يجاهرون بمخالفته.

وانظر إلى قوله عز وجل: ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾

لم تزد ولم تنقص من الرسالة التي بعث بها أبوها إليه، ولم تغتنم الفرصة لتختلق حديثًا طويلا لا داعي له، بل ربما كان له داع يكشف عن الرغبة في الحديث، وفتح باب الكلام، والتحدث عما كان وما سيكون، ما يطمع الرجل في المرأة، ويكشف له عن استعدادها لما قد تحدثه به نفسه من شر.

﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾..وسارت الفتاة خلف موسى عليه السلام تدله بصوتها على الطريق حتى وصل إلى بيت شعيب فاستقبله واستمع إلى قصة خروجه من مصر وأسبابها، فقال له: ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ وفي هذه الآية الكريمة دليل قاطع على أن مدين وأهلها لم يكونوا من قوم فرعون، ولم يقعوا تحت سيطرة فرعون، لأنه قال له: نجوت من القوم الظالمين. وهنا ثارت في نفس الفتاة العفيفة رغبة في إراحة والدها الشيخ، وفي توفير سبل الحياة الهانئة له في هرمه، فقالت: ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ وقد شاهدت قوته عندما سقى لهما، ولمست أمانته عندما سار معها إلى بيت أبيها، فلم يكلمها كلمة غير مناسبة، ولم تكلمه إلا بما يدله على الطريق، وفي هذا دليل على أمانة الرجل عليه الصلاة والسلام، وقوة شخصيته واستعداده لما هيأه

اللّه له من مهمة النبوة والرسالة التي لَم يعلم بها..

وإن في هذه الآية دليلا على شروط الولاية والاستخدام؛ أننا يجب أن نولي الرجل القوي الأمين، القوي على القيام بوظيفته، القوي بعلمه وبعمله وبإدراكه وتجربته، والأمين بخلقه وسلوكه وإخلاصه وأمانته، ولعمري لو أن هذه القاعدة اتبعت في كل ما يجري في مجتمعنا من تعيينات ووظائف إذن لكان المجتمع سعيدًا مشرقًا..

﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ۞ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (الآيات ٢٦-٢٧)، وفي هذه الآيات دروس عدة، منها: من حق المؤسسة صاحبة العمل، وزارة كانت أو شركة أو جامعة أو مصنعًا أو أي جهة أخرى أن تشترط القوي الأمين في عمله، وهذه هي المؤهلات الأساسية في طالب العمل.

والقوي الأمين كلمتان موجزتان ولكن لهما دلالات واسعة، فالقوي بعلمه وبجسده أقدر على العمل من الجاهل الضعيف، والأمين بأخلاقه وسلوكه وأمانته هو المفضل لكل صاحب عمل، وكما أن لصاحب العمل شروطه فإن لطالب العمل حقوقه، فينبغي على صاحب العمل أن يعطيه أجره وافيًا كاملا في وقته، وأن يراعي في هذا الأجر ما هو معمول به في سائر المؤسسات والشركات والجهات المستخدمة. على أن في زماننا هذا كثيرًا من المؤسسات تستغل حاجة بعض الناس للعمل والأجر فتبخسهم أجورهم، وتعطيهم القليل، وهي – في الوقت نفسه– تشق عليهم في العمل، فتحملهم أضعاف أضعاف ما نصّ عليه العمل، إن كان ثمة عقد في الأساس..

قال سيدنا شعيب لموسى عليهما السلام: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ أي لا أكلفك عملا آخر، ولا أطالبك بمدة أطول عن الاتفاق، ولا أبخس لك

أجرك، هذه تعاليم الإسلام في حقوق العامل وواجب رب العمل.

ومن العبر في هذه الآيات قوله تعالى على لسان شعيب: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ ﴾ وهذا في نظر أهل هذا الزمان عجيب غريب، أب يخطب رجلا لابنته، ولكن القرآن الكريم يعلمنا ما يجعل حياتنا سعيدة هانئة بعيدة عن الزيف والمخادعة وعدم الصراحة. إن كثيرًا من الآباء والأمهات يرجون لبناتهم أن يتزوجن ويبدأن حياة زوجية سعيدة، ولكن العادات والتقاليد تمنعهم من البحث لبناتهم عن زوج صالح كما يبحثون لأولادهم عن زوجات صالحات. لكن سيدنا شعيبًا عليه السلام بحث لابنته عن الزوج الصالح وعندما وجده عرض عليه حالا أن يتزوج ابنته فوافق الطرفان وتم زواج سعيد صالح.

ومن الملاحظات الدقيقة في الآيات الكريمة أن الوالد أو ولي أمر الفتاة هو الذي يبدأ بالإيجاب، وأن الخاطب هو الذي يبدي القبول. وهذا ما يقوم به فعلا «المأذون» له بإجراء عقد الزواج، وقد كنت شخصيًا استغرب كيف يبدأ المأذون بالطلب من الأب أن يقول للخاطب: «زوجتك ابنتي فلانة..» ويطلب من الخاطب أن يقول له: «وأنا قبلت زواج ابنتك فلانة...»، ولكن هذا هو الأصل.

الإيجاب من الأب والقبول من الخاطب وهذا يدل على ضرورة تيسير أمور الزواج بين الشباب ذكورًا وإناثًا، ويجب ألاّ يشتطّ الأهل في مطالبهم المادية، أو الاحتكام إلى العادات والتقاليد التي تعطل كثيرًا من فرص الزواج.

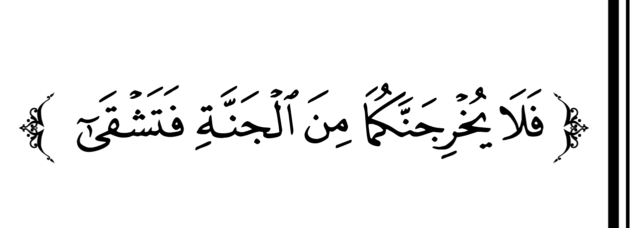
ومن الدروس في هذه الآيات الكريمة أن من شروط الزواج الإيجاب والقبول والصداق المسمى والشهود العدول. وفي قصة شعيب عليه السلام مع موسى عليه السلام كان الصداق أن يستأجر موسى ثماني سنوات يرعى له أغنامه ويقوم على مساعدته في شؤون بيته، وإذا أحب موسى عليه السلام

أن يجعلها عشرا فهي من عنده ولا شرط عليه في ذلك. وقد أتمها موسى عليه السلام عشرا كما أخبر بذلك رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم، عندما سئل عن أيّ الأجلين قضى موسى، قال: «أتمّهما وأكملهما». وهذا الصداق يدل على أن من حق الأب أن يتصرف بالصداق إن كان عن طيب خاطر من صاحبته.

وصاحبة الصداق هنا هي ابنة شعيب، ومن هذه القصة استدل الفقهاء على أن الولد وما يملكه لأبيه. وقد كانت «إحداهما» التي تزوجها موسى عليه السلام طيبة الخاطر بإهداء صداقها لأبيها، وفي «إحداهما» لطيفة قرآنية، ففي قوله تعالى: ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ ﴾. وفي قوله تعالى: ﴿ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ ﴾. كانت «إحداهما» الأولى هي نفسها (إحداهما) الثانية التي قالت لأبيها: يا أبت استأجره، فهي إشارة دلالية قرآنية على أن التي جاءته تدعوه هي التي كانت من نصيبه.

وفي قوله تعالى: ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ تواضع كبير من سيدنا شعيب عليه السلام، وأنه يرد الأمر كله إلى مشيئة اللّٰه، وأنه يرغب في موسى أن يكون من الصالحين، وهو سيكون قدوة له في ذلك بقوله «ستجدني»، والصلاح فعل لا قول، وقد كان سلوك كل منهما، عليهما الصلاة والسلام، قدوة لأبناء هذا الدين العظيم الذي يصنع الخير في كل سلوك وعمل يقوم به الإنسان المؤمن.




﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾

لنقرأ أولا هذه الآية الكريمة في سياقها التام، وننظر فيما يلفت النظر فيها من مظاهر البيان والإعجاز، قال الله عز وجل في سورة طه: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾.. ويلاحظ في هذه الآيات الكريمة أن الله عز وجل أعاد الفعل بصيغة المفرد مع أنه معطوف على فعل مسند إلى ألف الاثنين، وذلك حيث قال تعالى: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ ولم يقل فتشقيا، مع أنهما كليهما يهددان بالإخراج من الجنة، ويجدر بي قبل بيان وجه الدلالة فيها أن أذكر بملاحظة، قد جفت الأقلام من كثرة الحديث فيها؛ وهي أن المرأة في الإسلام صنو الرجل، وهما كفتا التعادل في ميزان الحياة؛ فالحياة لا تقوم بالرجل وحده ولا بالمرأة وحدها، فهو عز شأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى وأقام بهما الحياة. وما عاد امرؤ يسأل – وما ينبغي له– أيهما أفضل الرجل أم المرأة؛ لأن سائل هذا السؤال يشبه من يسأل أيهما أفضل: الليل أم النهار، والشمس أم القمر، والماء أم الهواء. فإذا علمت ذلك فإننا نقول: إن الإسلام أناط مهمة العمل والسعي في سبيل الإنفاق على الأسرة على الرجل في المقام الأول، وأن للمرأة أن تساعده ولكن ذلك ليس واجبًا عليها..

وأن للمرأة أن تعمل، ما شاءت لها قدرتها وكفايتها أن تعمل، ولكن المرأة إذا التأمت مع الرجل في خلية واحدة هي الأسرة، فإنه هو المكلف بالسعي والإنفاق في المقام الأول، وهي المكلفة بالرعاية والعناية والتربية في المقام الأول. وقد صورت الآية الكريمة هذا المعنى، فقال الله عز وجل: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ فآدم عليه السلام وزوجه في الجنة يعيشان في نعيم ورغد، قد كفاهما الله عز وجل تبعات الحياة، أما إذا أخرجا منها نتيجة وسوسة الشيطان فإن آدم سيشقى بالتبعات الجديدة التي ألقيت عليه، سيشقى بالعمل، وبالبحث عن الطعام والشراب، وتوفير سبل الحياة

كلها، في الوقت الذي تكون فيه المرأة في بيتها، تديره وتنظم شؤونه. إن طبيعة المرأة تتوجه إلى ذلك، ولو أن كل امرأة من نساء الأرض خلت إلى نفسها، وصارحت وجدانها فيما تحس به أو تتمناه، لوجدت أنها تتمنى أن تتفرغ لبيتها وأن يكفيها زوجها عناء العمل. ولو أنك أجريت إحصاءً علميًّا في نساء أي مجتمع، لوجدت أكثر النساء فيه قد كفين العمل بعمل الزوج، حتى في المجتمعات غير العربية، وإن نسبة كبيرة من العاملات في تلك الدول، يعملن للحاجة إلى العمل، ولو أنك أجريت استفتاء عن رغبة المرأة في العمل، أم البقاء في البيت لرعاية أبنائها مع توافر كل ما يلزمها لبيتها، لوجدت أن معظم النساء يرغبن في البقاء لأنهن يقمن بعمل جليل، والإسلام ينظر إلى الرجل الذي يُكره زوجه على العمل أنه رجل مقصر، قد يظلم المرأة فتقوم بوظيفتين اثنتين في الوقت نفسه. وهذا أمر قد تنبه له الإسلام، ووضع له الحل الناجع، والقرآن الكريم قد صور هذا المعنى في صيغة لغوية موجزة، حملت دلالات عظيمة.



﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا ﴾

﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا﴾

(١)

نحن الآن مع الأب والأم، والوالد والوالدة في القرآن الكريم، وقد علمنا أن كلمة الأب وجمعها آباء أكثر في عمومها وأوسع في دلالتها من الوالد، وكذلك الأم وجمعها أمهات أوسع في دلالتها من الوالدة والوالدات، وكان القرآن الكريم يعبر بلفظ «الوالدين» عندما يريد أن يتحدث عن رعاية الوالدين المباشرين للمرء. ولا يفرق القرآن الكريم بين الوالدين في المنزلة أو الفضل..

وقد وردت كلمة «الوالدين» سبع مرات في القرآن الكريم، كانت كلها في سبيل الأمر برعاية الوالدين والإحسان إليهما، وكذلك وردت كلمة «والديه» خمس مرات، وكلمة «والديك» مرة واحدة، و«والدي» أربع مرات، كلها في المجال نفسه، إلا في آية واحدة كانت تعنف الذي قال لوالديه: أف لكما، ويلاحظ أنه حتى في حالة النهي عن الإساءة للوالدين كان الوالدان سواءً في دفع الإساءة عنهما تمامًا كالمساواة بينهما في مجال الأمر بالإحسان إليهما، ذلك كله يدل على أن الوالدين -وهما في التحليل الأخير الرجل والمرأة- شخصان متكاملان متساويان في المكانة والتقدير والاحترام ليس أحدهما بأفضل من الآخر وفاقًا للمقاييس البشرية، أما في ميزان الله فإن لكل منهما عمله الذي يحكم عليه من خلاله، الذي به يكون كل منهما أفضل من الآخر وفق قياسه، وهي مفاضلة متبادلة كما بينًّا من قبل، ولعل أشهر آية في كتاب الله تحث على رعاية الوالدين وتدل على أنهما شخصان متكاملان، متساويان في المنزلة هي قوله تعالى في سورة الإسراء الآية ٢٣-٢٤: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ۝ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ

﴿ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ وفي هذه الآيات الكريمة دلالات واسعة يقدمها التركيب القرآني العالي، أولها قوله ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ وقد وردت هذه الصيغة من صيغ الأمر الأربع في اللغة، وهي: صيغ فعل الأمر المباشر والمضارع المقترن بلام الأمر، واسم فعل الأمر، وهذه الصيغة وهي المصدر النائب عن فعله، وربما كانت أقل الصيغ شيوعًا في لسان العرب، ولكنها هنا أشد الصيغ دلالة، فهي تحمل دلالة الفعل ودلالة المصدر «الحدث العام» في الوقت نفسه، ودلالة التوكيد أيضًا، أي أن المرء مطالب بالإحسان إلى والديه كل الإحسان، حتى لكأنما الوالدان هما الإحسان نفسه، ولو قيل: «أحسنوا إلى الوالدين» لما حمل هذا الأمر الدلالة المفهومة من الصيغة القرآنية، ثم انظر إلى تقدم الوالدين (وبالوالدين) على صيغة الأمر (إحسانا)، وذلك لبيان أهميتها والعناية بهما، والمتقدم في اللغة يدل على مكانة خاصة..

وفي قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ﴾ دلالات عجيبة، فانظر إلى التوكيد في الفعل «يبلغن»، التوكيد الثقيل دليل على بلوغهما لا محالة، لأنه ما دمت أنت ولدهما فهما كبيران. ولن يكون الولد كبيرًا أمام والديه أيًا كان سنه أو مركزه، وما أجمل أن يكون الولد صغيرًا بين يدي والديه الشيخين وبخاصة إذا كان كبيرًا في منزلته الاجتماعية أو الرسمية، إن ذلك هو التواضع الجميل وهو الأدب الرفيع، وهو التربية الحسنة، وهو الخلق الإسلامي الأصيل، ثم انظر في قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ﴾ وفي هذا التركيب يكون الفاعل هما، والضمير يعود على الوالدين هما اللذان سعيا نحو الكبر حتى بلغاه، والكبر مفعول به، هما الساعيان له، وفي الآيات الأخرى، كان الكبر هو الفاعل، هو الذي هجم على المرء ووصل إليه، كما يقول تعالى على لسان زكريا عليه السلام في الآية ٤٠ من آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ﴾ وهذا اعتذار من زكريا عليه السلام أنه لا ذنب له، بل الكبر هو الذي سيطر عليه، وفيه

أيضًا إحساس بأن الرجل قد يصعب عليه الاعتراف بالكبر، أما في قصة الوالدين، فهما ليسا بحاجة إلى هذا الشعور، فقد صارا بحاجة إلى الرعاية والعناية والإحسان. والصيغة القرآنية تؤكد ذلك وتقول: إن الوالدين سعَيَا سعيًا طويلا في حياتهما وكدّا وعملا، وتعبا ووصلا إلى مرحلة النهاية وبلغا الكبر الذي لا يستطيعان دفعه، ثم انظر – إذا شئت عزيزي القارئ– مرة أخرى في قوله عز وجل: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ وانظر إلى كلمة «عندك» هذه، لتدل على أن الوالدين مهما كبُرَا، ومهما يكن وضعهما الصحي أو الاجتماعي أو المادي فهما «عندك» فمن واجب المرء أن يكون والده عنده في شيخوختهما؛ لأن الوالدين من ناحية نفسية أحوج ما يكونان إلى رعاية أولادهما وعنايتهم، وبخاصة من الناحية المعنوية، وليس من الناحية المادية؛ لأن هذه الناحية الأخيرة يمكن تداركها بسهولة، أما الرعاية النفسية والاجتماعية فلن يقوم أحد بدور الولد في رعاية والديه.

إن الوالد بحاجة إلى حنان ولده تمامًا مثلما كان الولد بحاجة إلى حنان والده. إن لمسة حنان أو كلمة طيبة أو تصرفًا نبيلا من الولد تجاه أبيه أو أمه، في كبرهما يمسح عن قلبيهما كل الهموم والأدران، ويرسم البسمة على شفاههما، ويبعث الدفء والأمل في نفسيهما، وفي الوقت نفسه إن كلمة قاسية، أو تصرفًا مشينًا من شأنه أن يكسر نفس والديه، ويبعث في قلوبهما الحسرة والحزن. ولقد رأيت مرة والدًا سمع من ولده الكبير إجابة قاسية، فيها استهزاء، وبصوت مرتفع فعز على نفس والده، وعندما قام إلى صلاة المغرب لم يملك الوالد عَبْرته، فخنقت صوته الدموع، ولم يستطع أن يكمل. وانظر إلى من يرسل والديه إلى بيوت العجزة والمسنين والمقعدين، ولا يزورهم إلا مرة واحدة كل عام، أو مرة واحدة يوم العيد، ولو أنك زرت ملجأ العجزة والمسنين وسمعت أخبارهم لتفطر قلبك من قصص محزنة تأسى لها النفوس وتفيض منها الدموع، والإنسان إنسان وشتان بين دين سماوي سامٍ يجعل رعاية الوالدين من قضاء الله ويقرنها بعبادته وتوحيده، ويأمر

بأن يكونا «عندك» وفي رعايتك وبين تشريعات اجتماعية ترسل والديك إلى ملجأ العجزة والمقعدين ليظلا في رعاية الخادمات الأجنبيات والموظفين الغرباء.

وتدبر - أخي القارئ- مرة أخرى هذه الآية ٢٣ من سورة الإسراء ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾. وبدء الآية الكريمة بالفعل الماضي (وقضى) يدل على أن بر الوالدين والإحسان إليهما هما من قواعد الدين الأساسية، ومن الأمور التي قضاها الله عز وجل ليقوم عليها الخلق. ومن المعروف أن الجاذبية الإنسانية بين الوالدين وأولادهما هي التي تنظم العلاقات الأسرية، وتربط بين أفراد الأسرة الواحدة، ولا يستطيع إنسان في الدنيا كلها أن يقوم مقام (الوالد) أو (الوالدة) في رعاية الأولاد وتربيتهم. إنه قد يقوم بخدمتهم، وقد يشرف عليهم، ولكنه لا يقوم بدور الأب والأم أبدًا. وهنا يأتي دور علم النفس ليقدم نظرياته، وعلم الاجتماع ليشرح دراساته، وليقولا إن التربية ليست هي في تقديم الطعام للأطفال، وفي تغيير الملابس، وفي مرافقتهم إلى سيارة المدرسة، إن التربية في حضن الأم وفي قلب الأب شيء غير ذلك. ولقد قدمت دراسات عديدة عن أثر تربية الوالدين في أولادهم، وفي غياب هذا الأثر وما يترتب عليه من نتائج عندما تكون التربية بين المربيات الأجنبيات أو دور الحضانة..

وفي كتاب (الإنسان بين المادية والإسلام) للأستاذ سيد قطب بحث جيد في هذا المجال، ومن نتائج الدراسات التي قدمها هناك: أن الاتزان النفسي والهدوء في السلوك والتصرفات والثقة بالنفس، والتوازن في تصرفات المرء كل أولئك لا تتحقق على وجهها الأكمل إلا في إطار تربية الطفل في أحضان والديه، حيث يتغذى من أنفاسهما ومن حنانهما ورعايتهما، ولذلك قال الله عز وجل (وقضى)؛ لأن القضاء هو الإرادة الإلهية الأساسية في تكوين

الخلق والكون، وإن القدر هو تنفيذ هذا القضاء حالا بحال كما قال الشيخ الشعراوي رحمه الله. فبر الوالدين إذن مسطر في القضاء الأول، وهو من قواعد الخلق الكبرى؛ لأنه نظام من أنظمة الحياة في هذه الأرض. والله عز وجل لم يفرّق بين الوالدين، فهما جهة واحدة، وهما مؤسسة واحدة، هما اللذان يوجدان النسل وفق منهاج الله وتقديره وهما اللذان يرعيان هذا النسل ويربيانه وينشئانه وفق ما أودعه الله عز وجل في قلبيهما من مودة ومحبة وحنان، وهذا ما عناه شوقي بقوله:

فإذا رحمت فأنت أم أو أب　　　هذان في الدنيا هما الرحماء

وعندما شاءت إرادة الله عز وجل أن ينشأ موسى عليه السلام منذ أول أيام ولادته في بيت فرعون الطاغية، بعيدًا عن بيته، وفي حجر سيدة غير أمه، قال الله عز وجل: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ أي ألقى الله عز وجل في أهل البيت الذين التقطوه من اليم، امرأة فرعون، وفرعون نفسه، ومن في القصر وغيرهم من الناس، ألقى في قلوبهم محبة منه حتى يرعوه كما ترعاه أمه وأبوه. وربما كانت هذه الحالة، هي الحالة الوحيدة التي عرفنا نبأها من القرآن الكريم، ولعل حكمة الله عز وجل شاءت أن تكرم السيدة امرأة فرعون بالإيمان بالله، ببركة هذه التربية التي قامت فيها هذه السيدة بدور الأم لسيدنا موسى عليه السلام.

ومن المعروف أن الله عز وجل هيأ لموسى عليه السلام أن يعود إلى أمه ليرضع منها عندما حرم عليه المراضع، ولكن الرضاعة وحدها لا تكفي. وهنا إشارة لطيفة من إشارات الإعجاز القرآني، لو كانت الرضاعة وحدها تكفي بالتربية وتقوم بها لتشابه الناس جميعًا، كالذين يأكلون نوعًا واحدًا من القمح أو من الطعام، ولما كان لامرأة فضل على امرأة أخرى، ولما كان لامرأة ما أثر خاص على الولد من امرأة أخرى. إن التربية إذن ليست هي الرضاعة، بل هي إضافة إلى ذلك العناية والرعاية والحنان والعطف والدفء في أحضان الوالدين، وهذا ما وفرته العناية الإلهية لموسى عليه

السلام في بيت فرعون ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾. وهـذا هو دور الوالدين كليهما، وهذا متمثل في قوله عز وجل (وقضى)، وهذا سر ربط طاعة الوالدين بعبادة الله عز وجل وتوحيده والإيمان به إلهًا واحدًا لا شريك له.

وما أظن أن امرأً من المسلمين، في كل أقطارهم وأزمانهم دار في خلده عندما يقرأ هذه الآية أو غيرها من الآيات التي تحث على طاعة الوالدين والإنفاق عليهما أن يميز بينهما في هذه الطاقة والرعاية. والذي نود التوكيد عليه في هذه الكلمة أن الله عز وجل أقام منهاج الإسلام على التكافؤ بين الوالدين: الوالد والوالدة، الأب والأم، وأن كل ما يخالف هذه القاعدة الإلهية هو من صنع الإنسان. ودائمًا يكون الإنسان هو الذي يفسد بعض جوانب التشريع الإلهي الذي أراده الله عز وجل لإصلاح الأرض، فالدين هو الوجه الأكمل لكل ما في الأرض من أنظمة وحقائق علمية، ولكل من على الأرض من إنسان يتعامل مع الكون. ولو أن الإنسان سار وفق شرع الله كاملا في كل ما شرع له، لصارت الدنيا جنة بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، ولكن الإنسان يفسد الأرض بعد إصلاحها، ويضع من التشريعات والقوانين ما يخالف في كثير منها شرع الله الحكيم، وبعد ذلك ينسى الإنسان ما فعل، على الرغم من أنه يعيش فيه، ويعاني من إفساده، وعندما يحاول حله وعلاجه ينسبه إلى الدين وأحيانًا إلى القرآن الكريم، وهذا هو الخسران المبين، والبهتان العظيم الذي يقع فيه كثير من الناس.

إن هذه أفكار انْسَاقَ إليها الخاطر عند التأمل في قوله عز وجل (وقضى) في مطلع الآية الكريمة ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾.

﴿ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا ﴾

(٢)

نتدبر بعد هذا قوله تعالى: ﴿ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا ﴾ ولو أن الباحث أو القارئ نحّى قوله تعالى هذا جانبًا، مؤقتًا، وطلب من أي إنسان أن يعلن رأيه في صورة رعاية الوالدين وفق اجتهاده الشخصي، لقال بكل يقين: عليك أن ترعى الشيخين الكبيرين بكل ما تملك من إخلاص ووفاء. وما أظن أن امرأً في الوجود كله يمكن أن يخطر في باله أن يقول هذا القول الإلهي المعجز ﴿ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا ﴾. والشيء اللافت للنظر بكل الدهشة والإعجاب قوله تعالى: ﴿ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا ﴾. فلماذا «أحدهما أو كلاهما» أولا؟ ولماذا تقدم «أحدهما» على «كلاهما»؟ مع أن المتبادر إلى القلب البشري، والرأي الإنساني كما ذكرت قبل قليل أن يقول «كلاهما» دون أن يخطر بباله أن يقول «أحدهما» بَلْهَ أن يقدمه. ولكن علم الله عز وجل محيط بالبشر، وهو عز شأنه العليم بما خلق، وقد شاءت حكمته سبحانه أن تتفاوت أعمار الناس، وألا يعلم أحد متى تكون وفاته، ولهذا يكون الغالب على أحوال الأسر الإنسانية أن يكون أحد الوالدين حيًّا، والآخر متوفى، منتقلا إلى جوار ربه، ولو نظر كل منا إلى المحيط الذي يحيا فيه، وإلى الأسر القريبة منه، أو التي يعرفها ويتصل بها بعلائق النسب أو المصاهرة لوجد أن أكثرها قد فقد أحد الوالدين، والآخر يعيش في كنف أولاده، وأن قليلا من الأسر يعيش فيها الوالدان معًا. إن هذا الحكم لا يملكه إلا الله عز وجل، ولا يقوله إلا هو جل شأنه، ولا يرد إلا في القرآن الكريم، وتلاحظ أن كلمة «أحدهما» تحتمل أن تكون هي الأم، أو تكون هي الأب، ولا فرق في ذلك، ولا يغير هذا من الرعاية الواجبة التي سترد بعد قليل في سياق الآية شيئًا.

وثمة لطيفة أخرى في قوله تعالى ﴿ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا ﴾: ذلك أن الوالدين

كليهما في حال وجودهما معًا، يعين أحدهما الآخر، ويرعى كل منهما صاحبه قدر استطاعته، ويسرّى أحدهما عن رفيقه في شيخوخته، أما (أحدهما) عندما يكون وحده، فإنه يكون غريبًا حزينًا وحيدًا فهو بحاجة أشد إلى الرعاية والعناية والمواساة الإنسانية، ولذلك قدمه الله عز وجل ليثير اهتمام أبنائه به، حتى لا يشعر بالغربة والوحدة وهو في بيته. إن هذا الحكم الإلهي، أو هذا التوجيه الإلهي يدل دلالة يقينية على المكانة المتكافئة بين الرجل والمرأة في ميزان الله، وفي آيات القرآن الكريم.

فإذا مضينا مع الآية الكريمة نجد جواب الشرط الذي ما زلنا ننتظر الوصول إليه بعد أن وقفنا وقفة لا بأس بها مع فعل الشرط، وتمام الجملة في الآية الكريمة قوله عز وجل: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾. وجملة «فلا تقل» هي جواب الشرط، وهي بأسلوب النهي، والنهي هو طلب الكف عن فعل يقوم به المرء. والمرء يمكن أن يقوم بهذا الفعل الذي يؤذي والديه، والله عز وجل نهاه عن القيام بأي فعل أو قول مهما كان صغيرًا يمكن أن يسبب أذى لوالديه. وربما كان تعبير «فلا تقل لهما أف» أكثر التعبيرات دلالة على حرص المنهج الإلهي على رعاية الوالدين واحترامهما. وليس في اللغة أصغر من هذه الكلمة «أف» ولكنها على الرغم من صغرها لها دلالة كبيرة، وتصور موقفًا اجتماعيًّا شائعًا، وأسلوبًا في القول منتشرًا على ألسنة بعض الناس، يقولون: «أف» تعبيرًا عن التضجر والملل وعدم الاحترام. ويقول أهل اللغة: إنّ هذه الكلمة «أف» هي اسم فعل مضارع، إذا بنيت على السكون فهي تعني شيئًا محددًا، كقولك: أف للدلالة على ضجر المرء وملله من تصرفات والده، أما إذا كانت منونة، كما وردت في القرآن الكريم، فهي عندئذ نكرة، تدل على العموم، أي على كل ما من شأنه أن يؤذي الوالدين، ويكسر أَنْفُسَهما ويحزنهما، سواء أكانت كلمة «أف» أو أي كلمة غيرها تؤدي معناها.

وإن كلمة «أف» بيان قرآني عال؛ لأنها تصوير واقعي لمشهد حياتي شائع

ومستمر في حياة الناس، ولا يملك علم هذا المشهد واستمراره في أوساط الناس إلا الله عز وجل رب الناس، العالم بما خلق ومن خلق وهو اللطيف الخبير.

وفي قوله تعالى: «ولا تنهرهما» نهي آخر معطوف على النهي الأول. والنهر هو زجر المرء وإغضابه، والزجر هو كف المرء ومنعه من الشيء بقوة وقسوة. فانظر إذن إلى قسوة الموقف وشدته على الوالدين إذا نهرهما الولد في أي أمر من أمور الحياة. وأرى في قوله تعالى «ولا تنهرهما» هكذا بصيغة التثنية، مع أن إمكانية أن يكون أحد الوالدين هو الحي، أقوى من إمكانية حياة الاثنين، أرى فيها تعبيرًا عن شدة التصاق الوالدين أحدهما بالآخر. فإن نهر أحدهما وزجره هو نهر للآخر وزجر له كذلك حتى لو كان ميتًا، فإن نهر أحد الوالدين، وهو حي، فيه إساءة للآخر، واحتقار له، وهذا يؤذي الوالد الحي إيذاء شديدًا.

وأود أن أقارن أو أوجه النظر إلى ما يجري الآن من بعض الأبناء في إيذاء شديد لوالديهما، أحدهما أو كلاهما، يزجرونهما أو يهينونهما لأقل كلمة لا تعجبهم، وقد يقدمون عليهما أبناءهم وأزواجهم، والقصص في ذلك كثيرة، والمحاكم مليئة بالدعاوى على مثل هذه القضايا المحزنة، ودور العجزة والمسنين شواهد حية على ذلك. وهذا مثال جديد على أن الإنسان عندما يخالف عن أمر ربه يفسد في الأرض. ومثال آخر على أن بر الوالدين كما أمر الله عز وجل هو أجّل درجات العبادة، مع الإيمان بالله وتوحيده، وقد أوصى رسول الله ﷺ برعاية الوالدين وبرهما في أحاديث كثيرة، وقال عليه الصلاة والسلام ما يدل على أن من أدرك أحد والديه أو كليهما ولم يدخلاه الجنة فهو المحروم.



﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾

في هاتين الآيتين ٢٣، ٢٤ من سورة الإسراء اللتين تتحدّثان عن بر الوالدين وَرَدَ الأمرُ ست مرات ولكنْ في ثلاث صيغ: الأولى في قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ وهذه جملة خبرية بمعنى الطلب، وأسلوبها أسلوب الحصر، وهو يفيد الأمر بألاّ نعبد إلاّ الله. والثانية في قوله تعالى: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ وهي أمر بصيغة المصدر الصريح. ثم تأتي الثالثة في قوله تعالى: ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾. والرابعة في قوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ ثم الخامسة والسادسة في قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ .وورد النهي في صيغتين ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾، ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾. وورد الأمر الأول بالإحسان إلى الوالدين ثم النهي في المرتين، ثم الأمر في الصيغ التالية، وهذا أمر طبيعي مفهوم، يدل على سمو النسق القرآني وبيانه العالي. فالأمر بالإحسان أمر عام، والإحسان قاعدة وأصل لكل خلق كريم، فإذا تحقق الإحسان فهو دليل على أن المرء لا يقوم بأي عمل فيه إيذاء أو زجر للوالدين، والإحسان للوالدين لا يعني طاعة الوالدين فحسب، بل طاعتهما وحبهما واحترامهما ومعاملتهما أرقى ما تكون المعاملة وأسماها؛ لأن الإحسان أعلى درجات العمل، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه». وكذلك بر الوالدين يجب أن يكون ساميًا، عاليًا سمو ارتباطه واقترانه بطاعة الله عز وجل وعبادته. ثم يكون النهي عن أي إساءة للوالدين مهما قلّت، حتى لو كانت كلمة «أف»، ثم النهي عن زجرهما ونهرهما، فإذا تم ذلك تكون صفحة المعاملة بين الولد ووالديه ناصعة بيضاء؛ لأن احتمال الإساءة والزجر قد انتهى وانتفى، ثم يأتي الأمر بأن نقول لهما قولا كريمًا، وأن نخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وأن نطلب من الله عز وجل أن يرحمهما جزاء تربيتهما لنا أطفالا صغارًا.

وفي هذه الصيغ دلالات واسعة، أرجو أن أتمكن من الإشارة إليها. فالأمر في اللغة هو طلب القيام بالشيء على سبيل الإلزام، والأمر هنا إلهي ملزم.

والقول الكريم هو القول اللين اللطيف، مثل يا أبت، أو يا أبتاه ويا أمي أو يا أماه، دون أن يسميهما أو يكنيهما؛ لأن التسمية أو التكنية من الولد قد تدل على الجفاء، أما من غيره فقد تدل على الاحترام، وتحدث في هذه الأيام تصرفات مؤذية، يظن أصحابها مع الأسف أنها تصرفات تقدمية راقية، فتجلس الفتاة (المتعلمة) مع أمها وعندها مجموعة من صديقاتها ويدور بينهن نقاش، فإذا البنت تخاطب والدتها باسمها الشخصي كأنها إحدى صديقاتها، ومهما حاولت الأم التظاهر بأن ذلك أمر لا يؤذيها، إلا أنها في قرارة نفسها بكل تأكيد تشعر بالضيق والحزن؛ لأن الأب والأم عند الكبر بحاجة إلى الإحساس باحترام أبنائهما، وإلى الشعور بالأمان من تقلبات الزمن بوقوف أبنائهما معهما. فالقول الكريم من الأبناء، والاحترام من خلال المعاملة يشعر الوالدين بالدفء والأمن، والراحة النفسية، أما غير ذلك فيشعرهما بالضياع، كأنهما في مهب الريح؛ لأن الأولاد غير مضمون ودهم ورعايتهم وحنانهم، ولذلك أمرنا الله عز وجل أن نقول لهم قولا كريمًا؛ لأن القول ترجمان القلب، وحتى لا يكتفي الإنسان بالقول في رعاية والديه، أُمر الولد أن يُتبع القولَ العملَ، فيخفض لوالديه جناح الذل من الرحمة، وهذه – كما يقول الإمام القرطبي في تفسيره ج١٠ ص٢٤٣ – استعارة في الشفقة والرحمة والتذلل لهما؛ تذلل الرعية للأمير والعبيد للسادة، كما أشار إليه سعيد بن المسيب..

والذلة غير مقبولة إلا في موقف الولد من والده، تكون جميلة مستحبة. جميل أن يخدم الولد والده، وأن يقبِّل يده، وأن يساعده إذا مشى، وأن يرعاه إذا ضعف، وهذه الذلة هي ذلة القوي العزيز أمام من هو أعز منه وأقوى، ولذلك يتذلل العبد أمام ربه وهذا ما يسمى الخشوع والخضوع، والمسلمون وصفهم الله عز وجل بأنهم أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، فالذليل أمام أخيه المسلم، أو أمام أبيه، هو قوي عزيز شديد أمام أعدائه ولا تعارض بينهما؛ رهبان في الليل وفرسان في النهار. وما أجمل أن يتذلل الولد لوالده بقوله وبتصرفاته، وذلك كله دليل على الرحمة كما نصت الآية الكريمة، ثم

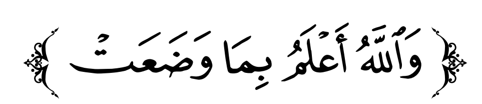
طلب الله عز وجل من الولد أن يتوجه بالدعاء إلى الله عز وجل بأن يرحم والديه لقاء تربيتهما له وهو صغير. ولعل هذا التشبيه أن يكون أعطى أسمى ما يمكن قوله في بيان رحمة الوالدَين لأبنائهما وهم صغار.

وإن الولد لو وضع والديه في عينيه لما قام بحقهما، ولا بجزء يسير من حجم رعايتهما له وهو صغير. إن الأب يرعى ولده وهو أشد ما يكون حرصًا عليه، ويتمنى لو أنه يعطيه من ذوب نفسه، ومن ماء عينيه، ومن دمه وقلبه لكي يحميه ويرعاه، وينميه. ولكن الولد يرعى والده وهو كبير، وهو ينتظر أن يختاره الله إلى جواره، بحجة أنه يطلب له الراحة، وهو إنما يطلبها لنفسه، وشتان بين رعاية ورعاية، ولذلك تدبر قول الله عز وجل: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾. نعم يا رب، اللهم ارحمهما كما ربياني صغيرًا، واقسمْ لي من رحمتك قدر ما كان من رحمة وعطف في قلب والـديّ. وما أظن والدًا يرغب في أكثر من ذلك؛ لأن رحمة الوالدين من رحمة الله. وحرص الوالدين على أولادهما لا تعدلها سوى رحمة الله عز وجل، وكل ولد يعرفها، ولا يتحقق منها إلا عندما يصبح هو والدًا له أولاد، عندئذ يدرك معنى حب الوالدين وبرهما، ويدرك كيف كان والداه يحبانه ويرعيانه.

ثم انظر في النهاية إلى قوله تعالى (كما ربياني)، والفاعل هما الاثنان، وليس واحدًا منهما فقط، هما المربيان ولم يفرق الله عز وجل بين الوالدين في التربية، في مقدار التربية، نعم، ربما يكون لكل منهما مجال في التربية، وأسلوب في التربية، ولكنهما بكل تأكيد متكاملان في تربية الأبناء، مكلفان القيام بذلك. ولا يكفي أن يقوم بالتربية أحدهما دون الآخر، تلك إذن تربية ناقصة ينعكس أثرها السيئ على نفوس الأبناء. وهو توكيد إلهي على أن الأب والأم كليهما له نصيب في التربية كبير. وأن هذا الجهد جهدٌ متكامل، وأنه لا بد منه في تنشئة الأبناء، وأن الرضاعة من الأم ليس وحدها هي المطلوب منها، بل هي تشارك زوجها سواء بسواء في تربية الأبناء، وهذا المفهوم الأكيد للفعل المسند إلى ألف الاثنين (ربّياني)، في قوله عز وجل:

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾.




﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ ﴾

بعد هذه الجولة الواسعة في مصطلحات المرأة والرجل في ميزان القرآن، وفي دلالة اللغة تبين لنا حكمان قاطعان لا يماري فيهما إنسان عند تدبر آيات القرآن الكريم حق التدبر.

أولهما- أن القرآن الكريم تحدث عن الرجل والمرأة عنصرين متكاملين، كل عنصر قائم بذاته له كيانه، وله وظيفته في الحياة، ولذلك لم نجد تفريقًا في آيات القرآن بين (الذكر والأنثى)، بل تحدث عنهما كمفهوم واحد متكامل ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۞ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۞ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۞ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴾. فكما أن الليل والنهار يتكون منهما اليوم الإنساني، وأنه لا يمتاز أحدهما عن الآخر بشيء، إلا أن لكل منهما وظيفة خلق من أجلها، ويقوم بها، فكذلك الذكر والأنثى يتكون منهما العنصر الإنساني الذي به تستمر الحياة، لا يمتاز أحدهما عن الآخر بشيء، إلا أن لكل منهما وظيفة خلق من أجلها ويقوم بها، وفي كثير من آيات القرآن الكريم وجدنا أن الله عز وجل يجمع بينهما بلفظ واحد، مثل أولادكم، وأولادهن، وأبنائكم، وهكذا، فإن هذه الألفاظ لا يقصد بها الذكور دون الإناث، ولا الإناث دون الذكور، وهذا مطلق المساواة بين عنصرين لا يجوز التفكير أن بينهما فرقًا، أو أن أحدهما خير من الآخر، أو مقدم عليه، قال تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾.

وثانيهما- أن الله عز وجل خلق الرجل لوظيفة أساسية له في الحياة، فطره فطرة خاصة من أجل أن يقوم بها، وخلق المرأة لوظيفة أساسية لها في الحياة، فطرها فطرة خاصة من أجل أن تقوم بها. وهذا عنصر التفريق بينهما، وقد أفضت القول في هذا الأمر في الصفات السابقة، وبخاصة عند عرض دلالة قول الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾. فالرجال مفضلون ببعض الأشياء والنساء مفضلات ببعض الأشياء، وهذا لا

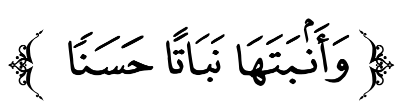
يعني أن أحدهما خير من الآخر، بل يعني أنه في هذا الأمر خير من الآخر، فالرجل في وظيفته خير من المرأة لأنها بحاجة إليه، والمرأة في وظيفتها خير من الرجل لأنه في حاجة إليها. ولهذه الخصوصية في حياة الرجل وفي حياة المرأة، فصّل الله عز وجل الظروف التي يمر بها الرجل في قيادة الأسرة في مجال الحياة، وفصّل الله عز وجل الظروف التي تمر بها المرأة، وبها تقوم بوظيفتها، ولذلك جاءت آياتٌ في القرآن الكريم مفصلةً أحكام الخطبة والزواج والمهر والعدة في مختلف أحوال المرأة مع الرجل، سواء أمات عنها أم طلقها، وسواء أكانت حاملا أم مرضعًا، وفصلت في القرآن الكريم أحكام الحيض والطهر والميراث وكل ما يتعلق بحياة المرأة والرجل في إطار الأسرة.

إن هذه الوظيفة الأساسية لكل من الرجل والمرأة ينبغي ألا يشعر أحد من الناس بأن أحدهما ممتاز عن الآخر بشيء في أصل الخلق الإنساني، بل إن أحدهما يمتاز عن الآخر بعمله في أثناء حياته، ولذلك تسمو المرأة حتى تمتاز عن الرجل وتتفوق عليه في كثير من الأمور درجات كبيرة، وكذلك قد يفعل الرجل، ويحضر لي في ذلك مثل قرآني عظيم، قلَّ مِنَ الناس مَنْ يدرك دلالته؛ ذلك أن الله عز وجل اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، وفي آل عمران كانت امرأة عمران تتمنى أن يكون لها ولد، فنذرت لله نذرًا إن أعطاها ولدًا لتجعلنه محررًا خالصًا لخدمة دين الله عز وجل ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ وعندما وضعت السيدة امرأة عمران مولودها كانت المفاجأة التي لا يقدرها إلاّ الله عز وجل، ولا يعلمها إلا الله عز وجل، كانت المفاجأة أن المولودة أنثى، ولعل هذا كان على غير ما تتوقع وتنتظر امرأة عمران ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ وهنا يقول الله عز وجل: والله أعلم بما وضعت. وفي هذه الآية الكريمة معان غزيرة سامية، تتجاوز المعنى البسيط الذي يقوله بعض

الناس بأن الله كان يعلم ولادتها أنها أنثى، إن هذا فهم بسيط، ولكن الله عز وجل يريد أن يعلي من شأن المولودة، وأن يخبرنا بأنه سيكون لها شأن عظيم، وبأنها ستقوم في الحياة بدور خطير، وأنها ستكون إحدى السيدات الكاملات في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ أي أن الله عز وجل وحده هو الذي يعلم حقيقة هذه المولودة ومكانتها وقيمتها، ولو علمت السيدة امرأة عمران ذلك، لما فوجئت بهذا الأمر، ولكنها لا تعلم، وهي لا تعرف سوى ما يعرفه كل الناس. إن الرجل ربما يكون أقدر على خدمة بيت الله، وخدمة دين الله من المرأة، فقال الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾. فكان الذي وضعته هي مريم عليها السلام، وكانت هي أيضًا مثلا من الأمثلة التي ضربها الله عز وجل على قدرته، ويشبه هذا من يرسل شخصًا للقيام بمهمة ما إلى أحد البلدان، ثم يرسل لحاكم ذلك البلد أنني أرسلت لك فلانًا لكي يقوم بهذه المهمة، وأنا أعلم وأعرف من أرسلته لك، أي أن من أرسلته لك شخص عظيم سوف يقوم بواجبه خير قيام، هذا مثل، ولله المثل الأعلى..

ومن هُنا لا يحق لامرئ ما في هذه الحياة أن يقول: إن الرجل خير من المرأة، أو إن المرأة خير من الرجل، بل إن الرجل والمرأة كليهما عنصران أساسيان في الحياة، كل يقوم بعمله، ولو أن الرجل والمرأة قام كل منهما بدوره دون أن ينشغل بهذه الآراء، ودون أن يشغل نفسه بالرد على هذه الأفكار التي ما ينبغي لها أن تكون في الأصل، إذن لسارت الحياة كما يجب أن تسير، بخير وسلام، وتوفيق ونجاح ومحبة، ولعل من تمام القول في هذه المسألة ما يتردد في المجتمع من عقوبات تنالها المرأة دون الرجل في بعض المسائل والمواقف التي تحدث بينهما.




﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾

تتحدث الآية الكريمة عن السيدة مريم عليها الصلاة والسلام، إحدى نساء الدنيا الكاملات، في قوله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران الآية ٣٧ ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾..

وثمة أسئلة كثيرة ومعانٍ غزيرة، ودلالات جميلة تفيض من هذه الآية الكريمة في سياقها؛ فالسيدة مريم رضي الله عنها كانت نذرًا لله وهي في بطن أمها قبل أن تعلم أمها ما سيكون مولودها ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾. فانظر إلى المناجاة بين امرأة عمران وربها، ولك أن تتساءل قبل أن تستغرق في النظر والمناجاة عن (امرأة عمران): ولِمَ ذكرها الله عز وجل بهذه الكنية أو الوصف الشبيه بالكنية ولم يذكرها باسمها كما ذكر مريم، أتراه لأن تكريمها إنما كان لأنها امرأة عمران، وللصلة بينها وبين عمران وليس لها مجردة أو منفصلة عنه، أما تكريم مريم ورعايتها وإنباتها نباتًا حسنًا -كما سنقول- فإنما كان من أجلها هي شخصيًّا، لكي تكون العبرة منها وحدها، وفيها وحدها؟ هكذا جرت سنة القرآن الكريم، إن كان الدرس المقصود بالآية يتحقق من صلة المرأة بزوجها، ذكرها من خلال هذه الصلة فقال: (امرأة نوح) و(امرأة لوط) و(امرأة فرعون) و(امرأة العزيز) ولم يذكر أسماءهن؛ لأنه لا عبرة بذلك، أما مريم فإن لها في حياتها لشأنًا، وأي شأن، ومريم هي الصورة الإنسانية للنذر الذي قدمته أمها لربها، فأمها نذرت لله، والنذر واجب الأداء. والله يعلم ما الذي كانت تفكر فيه السيدة امرأة عمران عندما نذرت لله ما في بطنها محررًا، وأغلب الظن أنها كانت ترجو أن يكون ذكرًا لكي يقوم بخدمة الناس، ورعاية حقوقهم في طاعة الله، دون أن يفكر في أي جزاء أو مقابل، وأن يكون عمله خالصًا لوجه الله الكريم، حرًّا في تصرفاته،

لا أحد له سيطرة عليه. وربما كانت السيدة امرأة عمران تتوقع أن يكون الذكر أقدر على ذلك من الأنثى، وهذه حقيقة اجتماعية يشاركها فيها كل الناس، من قبل ومن بعد، وتظهر هذه الفكرة في قولها لربها كأنها تعتذر لـه: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾.

وفي قولها هذا الأخير تظهر سيطرة الإحساس بقدرة الرجل المتفوقة على قدرة المرأة في ميادين الخدمة العامة، فقالت: (وليس الذكر كالأنثى)، وقد يقول قائل: إن الأولى أن تقول وفاقًا لذلك: (وليس الأنثى كالذكر)، ولذلك تجد بعض الناس يخوضون فيما ليس لهم به علم ويتخذون من قوله تعالى ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ دليلا على تفضيل الرجل على المرأة في ظنهم، وتلك مقولة لم يعد خافيًا على أهل العلم والنظر عارها وعوارها..

وإنما الذي ينبغي أن نحتفل به هو أن هذه الآية الكريمة ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ تصور تصويرًا شافيًا دقيقًا دخيلة قلب المرأة التي فوجئت بوضعها أنثى، وتصور فكرة راسخة عند الناس جميعًا أن الرجل بقوته وقدرته ليس كالأنثى الضعيفة الناعمة التي لا تطاول الرجل في تلك المهمات الكبار. إن المرأة صادقة مع نفسها وخرجت الفكرة من صدرها على لسانها صادقة دقيقة تصور حقيقة مشاعرها، ثم إنها رضيت بذلك، وقدمتها لله عز وجل وسألته سبحانه أن يحميها ويبعدها عن شرور الشيطان الرجيم، ومما يدل على ذلك قوله تعالى في الآية التي بعدها: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾. ربما على غير ما تتوقع أن الله عز وجل يعلم ما خلق ومن خلق، ويعلم سبحانه أن الرجل والمرأة كلاهما يستطيع أن يقوم بأمر الله، وأن يكون عبدًا لله، وأنّ يخلص حياته وينذر عمره لله، بل إن الله عز وجل يريد أن يؤكد هذه الحقيقة التي تغيب عن بال الناس، فبيَّن بالبرهان الساطع أن المرأة يمكن لها، إذا أعدت لها الظروف المناسبة، أن تكون صنوَ الرجل في صنع الحياة، سواء بسواء، ولذا قال الله عز وجل بعدها: ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾. فما هذا النبات الحسن وكيف يكون؟

إنّ اللّه عز وجل تقبّل نذر السيدة امرأة عمران بقبول حسن، وكان القبول حسنًا مثلما كان النذر حسنًا صادقًا مخلصًا.. يقول اللّه عز وجل: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾..

وفي هذا دليل على أن النذر لا يكون إلاّ للّه، وأن يكون المرء فيه صادق النية، مخلص التوجه إلى اللّه، وأن يكون النذر في أمر عزيز غال، وليس في شيء ملّه الإنسان وأحبَّ أن يتخلص منه، ثم إنّ النذر يمكن أنْ يقبل أو لا يقبل، ولا يتقبل اللّه إلا من المتقين المخلصين، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾. ويبدو أن النذر كان شائعًا في حياة العرب، ولعلّه ما زال كذلك؛ فاللّه عز وجل يصف عليًّا وفاطمة رضي اللّه عنهما بأنهما ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾. واللّه عز وجل يخبر الناس ويحذرهم في الوقت نفسه من أن تكون أعمالهم غير خالصة له جل شأنه، يقول اللّه عز وجل: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾. وهذا الختام للآية الكريمة يدل على أن النفقة والنذر كليهما إن لم يكونا خالصين للّه فهما من فعل الظالمين ولا يقبلهما اللّه عز وجل.

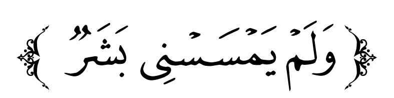
إن صورة النذر في القرآن الكريم والنصوص الواردة فيه تدل بوضوح على سمو نذر السيدة امرأة عمران وسمو قبوله وحسنه عند اللّه، ومن هذا الحسن ومظاهره أن اللّه عز وجل أنبت مريم ابنة عمران نباتًا حسنًا، وكفلها زكريا. ولك أخي القارئ أن تتدبر قوله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾، وأن تنعم النظر في كلماتها؛ فالفتاة الصغيرة تنبت كالنبات، ولعله من المناسب الآن أن تدعو علماء الاجتماع والتربية وعلم النفس أن يتدبروا معنا هذه الآية الكريمة، فالإنسان ينبت كالشجرة في الأرض، وهذه حقيقة علمية يذكرها القرآن بإشارة سريعة من خلال سياق عام لم يخصص لحديث عن التربية، إنما كان في عرض قصة ولادة مريم عليها الصلاة والسلام.

وهذا شأن القرآن الكريم، أنه لا يسوق النظريات العلمية بالتحديد العلمي المعروف في المدارس والجامعات، بل هو يشير إلى الحقيقة العلمية ويدعو الباحثين للنظر والبحث والتبصر، والحقائق العلمية تتوالد وتتسع يومًا بعد يوم، ولذا فإن النظريات احتمالية دائمًا، أما الحقائق الكبرى فهي ثابتة. والقرآن يشير بإعجاز إلى الحقائق ويترك التفصيلات للأيام والقرون والأمم لتقول في كل عصر ما يناسبها وما نتوصل إليه من حقائق. والشجرة في الأرض تحتاج إلى أرض صالحة للزراعة، وإلى الماء والهواء، والرعاية والعناية والاهتمام، وهي بذلك تصبح شجرة وارفة الظلال مثمرة طيبة، وفيما عدا ذلك فهي إمّا أن تموت أو تنبت شجرة خبيثة لا خير فيها. وكذلك الإنسان، فهو يولد على الفطرة، لا يعلم شيئًا ولا يعرف سلوكًا، وكل ما يكون عليه المرء من بعد ذلك إنما يكون اكتسابًا من بيئته بما فيها من عناصر الحياة، حتى ما يمكن أن يكون الإنسان ورثه من مزايا، فإن هذه المزايا أو الصفات تضمر وتنزوي إذا ووجهت بتدفق العادات والتقاليد والأفكار المكتسبة، تصور لو أنك أخذت توأمين أردنيين وليدين، وجعلت واحدًا منهما هنا، وأخذت ثانيهما إلى بلد بعيد، كأميركا مثلا أو الهند أو الصين، ثم جمعت بينهما بعد عشر سنوات، سيكون أمامك شخصان مختلفان تمامًا أحدهما عن الآخر بصفاته وسلوكه ولغته، وعاداته ومعتقداته وتصرفاته، اللهم إلا بعض الشبه من كونهما توأمين، أما إذا لم يكونا في الأصل توأمين، فإنك تجد أمامك شخصين مختلفين تمامًا في كل شيء. فلعل هذا أن يكون درسًا لكل من يهتم بأمور التربية والتعليم، بل هو درس لكل امرئ يسترعيه الله رعية.

إن التربية شيء أساسي في حياة الأمم، والمرء ينبت كما ينبت الناس. يكون صغيرًا ضعيفًا ثم يشتد ويقوى عوده كما يفعل النبات، ثم إنّ في قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ لطيفة بيانية أخرى، ذلك أن مصدر الفعل أنبت هو إنبات. وكان المتوقع أن يكون القول (وأنبتها إنباتًا حسنًا)، ولو كان القول

كذلك لكان الحسن صفة للإنبات نفسه، لا للنبات، ولكان توكيدًا لعملية الإنبات. وأما في قوله عز وجل: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ فهو توجيه الحسن إلى النبات نفسه، إلى الزرع والنبات لا إلى عملية الزرع، فكل زرع ينبت، وكل جنين يولد، لكن ما الذي يكون بعد الإنبات وبعد الولادة، هذا هو السؤال؟ إن الله عز وجل يعلمنا دقائق الأمور، وعظيم المعاني بآياته الكريمة، وعلينا أن نؤمن بأن اللغة العربية هي لسان القرآن المبين، وأن علينا أن نهتم بلغتنا وأن نعيد إليها مجدها الغابر، حتى تعيد إلينا شخصيتنا الضائعة، وهذا ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.




﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾

في الآيات القرآنية التي تحدثت عن ميلاد السيدة مريم عليها السلام، ثم عن ولادتها هي نفسها سيدنا عيسى عليه السلام لطائف بيانية مشرقة كثيرة، تحدثت من قبل عن عدد منها في قوله عز وجل: ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾.

والآن أتحدث عن المعاني الدقيقة في قوله عز وجل من آل عمران الآية ٤٧: ﴿ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، وفي سورة مريم الآية ٢٠ قال عز وجل على لسان مريم عليها السلام: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ وفي الموازنة بين الآيتين الكريمتين اللتين تحدثتا عن موضوع واحد نجد عددًا من التساؤلات التي تصل بنا إلى لطائف بيانية قرآنية جميلة، ففي آية آل عمران قال الله عز وجل: ﴿ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ ﴾ وفي آية مريم قال الله عز وجل على لسان مريم: ﴿ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴾. في الآية الأولى كان الحوار مباشرة بين الله عز وجل وبين مريم عليها السلام، ولذلك ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ﴾. وهي تعلم علم اليقين جلال الله عز وجل وعظمته وقدرته منذ طفولتها حيث كان يأتيها طعامها وشرابها في المحراب وهي لا تشعر، وعندما سئلت ﴿ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ ﴿ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾. هي إذن تقف بين يدي الله العظيم، فلم تلفظ أمامه سوى قولها ﴿ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ تأدبًا أمام الله، وخشية أن يصدر عنها في موقفها أمام الله ما لا يليق التلفظ به، أما في سورة مريم فقد كان الحوار بينها وبين رسول من عند الله (هو سيدنا جبريل عليه السلام) تمثل لها بصورة بشر، فهي تظن أنها تتحدث مع بشر عادي مثلها، قال تعالى: ﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ۞ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ۞ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ۞ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴾، ولذلك عندما أخبرها بأنه سيكون لها غلام، قالت بسرعة وبحدة: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴾، وهنا تتبدى للقارئ العزيز لطيفة أخرى وهي: ما ضرورة تحولها (ولم أكُ بغيا) بعد

قولها (ولم يمسسني بشر) مع أن هذا القول الثاني، الذي ورد في السورتين في آل عمران ومريم يكفي ويدل على المعنى؟ في هذا القول الإلهي تأكيد جازم من الله عز وجل أنه لا يجوز أن يمس المرأة أي بشر إلا بالطرق الشرعية الحلال التي شرعها الله عز وجل.

فالمرأة الحرة الشريفة الطاهرة لا يمسها إلا زوجها على سنة الله ورسوله، وهي لا تسمح بأن يمسها إنسان غيره، وفيما عدا ذلك فإن المرأة تخشى أن تدخل في أوصاف أخرى لا تتصف بها المرأة الحرة الطاهرة. وفي السيرة النبوية الشريفة ما يدل يقينًا على ذلك؛ ففي حديث بيعة النساء اللواتي أتين رسول الله ﷺ يبايعنه على الإسلام، قال لهن ضمن شروط البيعة: (وألا يزنين)، فقالت امرأة بدهشة واستغراب: «وهل تزني الحرة يارسول الله»؟! كان هذا مفهوم الناس وعقيدتهم، الحرة لا تزني ولا يخطر ببالها هذا أبدًا. وفي أمثال العرب «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها».. وقد قالت السيدة مريم هذا بيقين لأنها تخاطب بشرًا مثلها، في ظنها، ولذلك دافعت عن نفسها فقالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، والإنسان يتلفظ في كل مقام بما يناسبه، وقديمًا قالوا: لكل مقام مقال. ولعلك أدركت أخي القارئ سبب قولها في آية آل عمران: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾. وفي سورة مريم ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾، وأدركت أيضًا سبب قولها في آل عمران: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ وفي سورة مريم قولها ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ فلم تذكر كلمة رب، ذلك أنها في الآية الأولى كانت تتحدث مباشرة مع ربها وفي الأخرى كانت تتحدث مع رسول من عند الله؟.



﴿فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾

الأخوة في استعمال القرآن الكريم تجمع بين الذكور والإناث، ولا تفضل فريقًا على فريق، ولا جنسًا على آخر، ولا تفضل أخًا على أخت، ولا أختًا على أخ، يقول الله عز وجل في سورة الحجرات الآية العاشرة: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ سمى الجماعة الواحدة (أخًا)؛ لأن الأخوة جمع أخ. والأخ في معاجم اللغة مَنْ جمعك وإياه صُلْب أو بطن أو هما معًا. أي من جمعك وإياه صلب الأب أو بطن الأم أو هما معًا. وقد اعتاد الناس أن يسموا الأخ للأب والأم شقيقًا، ومن كان من الأب فقط فهو أخ لأب، ومن كان لأم فقط فهو أخ لأم، ولكن القرآن الكريم جعلهم جميعًا إخوة، بل المؤمنون كلهم إخوة في حكم الإسلام.

وعندما يقرأ الناس هذه الآية الكريمة يتمثل لهم معنى واحد لا غير وهو أنهم جميعًا أخوة في ميزان الله. وفي آل عمران يقول الله عز وجل الآية ١٠٣: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.. وإخوانا هنا تضم مجتمع المدينة كله، الذين كانون متناحرين متخاصمين فصاروا بنعمة الإسلام مجتمعًا متآلفًا متحابًا. والمجتمع لا يكون إلا بالبنين والبنات والآباء والأمهات. وكلمة (إخوان) في القرآن الكريم تشمل الجميع من أبناء المجتمع الواحد. ووردت كلمة (أخت) ثماني مرات، ووردت كلمة (أختين) مرة واحدة، (وأخواتكم) ثلاث مرات، (وأخواتهن) مرتين، وإضافة إلى معنى الأخوة الذي أوردته المعاجم، ورد لكلمة أخ وأخت معنى صاحب، أي مثيل ونظير، ففي قوله تعالى في الآية ٤٨ من الزخرف: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾. أي من نظيرتها ومثيلتها. وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ أي نظراءهم وأصحابهم. وفي قوله تعالى في مخاطبة مريم عليها السلام في سورة مريم الآية ٢٨: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ بمعنى: يا نظيرة هارون في الصفات والأخلاق والسلوك والأدب والعفة

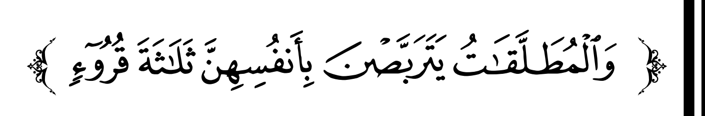
والشرف. وقد أفاض المفسرون في شرح هذه الآية الأخيرة وفي محاولة شرح المعادلة المنبثقة منها، إذ إن بين هارون عليه السلام وهو شقيق سيدنا موسى عليه السلام وبين مريم عليها السلام عدة قرون، فكيف تكون مريم أخته؟ ولذلك قال المفسرون: إن كلمة (أخت) هنا تعني نظيرة هارون، وفي كتابه (الدفاع عن القرآن ضد منتقديه) للأستاذ عبد الرحمن بدوي، وفي الصفحات ١٤٥-١٨٠ بحث رائع مفصل حول هذه الآية الكريمة ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾. وفي هذا البحث أورد المؤلف آراء المستشرقين وكثير من الدارسين حول هذه الآية، وأورد المواقف والدراسات المتنوعة في الأمم المختلفة، وانتهى بعد عرض الآراء المتنوعة إلى أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ معناه «أيتها المنحدرة من سلالة هارون». وقد ذكر الأستاذ عبد الرحمن بدوي أن يهود المدينة المنورة ومسيحييها، ومن تابعهم من أهل الجزيرة العربية فهموا هذه الآية بهذه الصورة. فمن الناحية اللغوية كان ولا يزال استخدام كلمة «أخ» و«أخت» أو «يا أخا» أو «يا أخت» متبوعة باسم القبيلة والقوم والنسب يحمل معنى المنحدر من القبيلة أو القوم أو النسب، وقد لاحظ الطبري والعديد من مفسري القرآن هذا الأمر وأعطوا له الكثير من الأمثلة، وبناء على هذا فإن هذه الآية الكريمة لم تثر في عهد النبي ﷺ أية مشكلة، فقد كان هذا المعنى شائعًا عند العرب ولذلك لم يلفت هذا القول انتباههم.

ونريد أن نقول في هذا السياق: إن كلمة أخ وكلمة أخت لم تشكل لدى أي إنسان إحساسًا بتميز جنس على آخر، بل دمج القرآن بينهما في كلمة أخوات كما مر قبل قليل، انظر في قوله تعالى في الآية ٢٤ من سورة التوبة: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ...﴾ فكما جمعت كلمة «أبناؤكم» بين البنين والبنات، كذلك جمعت كلمة «إخوانكم» بين الإخوة والأخوات، ومن يتدبر آيات القرآن يجد ترتيب الشخوص في القرآن الكريم ترتيبًا يتفق وأشواق النفس الإنسانية وفطرتها السليمة، فانظر في الآية السابقة كيف تقدم الآباء ثم الأبناء ثم الإخوة ثم الأزواج ثم العشيرة، ولا يستطيع أحد

أن يماري في ذلك. وفي آية سورة النساء فيما يتعلق بالمُحرّمات على المرء يقول اللّه عز وجل في الآية ٢٣: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ ﴾. فانظر كيف تأتي الأخوات بعد الأمهات والبنات، فالأم أولا ثم البنت، ثم الأخت، ثم العمة، ثم الخالة.. وإن ورود هذه الشخوص في القرآن الكريم تكريم لهن، وإعلاء لشأنهن؛ لأن الأم والبنت والأخت كل منهن كيان مستقل لها وجود وأثر في حياة المرء، وبالتأكيد لكل منهن حقوق على المرء ينبغي له أن يقوم بها، ومن أجل ذلك أقام الإسلام صرح صلة الرحم التي تقوم بالربط الوثيق بين الأسر التي يرتبط بعضها ببعض برباط المصاهرة والنسب، حتى لا تقطع صلة الأخ بأخته، أو المرء بشكل عام ببناته وأخواته، وقد جعل لهن حقوقًا شرعية وحقوقًا في صلة الرحم.

وإني لأرجو أن أطلع ذات يوم على دراسة علمية جادة تقارن بين صلة الرحم في آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ وتبيّن أثر ذلك في مجالات الحياة. إن صلة الرحم مؤسسة قرآنية تقف وراء فرض الميراث بأنصبائه الشرعية. ولعل (الأخت) هي المشار إليه الأول في ميدان صلة الرحم، بعد أن أخذت الأم والبنت حقوقهما كاملة في الميراث، ولا أجد لهذه الصورة السامية في آيات القرآن الكريم انعكاسًا صحيحًا في صفحات الحياة الاجتماعية، فكثيرًا ما يقصر الناس في حقوق بناتهم وأخواتهم، وبعض الدارسين أو بعض الكُتّاب ينسب ذلك إلى أحكام الدين، والدين من كل ذلك براء، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.




﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾

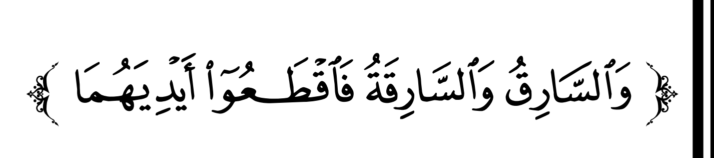
لطالما حدقت في هذه الكلمة العجيبة في السياق القرآني المعجز، كلمة (يتربصن) التي تكاد أن تكون صورة كاشفة عن أعماق نفس المرأة المطلقة أو المرأة التي يتوفى عنها زوجها. وكلمة (يتربص) معناها ينتظر على أحرّ من الجمر، ينتظر بكثير من التحفز والتشفي والاستعجال، ينتظر أن تنقضي الشهور والأيام في لمح البصر، والمطلقة – غالبا– تكون غير آسفة على حياة ماضية مع زوجها لم يكتب لها النجاح، ولذلك فهي تنتظر عدتها أن تنتهي لكي تبدأ حياتها من جديد، عسى أن تكون الحياة الجديدة أسعد حظًا..

وكلمة (قروء) هي جمع قُرْء، وهو الحيض والطهر منه، فثلاثة قروء معناه أن تحيض المرأة ثم تطهر من حيضها، ثم تحيض مرة ثانية وتطهر، ثم تحيض مرة ثالثة، عندئذ يتأكد من أنها غير حامل من زوجها، وبعد ذلك كله يحق لها أن تتزوج ولا يكون عند ذلك احتمال اختلاط الأنساب، فيما لو حملت من زوج جديد. وقد يقول امرؤ: إن المرأة تتأكد من أنها حامل أو غير حامل منذ الشهر الأول لطلاقها، ونقول: إن ذلك لا يكون مع كل امرأة ومع كل حالة، فإن بعض النساء قد يصبن بالاستحاضة وهي انتشار الحيض في فترات غير منتظمة، وغير متقطعة، وعند ذلك يختلط على المرأة الأمر بين الطهر والحيض، ولذلك اشترط القرآن الكريم الطهر بعد الحيض ثلاث مرات حتى يتأكد الأمر عند كل النساء. ويدل على ذلك أيضًا أن هذه هي عدة المرأة المطلقة عندما تكون في سن الشباب أو السن التي يمكن للمرأة أن تحمل فيها وتضع.

أما إذا كانت المرأة قد يئست من المحيض، أو أنها لم تحض بعد فقد اشترط القرآن الكريم أن تنقضي ثلاثة شهور على طلاقها، قال تعالى في سورة الطلاق: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴾. وللقارئ الكريم أن يتأمل في هذا السياق القرآني ويوازن بين عدتين

للمرأة التي يئست من المحيض، أو الصغيرة التي لم تحض بعد، تلك قال إن عدتها ثلاثة قروء، وهذه قال إن عدتها ثلاثة أشهر، وفرق دقيق بين الأمرين عند تدقيق النظر في التركيب القرآني، ثم إن في الآية كلمات تكشف عن أغوار النفس الإنسانية عند المرأة، منها كلمة (يئسن) فهي تدل على فترة تودعها المرأة وهي في غاية الأسف والحسرة. فما من امرأة ترغب في أن تودع حياة الخصوبة والشباب والإنجاب إلى حياة الخمول والهرم واليأس، تلك شهادة صادقة على كبر المرأة وتقدمها نحو العجز، وهي لعمري أقسى شهادة وأمرّها على نفس المرأة، هي الشهادة التي تتمنى المرأة أن تزوِّر فيها وتخالف فيها الحقيقة ولكن قدرة اللّه عز وجل ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ جعل في جسد المرأة شاهدًا عليها لا يكذب، ولا يتخلف ولا يناقش، ذلكم هو اليأس من المحيض، فمهما حاولت المرأة أن تقول، أو أن تتزين أو أن تمثل فإن هذا الشاهد لا يكذب، وهو الشاهد الذي يهتف بالمرأة من داخلها أن الأمر قد انتهى، ولذلك فإنهن معاشر النساء (يئسن من المحيض) ويا لها من كلمة دالة في موقعها هذا الذي لا تغني فيه كلمة غيرها، أما هؤلاء (اللائي لم يحضن) فإنها دليل على جواز خطبة المرأة وزواجها قبل الحيض، وبخاصة إذا كانت المرأة ذات جسد ناضج تام، وهذا يمكن أن يكون كثيرًا في بعض المناطق، وفي كثير من أنماط الشعوب الإنسانية، كما أنه حَضٌّ على الزواج المبكر الذي يعصم الشباب والنساء من كثير من مشاكل الزلل والانحراف.




﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾

سورة المائدة من آخر سور القرآن الكريم نزولا، أي أن ما نزل فيها من أحكام وقواعد وفرائض يعد من ثوابت الدين الإسلامي الحنيف، إذ إن الدين اكتمل عند نهاية الفترة النبوية، وفي هذه السورة نفسها (الآية رقم ٣) نزل قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

يقول تعالى في الآية رقم ٣٨ من هذه السورة الكريمة، يقول فيها عز وجل: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾فهذا الحد - إذن- في قطع يد السارق والسارقة هو حد ثابت قطعي، وفرض دائم في دين الله. ولقد يرتاع بعض الناس، وبخاصة من لم يدرس الإسلام ويفقه أحكامه، من هذا الحد القاسي. ولقد ظن بعض الدارسين من غير المسلمين أن المجتمع الإسلامي سوف يكون بهذا الحد مجتمعًا من المعوقين، ممن يعلقون سواعدهم على صدورهم، يستجدون الناس لقمة العيش. وهذه لعمري نظرة سطحية بسيطة إلى الأمر. ولو نظر المرء إلى الإسلام دينًا متكاملا، نافذًا في شؤون الحياة كلها، لعلم أن هذا الأمر هو من أشد الأحكام رحمة بالناس، وأثرًا في إرساء قواعد الأمن والطمأنينة واليقين والسلام في حياتهم.

إن حد السرقة حد من حدود الله التي أمرنا سبحانه وتعالى ألا نضيعها أو نعتدي عليها. ولقد أقسم رسول الله ﷺ بالله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع يدها؛ حتى لا يتهاون الناس بإقامة الحدود، وحتى لا يفرق الناس، عند إقامة الحدود، بين صغير وكبير وغني وفقير، وحاكم ومحكوم. والذي يقرأ تاريخ المسلمين، ويطلع على صورة الحياة في العصر النبوي، وفي صدر الإسلام، وفي خلافة الراشدين، يجد أن هذا الحد لم يكد ينفذ في إنسان على الرغم من التشديد والحرص على إقامة الحدود، ذلك أن وعي المسلم بدينه، ويقينه من أن الخليفة المسلم لا بد له أن يقيم شرع الله وينفذ

حدوده، يمنعه من الاعتداء على حد من حدود الله. ولك أن تتصور مجتمعًا إسلاميًّا يكون أفراده جميعًا على يقين من أن حد السرقة، وهو قطع اليد، سوف ينفذ في أي امرئ يعتدي على حدود الله، وعلى أموال الناس، أيا كان مركزه الاجتماعي أو السياسي؛ إن هذا المجتمع الآمن المطمئن الخالي من السرقات، البعيد عن إقامة حد السرقة لعدم وجود السارق أو السارقة التي يقام عليها الحد، قد كان في حياة المسلمين حقيقة واقعة حينًا من الدهر، وإن هذا المجتمع المسلم يمكن أن يكون مرة أخرى وأن يكون دائمًا لو أن أولي الأمر أقاموا حدود الله وفق شرع الله.

إن إقامة الحد مرة واحدة، يمنع السرقة سنين عددا، ويتيح للتاجر مثلا أن يذهب إلى المسجد، أو أي مكان آخر دون أن يغلق باب دكانه، ذلك أن قلوب الناس عامرة بالإيمان، أو راهبة من حدود الله. والمرء دائمًا بين حالتين: حالة الرغبة والرهبة، الرغبة في طاعة الله والرهبة من عصيان الله ونيل عقابه، ثم إن قطع يد السارق – إن حصل– يجعل من هذا المحدود حارسًا بعد ذلك على دين الله، وشاهدًا على عدل الله عز وجل؛ لأن السارق الذي يتجاوز كل التسهيلات التي قدمها له الدين وإمام المسلمين من توفير العمل، أو التجاوز عن الذنب إن كان المرء عند ارتكاب السرقة بحاجة إلى المال، إن هذا السارق يستحق العقاب لأنه سرق دونما أي سبب يدعوه إلى ذلك، ولعل كل فرد يرتدع عندما يرى أن حكم الله عز وجل كان عدلا فيه، وإقامة الحد عند ذلك تحقيق للحياة الكريمة التي وصفها الله عز وجل ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾.

فإذا نظرنا بعد ذلك في أسرار البيان الإلهي في هذه الآية الكريمة نجد فيها شواهد عديدة من شواهد الإعجاز في القرآن، انظر أولا إلى تقديم كلمة (السارق) على (السارقة) وتدبر ما فيها من دلالة على أن المرأة تابعة في هذه الجريمة للرجل، وأن الرجل له الدور الأول في عملية السرقة والتخطيط لها؛ لأن السرقة تحتاج إلى جرأة وقوة وتدبير، قد يكون الرجل

أقدر على ذلك من المرأة، في مقابل ذلك نجد أن كلمة (الزانية) تقدمت على (الزاني) في آية أخرى تتحدث عن هذه الجريمة وهذه الفاحشة، والآية هي قوله تعالى في سورة النور (٢): ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وأحسب أن كل القراء يوافقون معي على أن كل فاحشة تتم بين امرأة ورجل، ما كان لها أن تكون لو أن المرأة كانت حاسمة في ردها أو رفضها. إنني أعتقد، وقد يعتقد معي معظم القراء، أن أي رجل في الدنيا لا يستطيع أن ينال من امرأة شيئًا إذا كانت هي لا تريد ذلك، ولذلك سمى الناس ذلك، في حال حصوله، اغتصابًا..

إن المرأة الشريفة العفيفة المعتزة بشخصيتها لا يستطيع أي إنسان أيا كان أن ينظر إليها نظرة شريرة، أو ينال منها أو من عِرضها، أما إذا أحس الرجل خضوعًا بالقول أو بالنظرة أو بالحركة من المرأة فإنه يتشجع ويتمادى ويسير في طريق الغواية حتى نهايتها، قال الله عز وجل في سورة الأحزاب الآية (٣٢): ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ والخضوع بالقول هو أن يتسم قول المرأة للرجل بما يُشْعِر الرجل بإمكانية خضوع المرأة له، وموافقتها على مجاراته في أطماعه وشروره، ومن هنا كان تقديم كلمة (الزانية) على (الزاني)، أما في السرقة فقد تقدم (السارق) على (السارقة) وما أظن أن أحدًا من القراء يماري في سمو البيان في هذا الأمر..

ثم انظر ثانيًا في قوله تعالى في الآية نفسها: ﴿ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ ولعلك تتساءل مثلي عن سبب قطع اليد دون غيرها من الأعضاء، وعن دلالة ذلك، ولعل من بعض وجوه الحكمة في ذلك أن اليد هي آلة السرقة، هي التي تمتد إلى ما حرم الله عليها، فاليد التي تمتد على حرمات الله تقطع حتى لا تعود ثانية إلى ذلك، وقطع اليد حكم عدل من الله عز وجل، فالمال الذي نقص بالسرقة يجب أن يقابله نقص في جسم الإنسان الذي سرق، نقص

بنقص، ثم إن في الأمر دلالة أعمق من ذلك، فالمرء الذي يسير في الشوارع مقطوع اليد، فكأنه معروض على الملأ دائمًا بجنايته وهو شاهد دائم على فعلته النكراء، فكأنه رادع مستمر لمن يفكر في السرقة. ولعل الله عز وجل أراد وهو يعاقبه أن يطهّره من ذنبه، وأن يجعله عبرة لغيره، ومن يدري فلعل في هذا الاعتبار توبة للرجل، وثوابًا له؛ لأن الذي يسبب توبة المرء أو يكون سببًا في ردع الآخرين لا بد أن الله عز وجل يجزيه عن ذلك جزاء حسنًا، ومن هنا صار الحد، الذي يظن الناس أنه عقوبة، في النهاية مصدر خير، وزاجرًا عن شر، وأود أن أذكر -مرة أخرى- أن هذا المنظر، أي منظر رجل مقطوع اليد بسبب إقامة الحد عليه، قد لا يمر في السنوات الطوال سوى مرة واحدة؛ لأن إقامة الحد مرة واحدة تمنع الشر سنوات عديدة، لأن الله عز وجل أخبرنا بأن في إقامة القصاص حياة وسعادة للمجتمع.

وانظر إلى قوله تعالى ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾. وكلمة (كسبا) هنا تفيد اقتراف فعل الشر، ومنه السرقة، والجزاء من جنس العمل. والحق أن هذه المادة اللغوية (كسب وما يشتق منها)، تأتي غالبًا في القرآن دليلا على اقتراف فعل الشر، وهو عكس ما يظنه الناس؛ فهي في عرف الناس دليل على الكسب والربح، وهي في القرآن ليست كذلك، انظر في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾. وقوله جل وعلا: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾. وقوله عز من قائل: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ وآيات كثيرة غيرها. ولعل في هذا تحذيرًا من أن ما يظنونه كسبًا في حياتهم الدنيا إنما يجب أن يحذروا منه وأن يحاكموه وفق شرع الله، فإن كل عمل وكل مال يحرزه الإنسان إن لم يكن وفق شرع الله، وإن لم يكن في حدود رضا الله عز وجل وطاعته، فإنما هو عمل غير صالح، وإنما هو مال غير حلال؛ لأنه ورد من طرق غير شرعية.

وانظر في قوله تعالى: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي (تنكيلا) من الله، فالله عز

وجل ينتصر لعبادة، وينتصر لدينه، والله عز وجل يغضب إذا انتهكت حرماته، واخترقت حدوده؛ لأن حرمات الله وحدوده هي التي تشكل المجتمع المسلم الآمن، وكل اعتداء على أمن المجتمع وراحته إنما هو اعتداء على الله عز وجل ودينه، والله لا يقبل الظلم، بل ينتصر للمظلوم، ويفرض من التشريعات ما يطهر الظالم ويعيده إلى صوابه، ولذلك يفتح أبواب التوبة والمغفرة. كما تلاحظ في الآية الثانية من هاتين الآيتين اللتين نحن في ظلالهما، ثم انظر إلى قوله تعالى في فاصلة الآية الأولى منهما: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وهذه الفاصلة مناسبة لنص الآية وعقوبة السرقة، وقطع اليد، فالله عز وجل عزيز في انتقامه أي قوي، وهو سبحانه حكيم في أوامره وشرعه، ولا يستطيع فرض العقوبات إلا الله القوي العزيز، ولكن عقوبة الله دائمًا تحمل في طياتها بشائر رحمة الله، ولذلك قال تعالى في الآية التالية: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فانظر كيف اختتمت الآية التي تحمل الرحمة والتوبة بصفات الله عز وجل التي تحمل الرحمة والمغفرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.وفي الآية الأولى كانت الفاصلة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وهذا في الحقيقة إعجاز القرآن، تماسك الآيات وترابطها ووضع كل كلمة في مكانها، ولو أن كلمة وضعت مكان أخرى لاختل السياق وضاع المعنى.

يروى أن قارئًا أخطأ ذات مرة وهو يقرأ الآية الأولى فقال: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم﴾، فسمعه أعرابي فقال: «ما ينبغي للرحمن أن يكون غفورًا رحيمًا في هذا الموضع»، فانتبه القارئ إلى خطئه فعدل من قراءته وقال: «والله عزيز حكيم». وصدق الله العظيم إذ يقول في وصف كتابه الكريم:

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.



﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ﴾

تبين لنا في المقالات السابقة كلها أن القرآن الكريم تحدث عن الرجل والمرأة على أنهما عنصران متكاملان يصنعان الحياة معًا، لا يغني ولا يستغني أحدهما عن الآخر، وأنه في ظل هذا التكامل كانت آيات القرآن الكريم تتحدث عنهما في حكم واحد إذا كان الأمر يتعلق بكل منهما بصورة متكافئة لا يمتاز أحدهما فيها عن الآخر. فهما أولاد متساوون (يوصيكم الله في أولادكم) وهما (الرجل والمرأة) أو (الذكر والأنثى)، لهما حق الرعاية والرضاعة والتربية والتنشئة والتعليم والإنفاق، لا يمتاز أحدهما عن الآخر. وإنك لو راجعت آيات القرآن الكريم فيما قررته من حقوق للأبناء لما وجدت تمييزًا يذكر بين ما يجب أن يقدم للذكر، وما يجب أن يقدم للأنثى.

ولو أنا راجعنا ما قررته الآيات من واجبات على كل منهما، لما وجدنا فرقًا يذكر بين ضرورة ما يجب أن يقدمه كل منهما من واجبات لبناء حياته ومجتمعه وأمته. ومن المعروف أن المبادئ والأحكام تصبح حقائق ثابتة وقواعد راسخة إذا دأب المجتمع على تنفيذها وتحقيقها. والإسلام العظيم لم يترك شيئًا من أسس الحياة الإسلامية إلا فصّل فيه القول، سواء في آيات القرآن الكريم أو في السنة النبوية الشريفة، ومن المعلوم أنه ما دام الإنسان يخضع لقوانين وقواعد يستمدها من دينه، فإنه لا بد أن يكون مستعدًا لتحمل نتائج عمله في الثواب والعقاب على حد سواء. فالقرآن الكريم عندما بيّن ثواب الإنسان إذا قام بما أمره الله عز وجل به، وعندما بيَّن عقاب الإنسان إذا قصر فيما أمره الله عز وجل به، وإذا اقترف شيئًا نهاه الله عز وجل عنه، لم يفرق القرآن الكريم بين الرجل والمرأة في استحقاق الثواب أو العقاب، ففي ميدان الأجر والثواب يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (الكهف: ٣٠)، ويقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (فاطر: ٧)، ويقول تعالى في الآية ٣٥ من سورة الأحزاب، وهي آية لافتة للنظر، أكتفي بها للتدليل على أن الثواب للرجال والنساء واحد،

لايمتـاز أحـدهمـا فيـه عـن الآخـر إلا بعمله، يقـول تعـالـى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾.إذن فليس هناك عمل أو عبادة أو صفة يمكن أن يقوم بها الرجل دون المرأة، وإنما يمتاز أي منهما بكيف يقوم بهذا العمل. وكذلك الأمر في مجال العقاب، فلم تستثنِ آيات القرآن أحدهما من عقاب يقوم به، فالسارق والسارقة تقطع أيديهما، والزاني والزانية يجلدان، ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾، ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ (الفتح: ٦).

هذا هو دين الله عز وجل؛ يحكم بالعدل، يكافئ المحسن، ويعاقب المسيء أيا كان، فما بال الناس في هذا الزمان يستقوون على المرأة، فيخصونها بالعقاب والعذاب والقتل إذا اقترفت منكرًا ويتركون الرجل يسرح ويمرح، بل ربما يفتخر بجريمته دون عقاب أو سؤال، فيما يسميه عامة الناس بجرائم الشرف! إننا نسمع كثيرًا، ونقرأ أكثر عن فتيات وسيدات يقتلن بلارحمة تخلصًا من العار، ولم نسمع أو نقرأ عن رجال قتلوا أو طلبوا للمحاكمة فيما اقترفوه.

إن حدود الله عز وجل لم تشرّع لكي تنفذ على النساء فقط، وإن حدود الله عز وجل واضحة في كل الأمور التي شرعها الله، فحدود القتل، وشرب الخمر، والزنا، وقذف المحصنات، والميسر، والتولي يوم الزحف، كلها مقررة معروفة، وما أظن أنه دار في خلد أي من الصحابة رضي الله عنهم أو التابعين، أو الخلفاء الراشدين أو القضاة العدول في التاريخ الإسلامي أن يقيموا الحد على أحد الطرفين، وهو الطرف الأضعف، وأن يتركوا الطرف الآخر حرًّا طليقًا، لا يسأل عن ذنبه. إن العفة والشرف صفتان يتصف بهما الرجل والمرأة كلاهما، وما أظن عاقلا يقول إن المرأة التي تقترف الفاحشة

هي امـرأة سيئة على حين أن الرجل الـذي يشاركها الجريمة هو شريف عفيف، ما أظن أحدًا يقول ذلك وكلنا يعرف أن الشرف والعفة مسؤولية الرجل ربما أكثر من المرأة، لأن المرأة غالبًا تسلك السلوك الذي تتمكن منه وفق طبيعة حياتها مع الرجل، فإن عف عفت، وإن فسق فسقت.. والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «عفوا تعف نساؤكم».

إن المجتمع الذي يأخذ بهذه العقيدة أي يحكّم شرع الله عز وجل في أحكامه، يسير نحو الهداية والعدالة وتقل فيه فرص الانحراف والجريمة، ولو علم الرجال والنساء أن أي جريمة من جرائم الاعتداء على الأعراض سيعاقب عليها الرجال والنساء على حد سواء، فإن مثل هذه الجرائم سوف تقل تدريجيًّا حتى تكاد تنعدم، أما معاقبة المرأة دون الرجل، فإن ذلك فتحٌ لباب الجريمة على مصراعيه، وبدهيٌّ أن تحكيم شرع الله عز وجل فيه من الخير ما فيه، وليس هنا مجال إفاضة القول فيه. ولكن إقامة حدود الله عز وجل – في التحليل الأخير– هي العلاج الفعال لما يقع فيه الناس في لحظات الضعف والجهل والخطأ، وما أحرى ألا يعالج الخطأ بالخطأ، بل يعالج الخطأ بالحكمة والصواب، وآيات الله عز وجل تهيب بنا أنْ أيها الناس: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾.



﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

والآن نصل إلى البرهان القرآني الساطع على تكامل العلاقة بين الرجال والنساء، من خلال التدبر الدقيق الواعي لآيات القرآن الكريم. وقد كانت آية القوامة، التي أثارت بعض الناس، هي الآية رقم ٣٤ من سورة النساء، وفيها يقول الله عز وجل: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾ وعندما يبحث الدارسون في موضوع قوامة الرجل على المرأة، نراهم لا يتجاوزون هذه الكلمات المعدودات، أو هذا الجزء من الآية.. وليتهم على الأقل نظروا في الآية الكريمة كاملة، ولكن الذي لم ينظروا فيه قط، هو الآيتان الكريمتان اللتان تسبقان هذه الآية الكريمة، أي الآية ٣٢ و٣٣ من هذه السورة، وإني أرى أن دراسة هذا الموضوع المهم يبدأ من قوله عز وجل: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾.إن هذه الآية الكريمة تشكل القاعدة التي تقوم عليها هذه النظرية الأساسية في المفهوم الإسلامي، نظرية العلاقة بين الرجل والمرأة، يقول الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾ وهذا نهي ملزم من الله عز وجل لكل امرئ ألا يتمنى ما كان في يد غيره أو ما كان عند غيره مما اختصه الله عز وجل به، أو فضله به على غيره. وليس من هدف هذه المقالات الموجزة أن تفصل القول فيما فسر به العلماء هذه الآية الكريمة، وبخاصة قوله تعالى «ولا تتمنوا»، إنما هي تريد أن تأخذ من الآيات ما يتصل بمسألة الرجل والمرأة في ميزان القرآن. أما مفهوم التمني، وحكمه الشرعي، وما هو جائز وما هو غير جائز، وأدلة الأقوال كلها، فإن ذلك مفصل في كتب الفقه وكتب التفسير، ولكنا نقول هنا: «إن العلماء أجازوا تمني الخير وأفعال البر والرغبة فيها لرفع منزلتها وكرامة أهلها، دون أن يكون من أمنياتهم الإساءة إلى الآخرين أو الحرص على زوال النعمة عنهم. إن هذا يكون من قبيل الحسد المحرم في الإسلام، الذي يعد من الموبقات التي أمرنا أن نجتنبها، ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ

﴿مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾. وهـذا توكيد من الله عز وجل أن الناس يَفْضُل بعضهم بعضًا، ولكن أرجو أن ينتبه الأخوة القراء باهتمام شديد إلى هذه الكلمة الصغيرة «به» إن هذا الجار والمجرور، أو إن شبه الجملة هذا كما يسميه النحاة هو أهم كلمة في هذه الآية الكريمة. إن هذا القيد «به» يدل دلالة قاطعة على أن التفضيل له أسباب، وأن كل فرد يمكن أن يفضل الآخر بشيء هو متميز فيه أو هو مهيأ له، وإن هذا القيد (به) يدل دلالة واضحة على أن التفاضل بين الناس مستمر، ودائري، ومتبادل، أي أن كل إنسان يمكن أن يكون فاضلا غيره، ومفضولا من غيره في الوقت نفسه، أظن أنه لا بد أن نعيد قراءة الآية ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾.

إن كل إنسان منا يرى عند الآخرين أشياء كثيرة يتمنى أن تكون عنده، وهذه الأشياء يمكن أن يحصل عليها الإنسان كما حصل عليها غيره في بعض الأحيان، ويمكن أن تكون أشياء خاصة بجنس من الناس دون الجنس الآخر، فمن الحالة الأولى يمكن أن يكون إنسانٌ ما غنيًّا أو عنده أولاد كثيرون، أو عنده امرأة جميلة، أو يملك سيارة فارهة، أو قصرًا منيفًا، ويمكن أن تكون هذه الأشياء أمنيات عند الآخرين، فيتمنى أن يكون عنده مثلها. وفي الحالة الثانية يمكن أن يكون الإنسان رجلا ويمكن أن يكون أنثى. وفي كل جنس يمكن أن يكون ذا صفات متعددة، والناس يتفاوتون، ويتمنون الأماني.

إن كل ذلك يكون ولكن الله عز وجل ينهانا أن نتمنى ما ليس لنا. ويحسن هنا أن نذكّر بدلالة كلمة (تمنّى) في اللغة، ومقابلتها لكلمة (رجا)؛ فالتمني هو طلب ما يستحيل تحققه، أو يبعد جدًا الحصول عليه، وأداته ليت، كأن يتمنى الشيخ العودة إلى الشباب، ويتمنى امرؤ أن يكون عنده مال قارون. وأما الرجاء فهو طلب ما يمكن تحققه ويكون قريبًا سهل المنال، كأنْ يرجو طالبٌ النجاح في الامتحان، أو يرجو تاجر التوفيق في تجارته، أو يرجو الإنسان من ربه العفو والمغفرة والنجاة من النار. وعليه فليس للرجل أن يتمنى ما أعطاه الله عز وجل للمرأة، وليس للمرأة أن تتمنى ما أعطاه الله

عز وجل للرجل، فإن ذلك لن يتحقق، لن يكون الرجل إلا رجلا كما أراده الله، ولن تكون المرأة إلا امرأة كما أرادها الله.

ولكن الله يعلمنا أنه جل شأنه جعل في كل فرد ما يفضل به غيره؛ فليس التفاضل محكومًا لأناس دون أناس، وليس الفضل مقررًا لفرد دون آخر، بل الفضل متاح لكل إنسان، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والإنسان يكون أفضل من غيره بالعلم مثلا، ولكن غيره يمكن أن يكون أفضل منه بالمال مثلا أو بالصحة، أو بالخبرة وما إلى ذلك. ولذلك أؤكد على دلالة «به» في هذه الآية الكريمة، إن لكل فرد منا سببًا به يفضل غيره، وهذا يدل على تفاضل دائري أو تفاضل متبادل، فليس امرؤ أفضل من غيره أفضلية مطلقة أو أفضلية ثابتة، بل إن الأفضلية متبادلة. وإنني أشعر عندما أقرأ هذه الآية الكريمة أن الناس يدور بعضهم حول بعض في أسطوانة دائرية، فمرةً يكون أحدهم في الأعلى، ومرة في الأسفل، فليس أحد أفضل من غيره دومًا ولا أحد بأقل من غيره مطلقًا، وهذه -إذن- قاعدة أساسية يجب التنبه إليها عند الحديث عن الرجل والمرأة في ميزان القرآن.

وهذا نص قرآني ينبغي أن يتخذ قاعدة استثنائية عند التفكير في مثل هذه الأمور الأساسية في الفكر الإنساني، وهذه أمور لا تقبل الاختلاف وليس فيها مجال للتأويل والتفسير. والرجل والمرأة عنصران أساسيان في كلمة «بعضكم» التي وردت في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾. فالرجل إذن بنص هذه الآية الكريمة يفضل المرأة في أشياء، والمرأة إذن بنص هذه الآية الكريمة تفضل الرجل في أشياء. والله عز وجل يأمرنا بأن نقتنع بما فضل الله به بعضنا على بعض، فلا نقضي العمر في تأسف وتحسر على ما أعطاه الله لكل امرئ من أسباب الفضل والتميز والاختصاص.



﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ﴾

يُخلق الرجل إذن وتُخلق المرأة، كل منهما على صورة شاء الله عز وجل أن تكون، قال تعالى: ﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾. يخاطب الله عز وجل الإنسان في سورة الانفطار في الآيات ٦-١٢، اقرأ الآيات الكريمة وتدبر دلالاتها العميقة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾، إذن هي مشيئة الله أن يكون كل من الرجل والمرأة على الصورة التي خلقا عليها. ولا أدري لمَ ينسى الناس هذه الحقيقة عندما يتحاورون في مسألة الرجل والمرأة، ينسون أساس القضية ويجادلون في الفروع، وهو جدال لن يصل بهم إلى شيء حاسم، حتى لو امتد إلى سنوات، أو اشترك فيه شخصيات وهيئات كثيرة.

يجب أن يقام كل أمر على أصوله، ثم يتفرع الحديث وفق الحقائق الثابتة، ومن الحقائق الثابتة أن الله عز وجل خلق الرجل رجلا وخلق المرأة امرأة، وقال لنا: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾. سواء في أمور الخلق الأساسية أم في أمور الحياة العامة، وما يتصل بها من أحوال اجتماعية أو اقتصادية أو نفسية أو غير ذلك من شؤون الإنسان في الحياة. وهذه الحقيقة العامة، الحقيقة الإلهية، يجب أن تكون منطلق البحث في هذه المسألة، وتتلخص في خلق خاص لكل من الجنسين، وفق مشيئة الله وحكمته وإرادته وقدرته جل شأنه، وهذا الخلق الخاص لا ينبغي أن يكون مجالا للتمني أو الاعتراض من الإنسان، ولعل هذا يذكر بقول رسول الله ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

وهذا يعني أن الرجل والمرأة مخلوقان ليقوما بشيء محدد لا يقوم به أو لا يُغني فيه أحدهما عن الآخر، وهذه قضية كبيرة سنصل إليها إن شاء الله في سياق هذا البحث، ولكننا الآن نقول: إنه لم يرد في القرآن الكريم أو في الحديث الشريف أيما إشارة يمكن أن يستدل بها على أن أحد الجنسين خير من الآخر. إن الصفحة في هذه المسألة بيضاء، ولو سار الباحثون بحذر

في هذه المسألة متتبعين لآيات الله عز وجل لبحثوا القضية على الصورة الصحيحة التي يجب أن تتناول بها. ومن المعروف أن التفاضل يكون موجودًا بين اثنين يقومان بمهمة واحدة، أما أن يكون بين اثنين أو بين جنسين خلقَا أساسًا لمهمتين متكاملتين، فهذا أمر بعيد، بل أمر مستهجن أن يفكر فيه الناس. وحتى في مجال المهمة الواحدة، يكون التفاضل وفق صورة القيام بهذه المهمة، وليس في الهيئات والصفات الأخرى من لون أو شكل أو طول أو قصر، فإن موظفَيْن مثلا يقومان بوظيفة واحدة في مؤسسة واحدة، فإن التفاضل بينهما يكون بمقدار ما قام كل منهما بوظيفته في نطاق المنهج المرسوم، والخطط الموضوعة، ولكل منهما بعد ذلك شخصيته التي بناها لنفسه واكتسبها في حياته، وهذا مدخل جيد إلى الحديث عن الآية الكريمة التي صدَّرنا بها هذه الكلمة ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا﴾، وهي جزء من الآية القاعدة التي أتحدث عنها، وأنطلق منها في مناقشة هذه المسألة، وهي قوله عز وجل في سورة النساء الآية (٣٢): ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾. وأعتقد أن نص الآية الكريمة يدل على أن لكل مخلوق، رجلا كان أو امرأة شيئًا يفضل به على غيره. وهذه الحقيقة وحدها تجعل الناس متساوين في الاعتبار والمكانة؛ لأن لكل منهم فضلا ما يمتاز به على غيره، وهذه قاعدة عامة ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ولم تقل الآية «ما فضل الله به الرجال على النساء»، بل قال «بعضكم على بعض»، وهذا البعض يشمل النساء ويشمل الرجال، ويشمل النساء فيما بينهن، ويشمل الرجال فيما بينهم، ولذلك يمكن القول باطمئنان: إن الله عز وجل جعل الناس سواسية، لا يفضل بعضهم بعضًا في أصل الخلق، ولا في أي صفة من الصفات غير الإرادية، بل يتفاضلون -بعضهم على بعض- أيضًا بما أودعه الله في كل منهم من خصائص ومزايا يقوم بها في حياته، أو يقوم بها ليصنع حياته، وعلى الإنسان ألا ينظر

بحسد إلى الآخرين، بل يجب أن يقنع بما آتاه اللّه، وبما جعله متميزًا به. فإذا اتضحت هذه القاعدة، وأصبحت أمرًا مسلمًا به، يكون المجال متاحًا أمام الجميع أن يكتسبوا من الصفات والمزايا ما يستطيعون الوصول إليه من خلال الكد والعمل والممارسة.

فإذا اتضحت هذه المسألة، وعرف الرجل نفسه، وفيمَ خُلق ولمَ خُلق، وعرفت المرأة نفسها، وفيم خُلقت ولمَ خُلقت يكون من الممكن بعد ذلك أن تكتسب المرأة بعض الصفات التي يمتاز بها الرجال، وأن يكتسب الرجل بعض الصفات التي تمتاز بها النساء «للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن». والاكتساب هو ما يحصله المرء في حياته بجهده وعمله، وهو إضافة إلى ما يفطر عليه المرء في أصل خلقه وفق مشيئة اللّه عز وجل له.

وهذا سر ما نجده عند بعض الرجال من إتقان لأعمال النساء، وعند بعض النساء من إتقان لبعض أعمال الرجال، بعد أن نتفق على الأعمال الضرورية والوظائف الأساسية التي خلق كل منهما من أجل القيام بها، والتي بها هما يتكاملان، لا يتعارضان ولا يتفاضلان.



﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾

ومما يخوض فيه كثير من الناس دائمًا بغير علم هذه الآية الكريمة من سورة النساء رقم ٣٤ ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾. والسبب في هذا الخوض هو قراءة الآيات الكريمة مقطوعة عن سياقها، وعن معناها العام، وعن دلالاتها عندما توضع الآيات التي في موضوع واحد، كلها أمام الدارس، فيرى ما توحي به تلك الآيات مجتمعة من دلالات ومعان في الموضوع نفسه. مثال ذلك: أن تضع كل الآيات التي تتحدث عن الصلاة – مثلا– أو عن الزكاة، أو عن الجهاد، أو عن أي خُلُق من الأخلاق الحسنة أو السيئة أمامك مجتمعة، وتدرس دلالة كل آية، وارتباطها بالآيات التي قبلها أو بعدها في السورة نفسها، وارتباطها بالآيات الأخرى التي تتحدث عن الموضوع نفسه في السور الأخرى، عندئذ تستطيع أن تخرج بدراسة قرآنية عن الصلاة وعن مكانتها في أركان الإسلام، وعن دورها في صياغة المجتمع المسلم، وعن غير ذلك من الأمور، وبهذا الفهم أو بهذا المنهج تعالج قضية الرجل والمرأة في القرآن الكريم هذه القضية التي يخوض فيها كثير من الناس بغير علم.

ونظرًا لأن المرأة عنصر هام في المجتمع، وأن مجرد ذكر اسمها أو التحدث عنها يثير عند بعض الناس بعض المشاعر، فإنك تجد كل من هبَّ ودبَّ يتحدث عن قضية المرأة في الإسلام، فيقول كذا وكذا، دون وعي بأثر ما يقول في الناس، ودون حسبان لما يقول في ميزان الله. وقد تجد المرء من هؤلاء يعلي صوته كثيرًا في حديث ما عن المرأة، لا لشيء إلا ليسمع قولَه امرؤ ما، ذكرٌ أو أنثى، في مكان ما، وليقول له صباح غد لقد أحسنت، وهو بعيد عن الإحسان كل البعد، ولكنه لم يفعل سوى أن جامل (ولا أقول كلمة غيرها)، جامل أحد الناس برأيه هذا، لحاجة في نفسه قضاها وارتضاها وهيأ لها، وليس هكذا تورد آيات الله عز وجل، في أي موضوع. إن آيات الله تدرس وفق الذي ذكرته قبل قليل.

وفيما يتعلق بالمرأة والرجل فإن خطوات هذا المنهج تقتضي أن نجمع

كل الألفاظ والمصطلحات التي تتعلق بالرجل والمرأة في القرآن الكريم.. كلمات مثل: الزوج، الرجل، والذكر، والمرء، وامرؤ، وغيرها، وكلمات مثل: المرأة والأنثى، والمرأة ، والزوجة، والأم، والبنت، والأخت، والعمة والخالة وغيرها.. وكل التراكيب التي تتعلق بالرجل والمرأة، وكل الآيات التي تتحدث عنهما أو عن أي عمل يقوم به كل منهما، أو أي علاقة تجمع بينهما، وأن نربط كل ذلك بواقع حياة الإنسان، وأثر ذلك في توجيه سلوك كل منهما، وفي بناء الأسرة التي تتشكل من لقائهما.

إن الباحث إذا فعل ذلك بتفصيل وأمانة وفهم وموضوعية ودقة، فإنه يستطيع أن يقول: هكذا هو وضع الرجل والمرأة في ميزان الإسلام.

إن الله عز وجل يشرّع للإنسان حيثما كان في حدود الزمان والمكان، ويضع دينًا يحتكم إليه الإنسان، دينًا قيمًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وليس هكذا الإنسان، ولذلك فإن المرء المسلم عندما يصل إلى هذا الوعي، يطّرح كل ما يقوله الناس ويبني على ما قال الله عز وجل بوعي وفهم، ويستنتج منه شرع الله في كل الأمور.

وقصة الرجل والمرأة في ميزان الإسلام تبدأ بمصطلحين متقابلين هما الذكر والأنثى، وبمصطلح واحد يجمع بينهما هو الزوج الذي يطلق على الرجل والمرأة كليهما. فأما الذكر والأنثى فإن كلا منهما ليس خاصًا بالرجل والمرأة في المجال الإنساني، بل إن الذكر هو خلاف الأنثى في كل المخلوقات، وإن الأنثى هي خلاف الذكر في كل المخلوقات، ولذلك ورد لفظ (الذكر) ولفظ (الأنثى) في القرآن الكريم مع الإنسان ومع الضأن ومع البقر والإبل، ويرد مع المخلوقات الأخرى في معاجم اللغة، قال تعالى في الآيتان ١٤٣ ، ١٤٤ من سورة الأنعام: ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۢ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا

ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. ولهذا فإنك لن تجد في القرآن الكريم حديثًا متخصصًا بأحكام المرأة والرجل يذكرهما بلفظ الذكر والأنثى، بل بلفظ الرجل والمرأة، أما الذكر والأنثى فقد وردَا في القرآن بلفظ بيان الجنس، ووردا في المعاني العامة التي يكون فيها التشريع موجهًا لهما كذكر وأنثى دون اعتبار لخصوصية الرجل أو خصوصية المرأة فيما لهما من صفات خاصة، ولذلك قال الله عز وجل في سورة آل عمران الآية ١٩٥: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ ﴾، وقال تعالى في الآية ١١ من سورة النساء: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾، وقال تعالى في الآية ١٣ من سورة الحجرات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ ﴾، فالخطاب بالذكر والأنثى إذن هو في الأشياء العامة الأساسية التي يقوم بها الرجل والمرأة وفق خلقهما الأساسي ذكرًا وأنثى.

وعندما يلتقي الذكر والأنثى في إطار الزوجية، تبدأ بعد ذلك حلقة جديدة أو ميدان جديد من ميدان الدلالة والمعاني سنعرض له إن شاء الله.

ولا أظن القارئ الكريم إلا أن يصل إلى مثل ما وصلنا إليه من اليقين أن الرجال قوامون على النساء، ذلك أنه من الأمور البديهية أن يكون لكل مؤسسة، صغيرة كانت أم كبيرة، من يقوم على إدارتها ورعايتها وتوجيه شؤونها وحمايتها، وتحمّل المسؤولية في كل ما يعرض لها. ولو أننا نظرنا إلى الأمر نظرة واقعية، بعيدًا عن توجيهات الدين وأحكامه، بصورة مؤقتة، لوجدنا أن الناس كل الناس، يؤمنون بهذه الحقيقة، ويقدمون الرجال لقيادة شؤون الأسرة، أو للإشراف على مصالح النساء، كما يقول أهل الإدارة والتجارة، انظر إلى ثقافة الناس وعاداتهم، وانظر إلى ثقافة الشعوب كلها، ستجد أن الرجل يَعُدّ نفسه مسؤولا عن المرأة، حتى في أشد الأوساط التي

يمكن أن تعد غير متأثرة بمبادئ الدين.

بعد هذا، نعود إلى أحكام الدين وتشريعاته، لنجد أن الدين هو دين الفطرة، ودين العقل، ودين الواقع، ودين الحياة.. يقول الله عز وجل في الآية رقم ٣٤ من سورة النساء: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾ وقوّامون هي جمع قوّام، وقوّام هي صيغة من صيغ المبالغة لاسم الفاعل قائم. وقائم في اللغة هي اسم فاعل تدل على من قام بالحدث. وهي هنا تدل على من يقوم بشؤون الأسرة. وقد أوردها القرآن الكريم بصيغة المبالغة (فعّال) أي (قوّام) أي هو كثير القيام بشؤون الأسرة، ورعايتها وحمايتها، ولو نظر الناس إلى هذه المسألة هذه النظرة اللغوية المستمدة من واقع الحياة لما وجدوا فيها شيئًا مثيرًا ولا شيئًا غريبًا مما نجده في أقلام بعض الكتّاب الذين يصنعون مشكلة من لا شيء، ويريدون أن يثيروا الناس وأن يشوهوا آيات الله، وأن يجعلوها على غير ما أراده الله منها وما أنزلها من أجله، فكل مؤسسة في المجتمع – في أي مجتمع– لا بد لها من مدير، هذا المدير سماه القرآن الكريم (قوّام). هذه القوامة من الرجال جعل الله عز وجل لها أسبابًا وشروطًا؛ السبب الأول هو (ما فضل الله بعضهم على بعض)، وأرجو أن يلاحظ القارئ الكريم هذا النص الذي تحدثنا عنه في الكلمات السابقة ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾. وهنا يقول الله عز وجل: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾. والفرق بينهما أنَّ كلمة (به) موجودة في الآية الأولى وهي رقم (٣٢) من سورة النساء. وقد قلت في حينه وفي مكانه أنّ كلمة (به) تدل على أن كلا من الرجل والمرأة مفضل على الآخر بأشياء، وما دام كلاهما يفضل الآخر بأشياء فطره الله عز وجل عليها، فإنه ليس أحد منهما بأفضل من الآخر، وكذلك لم يقل الله عز وجل في آية القوامة (به). وهذه ملاحظة دقيقة، آية القوامة تقول:

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾، وهذا التركيب يعني أن الله عز وجل جعل الرجل قوامًا على المرأة بأشياء جعلها فيه، وبها كان يستحق أن يكون قوّامًا، ويمكنه أن يقوم بذلك. وليس هنا مجال للتفاضل، بل هو إعلان عن مؤهلات خاصة، يقوم بها الرجل بوظيفته وبعمله المرسوم له. هذه المؤهلات الخاصة بخلقه، وبأصل تكوينه يضاف إليها مؤهل آخر وهو الإنفاق من ماله، وحق لمن ينفق ماله أن يكون مسؤولا عمن ينفق عليه، هذه حقيقة لا يماري فيها أحد. انظر إلى هذه الحقيقة في أي مؤسسة أو إدارة تجد أن صاحب المال هو صاحب الأمر والرأي، وكل من يعمل عنده يعترفون بذلك فطرة وطبيعة وعادة ونظامًا. ولذلك يقوم الرجل على شؤون أسرته لأنه مهيأ لذلك، ولأنه ينفق عليها من ماله الذي يكد ويتعب في تحصيله بطرق الكسب المشروع. وهذه سنة الله عز وجل في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنته تحويلا.




﴿ وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ﴾

تأمل في هذا العنوان، ما أرقى دلالته على موضوعات السورة الكريمة (سورة النور)، قال القرطبي: مقصود هذه السورة ذكر أحكام العفاف والستر، وكتب عمر رضي الله عنه إلى أهل الكوفة: علموا نساءكم سورة النور. والذي يقرأ سورة النور يجد أنها تعالج موضوعات الحياة الاجتماعية بشكل عام، وأحكام الأسرة والآداب الاجتماعية بشكل خاص.

وليس هذا مجال التفصيل في عرض هذه الموضوعات، ولكني أتناول منها حكمًا واحدًا، وأبين دلالة الإعجاز القرآني في إقرار هذا الحكم، وبيان أثره في بناء المجتمع وعلاج مشكلاته، يقول الله عز وجل في الآيتين ٤،٥ من سورة النور: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

والمحصنات هن العفائف من النساء، هؤلاء اللواتي يعشن حياتهن في أمن واستقرار وعفاف وحشمة وأدب وستر، وفيما هن كذلك في حياتهن الهانئة الآمنة يفاجئهن بعض المجرمين الفاسقين برميهن بالسوء والفاحشة والعيب، فإذا حياتهن تتحول إلى جحيم، وإذا الأمن والاستقرار يتحول إلى شك وارتياب واضطراب، وإذا البيوت الآمنة تهدم وتحترق وتتحول إلى خرائب، كل ذلك بفعل كلمة بذيئة غير صادقة تصدر عن ذئب بصورة إنسان، أو عن إنسان فاسق ليس له أخلاق، وليس عنده أي ذرة من خلق أو أدب أو دين أو ذوق.

وانظر إلى رقة التصوير القرآني بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ ويرمون كأنها قذائف تسقط على هذه البيوت المحصنة. وفي الحديث الشريف عن الكبائر السبع، قال رسول الله ﷺ في نهاية الحديث: «... وقذف المحصنات الغافلات». والغافلات هنا ليس بمعنى الغفلة والجهل، بل هو دليل على عدم معرفة هؤلاء النسوة الحرائر بما قيل عنهن، فهن لا يعلمن بما يلوكه ويردده هؤلاء الفسقة، هن غافلات عما يحاك ضدهن من أقوال، وهذا يعد قذفًا لحصون العفة والشرف التي يعشن فيها.

وقد قرر القرآن الكريم حكم هؤلاء الذين يرمون المحصنات الغافلات بأنهم يجلدون ثمانين جلدة، أولا، ثم لا تقبل لهم شهادة في مجتمعهم ثانيًا، ثم هم في حكم الفاسقين الخارجين من الدين ثالثًا، إلا إذا تابوا بعد هذه الفعلة الشنعاء وأصلحوا وعاشوا حياة طيبة مختلفة عما كانوا عليه من قبل. انظر إلى هذه الحصون التي يبنيها القرآن الكريم للحفاظ على سمعة النساء الحرائر الشريفات العفيفات المحصنات. إن الذين يقذفونهنّ عليهم أولا أن يأتوا بأربعة شهداء، وما أظن أن أحدًا يستطيع أن يحقق هذا الشرط، حتى لو كان اتهامه صحيحًا.. وهذا دليل على محاولة حصر المشكلة إن كانت ثمة كذلك.. حتى تعالج بالحكمة والحسنى، فإن ثبت أن المسألة مختلفة، وأن القذف كيد واتهام، فالحكم صريح بجلدهم ثمانين جلدة، وبعدم قبول شهادتهم في المجتمع الذي يعيشون فيه.

ولنا أن نتساءل الآن: ترى أي العقوبتين أشد وأقسى، الجلد أم عدم قبول الشهادة؟ لا شك أن عدم قبول الشهادة هي العقوبة الأقصى والأشد والأكثر إيلامًا وأثرًا في حياة الإنسان. إن الجلد عقوبة بدنية تزول آثارها بعد ساعة أو ساعتين، أما النبذ الاجتماعي، والتجريح النفسي، فهو الأمر الذي لا يحتمل، فليتصور الواحد منا كيف يمكن أن تكون حياة إنسان يصدر ضده حكم بعدم التعامل معه بأيّ شكل من أشكال التعامل في حياته، لنتصور حياة إنسان في مؤسسة ما، في جامعة ما، في حي ما، في مدينة يعرف الناس المحيطون به أنه منبوذ، لا تقبل شهادته، ولا يُرغب في التعامل معه، لا شك أن هذه العقوبة أشد من تلك العقوبة البدنية المحددة، هذه عقوبة نفسية لاتطاق، وما أظن إنسانًا يمكن أن يتخذها أو يفكر فيها قبل نزولها في القرآن الكريم.

وقد نزلت عقوبة شبيهة بها بحق الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، دون عذر مقبول، فأمر رسول الله بعدم التعامل معهم، وعدم الكلام معهم، فكان الواحد منهم يأتي المسجد ويسلم على رسول الله وعلى المسلمين، وينظر إلى

شفاههم ويتمنى لو شفاههم تحركت بحرف، أو بصوت، فلا يسمع شيئًا، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت. وما أجمل هذا التصوير، تضيق الأرض على سعتها بمن ينبذه المجتمع، ويتهمه بالكذب والتزوير، إن حياته تصبح كالجحيم، فلا قيمة لإنسان إذا لم تكن له قيمة في نفسه وفيمن حوله.

ولذلك كانت هذه العقوبة عقوبة زاجرة عن هذه الفاحشة التي تهدم المجتمع، وتثير بين الناس الخصومات والحروب والعداوات. وقسوة العقوبة متناسبة مع شدة الجرم، وشدة خطره على المجتمع، وحكم القرآن الكريم على هؤلاء بأنهم فاسقون حكم صارم رادع. والفسق هو الخروج من الدين بعد أن يكون المرء قد دخل فيه. ولذلك فإن هذا القادح، الذي يهدم المجتمع بكذبه وباتهاماته وبشروره، هو قد خرج من هذا المجتمع الذي روعه وعمل على هدمه، ويحق للناس أن يخرجوه من أوساطهم، وأن ينبذوه وألا يعدوه منهم، لأنه هو الذي صنع لنفسه هذا المصير. ولكن القرآن الكريم لا يغلق الباب أبدا، بل هو يفتح طريق التوبة والصلاح لأن العقوبة في الإسلام عقوبة إصلاح لا عقوبة انتقام، فالذي يتوب عن فعلته، ويفعل الخير، ويعلن ذلك للناس، فإن على المجتمع أن يغفر له، وأن يتوب عليه، وأن يعيده إلى مكانه في المجتمع، وأن يصنع منه إنسانًا صالحًا، بعد أن كادت تزل به القدم.

لائحة المصادر والمراجع

- الأزهـري، أبو منصور محمد بن أحمد: تهذيب اللغة، تحقيق عبد الكريم الغرباوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

- الأصفهاني، الراغب: المفردات في غريب القرآن، المطبعة الميمنية، القاهرة، ١٣٢٤هـ.

- الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك: الأصمعيات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هـارون، دار المعـارف -مصر ١٩٦٤م.

- الألوسي، أبو الفضل، شهاب الدين محمود: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، إدارة الطباعة المنيرية، مصر.

- أمـين، أحمد: فجر الإسـلام، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٩٦٩م.

- ابن الأنباري أبو البركات: البيان في غريب إعراب القرآن، تحقيق طه عبد الحميد طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م.

- أنيس، الدكتور إبراهيم: في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٥م.

- أولمان، ستيفين: دور الكلمة في اللغة، ترجمة الدكتور كمال بشر، دار الطباعة القومية، القاهرة ١٩٦٢م.

- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب بن القاسم: إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثامنة ١٩٧١م.

- إبراهيم، محمد إسماعيل: معجم الألفاظ والأعلام الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٨م.

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، طبعة الشعب، القاهرة.

- بشر، الدكتور كمال: دراسات في علم اللغة، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.

- بشر، الدكتور كمال: علم اللغة العام، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠م.

- بنت الشاطئ، د. عائشة عبد الرحمن: نساء النبي ﷺ، وزارة الثقافة، عمان، الأردن، ٢٠٠٧م.

- البهي، الدكتور محمد: الدين والحضارة الإنسانية، كتاب الهلال، العدد ١٥٧، إبريل ١٩٦٤م.

- الترمذي، الحكيم: تحصيل نظائر القرآن، تحقيق حسن نصر زيدان، مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الأولى، ١٩٧٠م.

- الثعالبي، الشيخ عبد الرحمن: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، مطبعة السيد جوردان بالجزائر، ١٩٠٥م.

- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل: فقه اللغة وسر العربية، دار مكتبة الحياة، بيروت.

- الجرجاني، الإمام عبد القاهر: أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

- الجرجاني، الإمام عبد القاهر: دلائل الإعجاز في علم المعاني، صحح أصله الشيخ محمد عبده، ووقف على تصحيح طبعه السيد رشيد رضا، مكتبة القاهرة، ١٩٦١م.

- ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، طبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٥٥م.

- الجوهري، إسماعيل بن حماد: الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٤م.

- ابن الحاجب، أبو عمرو عثمان بن عمر: الإيضاح في شرح المفصل، تحقيق وتقديم د. موسى بناي العليلي، إحياء التراث الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، الجمهورية العراقية.

- حسن، عباس: النحو الوافي، دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة.

- حسان، د. تمام: الأصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م.

- الحلبي، شهاب الدين: حسن التوسل إلى صناعة الترسل.

- الحمصي، نعيم: فكرة إعجاز القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٠م.

- ابن حنبل، الإمام أحمد: مسند أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م.

- الخازن، علاء الدين إبراهيم البغدادي: تفسير الخازن، المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، المكتبة التجارية الكبرى، وبهامشه: تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل، أبو الحسن الحسين الفراء البغوي.

- الخالدي، د. صلاح عبد الفتاح: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، دار عمار، عمّان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

- ابن دريد: جمهرة اللغة، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة.

- الرازي، أبو حاتم بن إدريس: الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، دار الكتاب العربي بمصر، الطبعة الثانية، ١٩٥٧م.

- الرافعي، مصطفى صادق: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، الطبعة الثانية ١٩٦٥م.

- الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى: معاني الحروف، حققه د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٣م.

- الزَّبيدي، محمد مرتضى الحسيني: تاج العروس، تحقيق عبد العليم الطحاوي، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، ١٩٦٨م.

- الزرقاني، محمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي، بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٢هـ.

- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر: أساس البلاغة، المطبعة الذهبية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

- الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٧م.

- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي: تفسير أبي السعود المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) المطبعة المصرية، الأزهر الشريف بمصر، الطبعة الأولى، ١٩٢٨م.

- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان: كتاب سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت.

- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل: المخصص، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.

- السيوطي، الحافظ جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن، القاهرة، البابي الحلبي، الطبعة الثالثة، ١٩٥١م.

- السيوطي: المزهر في علوم اللغة وآدابها، تحقيق محمد أحمد جاد

المولى وآخرين، البابي الحلبي، القاهرة، دون تاريخ.

- السيوطي: تنوير الحوالك في شرح موطأ مالك، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، توزيع دار الفكر.

- السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول، على هامش القرآن، مطبوعة دار مروان، دار العربية.

- شاهين، الدكتور عبد الصبور: تاريخ القرآن، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٦م.

- شاهين، الدكتور عبد الصبور: القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، دار القلم القاهرة ١٩٦٦م.

- شاهين، الدكتور عبد الصبور: في التطوير اللغوي، مكتبة دار العلوم، القاهرة، ١٩٧٥م.

- الشرقاوي، محمود: معجزة القرآن، كتاب اليوم، العدد ١٨٧، يونيو ١٩٨١م.

- شوقي، أحمد: الشوقيات، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٩٧٠.

- الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، ضبطه وصححه أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٤م.

- الصالح، الدكتور صبحي: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة.

- الضبي، المفضل بن محمد بن يعلى: المفضليات، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م.

- طبارة، عفيف عبد الفتاح: روح الصلاة في الإسلام، دار العلم

للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.

– طبارة، عفيف عبد الفتاح: اليهود في القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٦م.

– الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠م.

– عبد الباقي، محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مطابع الشعب، ١٣٧٨هـ.

– ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله: أحكام القرآن، مكتبة السعادة بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٣١هـ.

– ابن العربي، محيي الدين: تفسير القرآن الكريم، تحقيق وتقديم د.مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت.

– أبو عودة، د. عودة: التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، مكتبة المنار بالزرقاء، الأردن، ١٩٨٥م.

– أبو عودة، د. عودة: شواهد في الإعجاز القرآني، دار عمار، عمان، الأردن، ١٩٩٥م.

– ابن فارس، أحمد: الصاحبي، المكتبة السلفية، القاهرة، ١٩١١م.

– ابن فارس، أحمد: مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، البابي الحلبي الطبعة الأولى، ١٣٦٨هـ.

– الفخر الرازي: التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، طهران، الطبعة الثانية.

– الفيروز آبادي، مجد الدين: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية،

القاهرة، ١٩٦٣م.

- الفيروز آبـادي، مجد الدين: القاموس المحيط، المطبعة المصرية، الطبعة الثالثة، ١٩٣٥م.

- ابن قتيبة، أبو بكر محمد بن عبد الله بن مسلم: تأويل غريب القرآن، شرح وتحقيق أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٨م.

- ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، شرح وتحقيق أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٨م.

- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن (المعروف بتفسير القرطبي) دار الشعب، كتاب الشعب،دون تاريخ.

- قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة السابعة ١٩٧١م.

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت: الطبعة الثانية، ١٩٧٠م.

- كحالة، عمر رضا: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٢م.

- مالك بن أنس: الموطأ، صححه ورقمه محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الشعب، القاهرة.

- المبارك، الدكتور مازن: نحو وعي لغوي، مكتبة الفارابي، دمشق، ١٩٧٠م.

- محمود، الدكتور مصطفى: من أسرار القرآن، كتاب اليوم، مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٧٦م.

- مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

- مقاتل بن سليمان البلخي: الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، دراسة وتحقيق د. عبد الله محمود شحاتة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م.

- الشيخ منصور علي ناصف: التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ﷺ، المكتبة الإسلامية، الطبعة الثالثة، ١٩٦٢م.

- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرّم الأنصاري: لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

- النحاس، أبو جعفر: إعراب القرآن، تحقيق د. زهير غازي زاهد، وزارة الأوقاف، الجمهورية العراقية، بغداد، ١٩٧٧م.

- ابن هشام، الإمام أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري: السيرة النبوية، ضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا وزميلاه، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، ١٩٥٥م.

- ابن هشام، عبد الله جمال الدين، ابن هشام الأنصاري: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، دار الجيل، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٧٩م.

- ابن هشام: شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، المكتبة التجارية الكبرى، بمصر، الطبعة العاشرة ١٩٦٥م.

- ابن هشام: شرح قطر الندى وبلّ الصدى، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

- ابن هشام: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، حققه وخرج شواهده الدكتور مازن المبارك.

١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.

د.عبد العزيز برغوث.

٢- عينان مطفأتان وقلب بصير(رواية).

د. عبد الله الطنطاوي.

٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.

د. محمد إقبال عروي.

٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.

د. الطيب برغوث.

٥- ظلال وارفة (مجموعة قصصية) .

د. سعاد الناصر(أم سلمى).

٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.

د. مصطفى قطب سانو.

٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.

د. عبد الكريم بوفرة.

٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.

د. إدهام محمد حنش.

٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.

د. محمود النجيري.

١٠- ملامح تطبيقية في منهج الإسلام الحضاري.

________________ د. محمد كمال حسن.

١١- العمران والبنيان في منظور الإسلام.

________________ د. يحيى وزيري.

١٢- تأمل واعتبار: قراءة في حكايات أندلسية.

________________ د. عبد الرحمن الحجي.

١٣- ومنها تتفجر الأنهار(ديوان شعر).

________________ الشاعرة أمينة المريني.

١٤- الطـريـق... مـن هنـــا

________________ الشيخ محمد الغزالي

١٥- خطاب الحداثة: قراءة نقدية.

________________ د. حميد سمير

١٦- العودة إلى الصفصاف (مجموعة قصصية لليافعين)

________________ فريد محمد معوض

١٧- ارتسامات في بناء الذات

________________ د. محمد بن إبراهيم الحمد

١٨- هو وهي: قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم

________________ د. عودة خليل أبو عودة

نهـر متعـدد.. متجـدد

هـذا الكتـاب

والعجيب أنه في الوقت الذي تجمع فيه كلمات الله عز وجل بين الذكر والأنثى، فلا تجعل بينهما فرقًا في الاعتبار، ولا تجعل للجنس أثرًا في تقبل العمل والمجازاة به، نجد أن الإنسان الضعيف المخلوق يضع من التشريعات والقوانين ما يفسد فيه شرع الله الحكيم... ويضطر لذلك أن ينظر إلى المرأة نظرة تختلف عن نظرته للرجل، ويبني على هذه النظرة الخاطئة نظريات وقوانين يتصرف على هدي منها. ومع مرور الأيام والسنين، تصبح هذه القواعد والنظريات، التي شرعت خطأ، عادات وتقاليد راسخة في حياة الناس، ومن عجب أن كثيرًا من الناس بعد ذلك من الأجيال اللاحقة ينسبونها إلى الإسلام، فيقولون إن القرآن الكريم فرق بين الرجل والمرأة، أو امتهن المرأة، وجعلها طبقة دنيا لاترقى إلى مستوى الرجل السيد، والإسلام من كل ذلك براء، والدين ينكر ذلك كل الإنكار.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية
www.islam.gov.kw/thaqafa